المركز القومي للترجمة

ثيوذوروس غريغورياذيس

العزى
ألف عاشق وعاشق

ترجمة

خالد رؤوف



2342

سلسلة الإبداع القصصي

العـــزى

ألف عاشق وعاشق

(روايـة)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2342
- العزى: ألف عاشق وعاشق
- ثيوذوروس غريغوريادنيس
- خالد رؤوف
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة:
ΑΛΟΥΖΑ
ΧΙΛΙΟΙ ΚΑΙ ΕΝΑΣ ΕΡΑΣΤΕΣ
Θεόδωρος Γρηγοριάδης

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

العـــزى

ألف عاشق وعاشق

(روايـة)

تـأليـف: ثيوذوروس غريغوريـاذيس
ترجمة : خالد رؤوف

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

غريغورياذيس، ثيوذوروس
العزى: ألف عاشق وعاشق / تأليف: ثيوذوروس غريغورياذيس؛
ترجمة : خالد رؤوف
ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة - ٢٠١٦
٤٦٨ ص ، ٢٠ سم
١- القصص اليونانية
(أ) رؤوف ، خالد (مترجم)
(ب) العنوان ٨٨٣

رقم الإيداع ١٦٨٨٣ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى 978-977-718-805-0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

- **الجزء الأول** : حديقة فى الكيراميكو 9
- **الجزء الثانى** : غواية البحر المتوسط 87
- **الجزء الثالث** : المستشرقون 155
- **الجـزء الرابع** : أدب 193
- **الجزء الخامس** : مدن حجرية 223
- **الجزء السادس** : لام العرب (لاميات العرب) 287
- **الجزء السابع** : زيارة إلى معبد الإلهة العزى 343
- **الجزء الثامن** : الحديقة تزدهر فى الشتاء من جديد 379
- **الجزء التاسع** : عرض للزواج 413
- **الجزء العاشر** : تونس 447

« دعونا نتقبل الحقيقة بالأخير؛
نحن يونانيون – ثم ماذا؟ –
لكننا نحمل حبّاً ومشاعر آسيوية،
لكن هذا الحب وهذه المشاعر
من وقت لآخر لا يروقان للروح اليونانية »

قسطنطين كفافيس.

« لا يوجد شيء يفصل بيني وبين جذوري،
لا شيء بيني وبين حضوري
سوى تلك الشرايين الدقيقة في جسد الأبجدية »

أدونيس.

الجزء الأول

حديقة فى الكيراميكو

(١)

راح الضوء يغسلها على حين كانت تجلس خلف النافذة الزجاجية، كل شيء سيبدأ من هنا. بإيماءة بسيطة. بتصفح جريدة. لكنها لم تكن لديها أدنى فكرة عما سيتبع. انحسر الضوء فجأة، إثر مرور امرأة ضخمة خارج النافذة الزجاجية فحجبت الضوء ونشرت الظلال فى محيط "ماريانا".

كان يوم سبت مثل الكثير من أيام عطلة السبت. تحركت من منزلها سيراً على الأقدام، ارتدت بالطبع حذاءً خفيفًا منخفض الكعبين؛ أصابها التعب فيما كانت تسير صاعدة شارع "إيرمو" المكتظ بالنساء والأطفال، دون أن يمنعها هذا من أن تلقى نظرة على واجهات المحالّ فهذا بالطبع يرفع من روحها المعنوية. إلا أن الملل أصابها بسرعة فاستمرت فى صعود الطريق. لهثت حتى وصلت إلى نهاية شارع "إيرمو" كى تصل إلى الموعد المعتاد ظهيرة كل يوم سبت.

كانت تجلس على أريكة جلدية، وأمامها نافذة زجاجية رمادية؛ فى السبت القادم لن تكون هنا، ولن تسمع هذه الموسيقى الناعمة التى

تذكرها بالجزر وبارات الشواطئ. كانت تنتظر أصدقاءها بكامل الصبر فى هذه الكافيتريا المنخفضة عن مستوى الشارع، متجاهلة برواقية شديدة كل الإشارات المنبهة للأحداث التى كانت تشى بما سوف يحدث.

فى الخارج كانت تمر كل الأجناس البشرية للمدينة يحملون كل أكواد السلوك والملبس. كانوا يهبطون الحارات الضيقة من شارع "سكوفا" متلاحمين تقريبًا من فرط الزحام، يكاد الفرد منهم أن يصطدم بالآخر، وأحيانًا ما كانوا يتفادون هذا. كان الجميع على عجل مما يجعلك تظن أن هذه البقعة من المدينة تمنع السير البطىء، أو أن يسير المرء حالمًا بمفرده وفى ملكوته. أبواب الكافيتريا مفتوحة على مصراعيها، لقد حل الخريف، لكن الحر فى "أثينا" كان يشتد إلى درجة خانقة؛ الرطوبة التى جثمت على المدينة قد ارتفعت نسبتها إلى حد غير طبيعى.

كانت "ماريانا" تلاحظ المارة بين كل حين وآخر،لكن من المنتصف إلى أسفل، حيث إن هذا كان مجالها البصرى الأفقى، حيث إن الكافيتريا كانت تقع طابقًا تقريبًا تحت مستوى الرصيف. كانت ترى أقدامًا، جوارب، كولان، أحذية رجالية، كعوبًا نسائية عالية، أحذية طويلة، .... ، كانت تراقب الأكياس، وكأنها تزن ثقلها وتثمن محتوياتها.

نظرت إلى الساعة.

يوم السبت إذن، الساعة قاربت الثانية ظهراً، الآخرون على وصول. مرت امرأة مثيرة خارج الكافيتريا قبل لحظات، كانت لتوها تتذكر هذا المشهد مثل أقصوصة من صورة فوتوغرافية، أو استمرار لوجود المشهد فى مرحلة إعداد ذهنية. نهضت وخطفت الجريدة الأسبوعية المجانية Athens Voice. ألقت نظرة على الأفلام الجديدة فى دور العرض، مرت على الإعلانات الشخصية، كان يروق لها كثيراً كل هؤلاء المعلنين من ذكور وإناث الذين كانوا يكتبون « رأيتُك (رأيتِك) فى منتصف الأسبوع فى المترو ثم غادرت الحافلة... إذا أردت أن تجدنى (تجدينى)...»؛ لكن الحظ لم يسعفها أن تكمل قراءة هذه الإعلانات، حيث إن باب الكافيتريا فتح ودخل طفل غجرى يبيع المناديل الورقية؛ نظرت إليه وأرسلت إليه إيماءة حنونة فإذا بالطفل يلوى قسمات وجهه مستنكراً. لكنها حزنت لحاله. وأخيراً وصلت... نهضت لتقبل صديقتها.

« ماذا بك؟ » سألتها مارثا، فأجابت "ماريانا" « وماذا بى ؟ ليس بى شىء، أشعر بالملل... ».

« أشعر بالملل، أشعر بالملل أو على الأرجح، لا أريد أن أضيع عمرى وأنا أعمل فى المراجعات اللغوية».

كانت مارثا تحمل كيس بضائع من محال زارا، لم تعد تخجل من محال زارا، قبل عامين، كانت تبدل الأكياس، كانت تحمل دوماً كيساً من إحدى الماركات العالمية لتنقل فيه مشترياتها. عرضت عليها ما ابتاعته من

البضائع «الزاروية» على حد قولها، وهى نادمة كالعادة على اختياراتها. فهما على أية حال كانتا قد اقتنعتا ورضيتا بأمرين وهما: لن تصبحا ثريتين، لكن ستعيشان حياة ثرية.

«يبدو أنك على ما يرام» قالت "ماريانا" لصديقتها. «احكِ لى عن الأخبار...».

وراحت الأخبار تسيل كالماء، تتدفق. كانت مارثا تعمل فى مطعم/بار ليلى فى منطقة بسيرى، وراحت تحكى... كانت قصتها تبدو شيقة، لكن لنغلق آذاننا قليلاً مع "ماريانا" التى تذكرت شيئًا، وفتحت الجريدة تبحث عن صفحة بعينها.

«لا تنتبهين إلى ما أقول» زامت مارثا التى كانت تحكى لها عن كل ماحدث فى حفل توقيع ألبوم جديد لأحد المطربين.

قاطعتها "ماريانا" قائلةً: «هنا مطلوب لُغوى لتصحيح النصوص على دراية بالكمبيوتر. ساعات عمل حرة...».

« ألم تقولى أنه ليس لديك رغبة فى مواصلة... ».

« لدى إحساس حول هذا الإعلان... دعينى أتصل بالرقم حالاً...».

أخرجت هاتفها الجوال. على حين كانت مارثا تجلس يائسة حيث أدركت أنه لن تكمل قصتها عن أحداث تلك الليلة. فأطلقت بصرها نحو الخارج وشردت.

تحدثت "ماريانا" فى الهاتف وكانت مختصرة.

« صوت امرأة ناضجة رد عليّ، تحدثت بلغة يونانية مغناة بعض الشيء. أعطتنى موعداً يوم الأحد... ظهراً... تسكن فى الـ كيراميكو، على بعد شارع من الشارع الرئيسى. ما اسم الشارع؟...» وأخرجت من حقيبتها الكبيرة نوتة صغيرة كى تكتب العنوان كما سمعته.

« خلف هذا الملهى الليلى الرخيص أليس هناك هذا الشارع؟ ».

« حيث كان يغنى خادزيانيس ».

« دعينا من المطرب الآن، لكن المنطقة لا بأس بها » فكرت مارثا ثانية، وقالت: « لدى صديق يعمل بالإخراج يسكن هناك فى السنوات الأخيرة. لقد علا شأن هذه المنطقة مؤخراً ».

راحت "ماريانا" تعيد قراءة ما دونته مليًا، ولم يكن ما دونته أكثر من ثلاث كلمات.

« هل من الممكن ألا تنشغلى كثيراً بهذا الإعلان العشوائى؟ ».

«... ولكن مثل مدرسة للغة » راحت "ماريانا" تفكر فى أنها قد أقسمت على ألا تدخل أبداً فصلاً دراسيًا فى حياتها.

« لا توجد هناك مدرسة، اهدئى » قالت مارثا محاولة أن تهدئ من فزعها.

« إذا سمعت أمى هذا لأصابها الإغماء ».

أمـها، «دايزى المدهشة » كمـا كان الأولاد يلقبونهـا، فور أن أحيلت إلى التقاعد من العمل الحكومى بعد سنوات طويلة فى مدارس الثانوى، سقطت ميتة. يقال إن الكثير من المعلمين ممن قد أحيلوا إلى التقاعد يصابون بكوارث متعددة من هذا النوع. إلا دايزى الهيستيرية كانت جذور مشاكلها فى موضع آخر..

كانت مارثا تدخن السجائر الملفوفة، وتصنع سيجارتها وتدخنها حتى نصفها ثم تطفئها فتشعل السيجارة التالية – ربما عادة لف السيجارة كانت تعطيها سعادة من نوع ما. بدأتا فى التحدث فى الوقت نفسه، كل منهما راحت تحكى عن نفسها دون أن تسمع أىٌّ منهما الأخرى ولا فى أى أمر تحكى.

كانت مارثا صديقتها منذ سنوات، وهى الصديقة الوحيدة التى بقيت لها بعد أن عادت إلى أثينا. ولم يكن هذا بسبب أنها غيرت محل سكنها بعد مشاجرات عنيفة مع أمها، لم يكن أخوها الذى تزود ورحل إلى بلاد الهند البعيدة ولا أبوها الذى سقط فى حالة اكتئاب مؤخراً، لم يعد يحتملها ولا حتى تلك السيدة التى فى منتصف العمر التى اختارها أبوها لتكون رفيقة آخر سنىّ عمره، هذا غير أن كل صديقاتها وزميلات الدراسة كن قد اختفين بالفعل، إما تزوجن أو صرن منتميات ومنشغلات بأوساط وبيئات مختلفة.

« وماذا عن سبيروس؟ ».

« لقد بدأ يحوم ثانية حول منطقة سكنى ».

كانت تسكن فى شارع منحدر من منطقة ثيسيو؛ فى شقة صغيرة استأجرتها عندما عادت من الخارج، حتى تكون قريبة من وسط المدينة وبعيدة عن والدها، وعن تلك الشقة الشاسعة حيث كان زوج العشاق العجائز.

« انتهى يا مارثا، لقد قاطعت "سبيروس" للأبد ».

كانت مارثا تعلم أنه خلف هذا التصريح بالمقاطعة النهائية يختبئ عناد لا يحمل أى رجعة.

« ليذهب إلى زوجته وأولاده. لقد صرت أمتعض من الرجال الذين يعيشون حياة مزدوجة ».

« لديك حق يا ماريانا. أنا أجده محافظًا للغاية، كل الرجال المتزوجين هم محافظون فى أعماقهم... ».

بعد قليل من الوقت وصل الآخرون. "فيكى" مع صديق لها من العمل، "ماكسيموس"، والذى عرفوه على "ماريانا". قرروا جميعًا أن يذهبوا ليتناولوا سلطات صحية من هذا المطعم الذى افتتح جديداً على مقربة من الكافيتريا، ويقدم وجبات صحية من منتجات صديقة للبيئة، وقد منحه النقاد ثلاث نجمات في آخر تقرير عن المطاعم فى المجلة المختصة.

(٢)

ولدت "ماريانا" قبل ستة وعشرين عاماً فى أثينا ولم تفكر أبداً أن تتركها إلا لسنة واحدة، عندما ذهبت إلى بريطانيا للدراسات العليا. كان هذا قرارها بتأييد من والدها الذى دعمها مادياً حتى يضمن ابتعادها عنه، خاصة بعد وفاة أمها.

كان أخوها فى هذه الفترة نفسها قد ترك دراسة الهندسة، ولم يكن مهتمًا بشىء سوى أن يرحل بعيداً عن اليونان - بل كان يتساءل: أيضًا لماذا يجب عليه أن يؤدى الخدمة العسكرية؟.

لم يهتم قط بأصدقاء ولا بأقارب، هذا العبء مرفوض.

وكانت "ماريانا" لا تحب أقاربها، وفكرة الارتباط العاطفى بهم لمجرد صلة الدم.

ربما كانت تحب أو تهتم فقط بعمتها التى كانت تعمل فى الخدمة القنصلية فى "هامبورج" وتزوجت من موظف دبلوماسى ألمانى. يمكن أن نجزم بأن « أقارب المهجر » يحظون بمكانة خاصة. كانت تقول هذا

دائمًا بسخرية، فلقد كانت تشعر بانتماء أكبر للثقافة الغربية. ولكن على ما يبدو أن هذه السخرية وبشكل سريع ومفاجئ ستتحول إلى فراش عروس فى أحد بلدان شمال أفريقيا.

لكنها لم تكن تعلم شيئًا حتى الآن. لنعود إلى هذا اليوم وهى عائدة إلى منزلها سيرًا على الأقدام بعد أن تناولت الغداء مع أصدقائها فى مطعم الوجبات الصحية صديقة البيئة، دخلت فى أحد أروقة "ثيسيو" المعروفة المزدحمة، هذا الحى الذى يختلف حاضره عن ماضيه كثيرًا على مرور السنين. الكافتيريات والبارات مصطفة على الجوانب، ملتصقة، وكلها مكتظة بالشباب الصغير، يحملون قهوة خريفية باردة فى أيديهم، موسيقى إلكترونية لا يستمع إليها أحد، حيث كانت تختلط بموسيقى البار المجاور، زخم لا يعنيها، زحام من العابرين، لم يكن هذا الحى يتسع لهم...

مساء السبت، بدا لها البيت أكثر عزلة، روائح من اليوم الفائت، كانت خيالات الماضى تحوم فى حياتها فى هذه الفترة، ولو غاصت في أعماقها لأدركت أن أحدًا من بعيد يرسل إليها رسائل أو إشارات.

رتبت مكتبها، وضعت صورة أمها فى وضع مائل على الرف حتى لا تكون مواجهة لكن بشكل يسمح لها بالحضور الخفيف. كانت "دايزى" متأنقة لكن بصرامة، متحفزة لتخرج خارج ملابسها. فى الأسابيع الأخيرة قبل وفاتها لم تكن على اتفاق مع أحد فى هذا العالم، انكبت على الكتب، راحت تفرزها وتضع هوامش وتعليقات على حروف الصفحات.

أما "ماريانا" فقد انكبت على التصحيح اللغوى، متمنية أن تكون هذه هى المرة الأخيرة التى تصحح فيها نصًا مكتوبًا بخط اليد. كل هذه الدراسات العليا، كل هذه الدراسات الأدبية والتنظير كى يعطوها بين حين وآخر مخطوطًا مملاً كتبته امرأة كالعادة بالكاد تعرف اللغة اليونانية الحديثة، سيؤول على أرفف إحدى المكتبات فى القرى البعيدة – آه... وربما رواية مفصلة على ثلاثين حلقة مسلسل تلفزيونى. ماذا كانت تظن ؟... أين ذهبت الحكمة والتفكير والدراسة فى تعليقات الأدب الحديث ؟... بل أين ذهبت تلك المناظرات الساخنة مع أستاذها فى الأدب، عندما حاول أن يفرض عليها «إلقاء نظرة» على نموذج من الأدب النسائى الحداثى؟.

تنظيرات وتعليقات، وآراء نقدية ودراسات مقارنة، وتعليقات اعتراضية ونزاعات فقهية وأدبية، تعج بها كتاباتها النظرية، ورغم هذا لم يجد كل هذا لا مكان ولا معنى فى هذه الكومة من الأوراق القابعة أمامها تنتظر التدقيق والتصحيح. كانت تعتقد فى تحولات الحياة. فهى على الأقل لم تنشأ بلا أى تدخلات أو أى وجود فعلى أو سلطة للأسرة عليها، وهذا الأمر جعلها تواجه نفسها بحدة نقدية كانت تظن أو ربما تتمنى أن تسير بها الأمور على مايرام هكذا فى حياتها، بالطبع كانت تفتقد إلى الرفيق فى حياتها، وأيضًا قد حانت اللحظة التى يجب أن تقرر فيها إذا كان على "سبيروس" أن يختفى من حياتها تمامًا أو أن تنخرط فى الحياة التى اختارتها.

كـان "سـبـيـروس" مـتـزوجًا ولديه طفـلان، لا توجـد عـائلة تقف فى موقف ضعيف أبدًا أمام علاقة عابرة.

كـان المذياع فى المطبخ الصـغيـر يعـزف بهـدوء ودون توقف ليـلاً ونهاراً. تماماً مثل القنديل الذى كانت تشعله أمـها فى البيت ولا ينطفئ أبدًا؛ كان مؤشر المذياع الصـغير مضبوطًا على المحطة الإذاعية نفسـها التى كـانت تخلط بين الموسـيقى اليـونانيـة الراقـيـة وبعض الموسـيقى والأغانى الأجنبية الناجحة المنتشرة. كانت الموسيقى مثل السجادة التى تسير عليها مستريحًا ومبتـهجًا دون أن تعرف على أى جزء من تصـميم نقوشـها تقف قدماك.

ليلة السبت... يوم عـمل شاق لمارثا فى البار، كـانت قد طلبت من "ماريانا" أن تمر عليها كى تحتسى معها كأسًا، كانت "ماريانا" تعرف الجميع فى البار، مالكيه والعاملين أيضًا، وكانوا دائمًا ما يقدمون إليـها المشروب بلا مقابل. لكن زبائن ليلة السبت هم دائمًا مختلفون عن الأيام الأخرى...

هذا غير أن الموسيقى التى كانت تصدح فى البـار كانت تتفق مع مـوضـة الموسـيـقى الـ "Ethnic" التى كـانت تزعـجـها وترهـقـها... كـيف يمكن للأذن أن تقفز من بلد لأخرى بهذه السـرعة، فعلى حين تستمع إلى فرقة موسـيقية من كـوبا تـهجم على آذانك الموسـيقى الأندلسـية وفـجـأة موسيقى عربية ثم .....

... كأس فأخرى ويصبح كل شيء محتملاً...

كانت مارثا تروح وتجيء وتهتز بحرفية واعية، تبتسم للزبائن الغائصين فى الأرائك الحمراء.

على حوائط البار كانت معلقة أعمال فنية لرسامين يونانيين معاصرين، كان يعرف عن ملاك البار حبهم للفنون - لكنهم لم يكونوا من محبى اقتناء الأعمال الفنية - لكن بالطبع هناك بعض الفنانين الذين يرغبون فى أن تكون بعض أعمالهم معلقة فى شبه معرض دائم.

«فيم تفكرين»؟ صرخت مارثا فى أذنها.

ظل السؤال بلا جواب، حتى لو كان هناك ثمة جواب على السؤال فلم تكن مارثا لتستقبله، حيث إنها أطلقت سؤالها وانطلقت تقدم المشروبات بعيداً عن صديقتها.

تُرى فيم تفكر؟... من الممكن على سبيل المثال أن تفكر فى مقابلة الغد مع تلك المرأة المجهولة فى حى "الكيراميكو". لا تبعد كثيراً فهى على مقربة من محل سكنها. كانت "ماريانا" تذهب كثيراً إلى هناك: حيث شارع "بيريوس"، ومتحف "بيناكى" للفن المعاصر وفى مجمع الفنون، حيث تقام الكثير من معارض الفن التشكيلى، وأيضاً كانت تذهب إلى منطقة "متاكسورغيو" وما حولها؛ حيث كانت المسارح المعنية تكتظ بالفن والمسرح التجريبى؛ فى أحد هذه الأماكن كانت تعمل صديقتها مارثا لبعض من الوقت. كما أن هناك العديد من المطاعم، إلا أنها لم تكن متحمسة كثيرة

لأصناف البشر الذين كانت تعج فى المنطقة. آه، هناك أيضًا تم افتتاح متحف للفن الإسلامى، لم تذهب إليه حتى الآن...

كانت التمشية فى منطقة "ثيسيو" وكذلك فى منطقة "كيراميكو" الأثرية تروق لها كثيرًا؛ وكانت تسرح فى نهر "إيرذانو" الذى كان يجرى مثل دمعة حرمان على الحشائش وبين الأطلال الحزينة...

اقترب "كونستاس" منها وملس على شعرها الناعم ورفعه إلى أعلى قليلاً، دفعت يده بعيداً لكنها حولت إيماءتها الغاضبة إلى رد فعل رقيق بسرعة. لم تكن تحب أن يلمسها أحد دون إعلام!.

السيد "كونستاس" كان رجلاً ممتلئًا فى الأربعينيات من عمره محبًا للحياة بشكل كبير، كان صدى ضحكاته يملأ أرجاء المكان، وكان هو الشخص الذى يأتى بالفنانين إلى هذا المكان، على حين نوعية أخرى من الرجال ذوى الأيادى الناعمة المبتسمين دائمًا كانوا يأتون من أجل بارى الشريك أو المالك الآخر للبار، وكانوا يأتون كلهم من أجل البارمان، يورغيوس، شاب وسيم يحمل اسمًا عتيقًا. لم يكن هناك رجل أو امرأة لم يتساءل كيف يمكن أن يتشكل وجه بهذا الكمال مثل الرؤوس اليونانية الأثرية.

طلبت "ماريانا" كأسًا أخرى من مشروب "المارغاريتا"، مشروب مثير وعظيم، احمر وجهها الصغير كالفراولة واشتاقت إلى تمشية مع أى شخص حتى لو كان "سبيروس"، لكن "سبيروس" الآن كان أشبه بزهرة

ذابلة، رب أسرة ناضج، لديه طفلان يفكر فيهما وينفق عليهما، كيف يمكن أن يكون معها ويطلق العنان لنفسه؟.

كان "سبيروس" يعلم أن "ماريانا" تتردد على هذا البار، لكنه لم يكن ليأتى قط إلى هنا ليقابلها على الملأ. كانت تشمئز من كونه محافظًا، هي الأخرى يا ويلها! كانت تود أن تكون مع شخص تتعلق فى رقبته ويتبادلان القبلات بين الناس، مثل الرجل والمرأة بجوارها: هو يربت على فخذيها النصف مفتوحتين تقريبًا وهى تميل على رقبته، ولا أحد ينظر إليهما، لا ينتاب "ماريانا" شعور طيب فقط، بل تشعر أنها طيلة هذا الوقت كانت بين يدى سلطة لا سلطوية لرجل متزوج ـ لكنه ـ كان يعرف كيف يعاملها عندما يكونان فى خلوة.

الكأس الثانية من "المارغاريتا" جعلها تعترف بأن "سبيروس" كان بارعًا فى الفراش، كانت تستطيع أن تقارنه بواحد أو اثنين من عشاقها السابقين، حسنًا، لم يكن لديها سجل حافل من العشاق، عندما كانت تعيش فى "لندن" كان رفيقها شابًا إنجليزيًا يدرس فى القسم نفسه، كان من الشباب القلائل الذين اختاروا أن يدرسوا فى قسم الدراسات اليونانية فى "King's College" . فمن سيهتم بلغة تقل أعداد من يتحدثونها يومًا بعد يوم؟ عندما سألته لماذا اختار هذا القسم، قال لها "ديفيد"، يمكن أن يأتى يوم ما وأكتب بهذه اللغة، لكن فى البداية علىّ أن أتعلمها. كيف يكون هذا الشىء ممكنا؟ قالت له بتعجب، هل تريد أن تكتب بعد ذلك؟. أليست الكتابة شيئا فطريًا؟

لماذا تفكر فى هؤلاء الآن، هؤلاء الرجال القلائل فى حياتها؟ و"مارثا" التى فى حياتها الكثير، ربما خمسة أكثر من "ماريانا"، ماذا جنت؟ وماذا فهمت من كل هذه العلاقات؟ ربما كان هذا السبب الذى جعلها تصرخ من الضحك بسعادة ما.

فجأة بدأت الموسيقى تعزف مقطوعة شرقية، ربما تركية أو عربية – ما هذا بحق السماء! – صوت راح يصرخ متوسلاً، صوت شجى بالطبع لكن لم يعن لها شيئًا. زبائن البار المحترمون راحوا يهتزون وهم جالسون، على حين تجرأت فتاة ونهضت تتراقص وتظهر إمكانات ومفاتن ثدييها...

نهضت "ماريانا" مغادرة. قبل سنوات، لو سمعتَ موسيقى شرقية فى بلدك كانوا سيعتبرونك مرتداً أو خائنًا، لكان سيُزج بك فى السجون، لكن الآن يسمونها موضة، موضة تفشت فى محلات "أثينا" كالوباء، وبالأخص فى منطقة "بسيرى". يزعم "كونستاس" أنه كان أول من افتتح بارًا Ethnic ثم انتشر الأمر فى المدينة بعد ذلك. إنها احتياجات كما ترى، لا يكفى بلداً نوع واحد من الثقافة كى يلبى كل احتياجاتها...

هبطت شارع "إيرمو"، ثم غيرت اتجاهها نحو رصيف "ثيسسيو". خارج محطة القطار التى ما زالت نقطة التقاء تُرتب اللقاءات والمواعيد عندها على مدار الساعة. كانت نقطة محددة، لها مدخل واحد والذى هو نفس المخرج بحيث إنه من الصعب أن تخطئ العين أحدهم. كلما

استمرت فى السير ازداد عدد المارة. عدد كبير من البشر لم ترَ مثله من قبل فى نهاية شهر سبتمبر، الجو كان أشبه بالصيف، وشاح حريرى خفيف على كتفيها كان كافياً كى يحميها من تسللَ أى رطوبة. انجلت حالة الضيق التى سببها لها المحل، شعرت أنها تنغلق فى عالمها الخاص، كانت تتهرب من نظرات الآخرين، وإن لم تكن واثقة أنها موجهة إليها. مستحيل، فلابد أن أحداً ما كان ينظر إليها...

ظَنت للحظة أنها سعيدة، دون أن تعرف السبب. قطعت شارع "إيراكليذوا" مرة أخرى وسارت على آثار قضبان الترام القديم، وفرحت عندما شعرت أن هذه الضوضاء لم تعن لها شيئًا. بالضبط عند أول تقاطع مع الشارع القديم الممهد بالحجارة راحت تسرح فى نافذة مكتبتها المفضلة. « روذو أنثى » كانت مكتبة صغيرة لها درج كى تنزل إليها ممتلئة بروائع الكتب، مجموعة قليلة لكنها جيدة. كان خارجها حائط على شكْل ركن مع البناية الملاصقة، وضعوا عليها نافذة عرض بها كل الإصدارات الجديدة التى لم يكن لها مكان على الرفوف الداخلية القليلة. اختيارات أصحاب المكتبة كانت صارمة. تذكرت كم الهراء فى الكتب التى تصححها؛ بالطبع ليس لهذه الكتابات أى مكان فى مكان كهذا، وهو أمر لم يزعجها.

ما الشىء الذى رفع معنوياتها وهى تدخل إلى شقتها؟

لديها أول موعد مهنى غير واضح المعالم فى اليوم التالى، وهذا فى حد ذاته كان يملؤها ويمنحها آمالاً كبيرة بشكل غير مفهوم. لهذا غطت

فى النوم بسهولة نسبية، وراحت فى نومها تعقد مقابلات علمية مع لجان جامعية وتفوز بكفاءتها بذلك المنصب الشاغر الذى حتى الصباح لم يتضح ما هو ولماذا كان مهماً لهذه الدرجة بالنسبة للجنة التقييم. كانت على أى حال تناضل من أجل منصب خارج اليونان... لابد أنها توابع الدراسات العليا، أو ربما، حين تفكر فى الأمر الآن، هل مر وقت طويل لم تسافر خارج البلاد؟ كانت تشتاق إلى رحلة مثل رحلات دايزى المفاجئة، حيث كانت تترك عملها فجأة تاركة خلفها كومة من التساؤلات دون أجوبة...

(٣)

لم تكن "ماريانا" تتناول غداء ها بمفردها قط أيام الآحاد، لهذا كان "سبيروس" يمر عليها بالمنزل ويذهبان نحو أطراف المدينة. فأحيانًا كانا يأكلان غداءهما مع خلفية منظر شاطئ "السارونيك"، وأحيانًا فى أحد التافرنات فى المطاعم التى نشأت فى فيلات مهجورة ومنسية، كانت متوسطة المستوى تديرها غالبًا عائلات، كانت تسمع أصوات شجارهم وهم يطعمون صغارهم الذين كانوا فى العادة يجرون بين المناضد. كان الطبق الأول أو المقبلات فى هذه التافرنات يشبعك تمامًا على حين الطبق الرئيسى عادة ما ينحت بطونًا ممتلئة مع تعليقات الجميع وتوقعاتهم بروعة الطبق القادم.

فى البداية كانت تشعر بالذنب لأنها تحرم أبًا من عائلته، لكن، فيما بعد، شرح لها "سبيروس" أن كل شىء تم ترتيبه وتنظيمه مع زوجته. وعلى كل حال كان يذهب فى المساء يأخذ الأولاد بعد أن يتناولوا طعامهم مع أمهم ويذهب بهم إلى السينما فى الغالب. وهكذا لم يكن يوم الأحد مهمًا أو مقدسًا بالنسبة للعائلة.

لكن الآن وبعد أن خف حضور "سبيروس" فى حياتها وامتلأ يومها بساعات من العمل، الآن لم يصبح الطبخ حشراً مبهجًا فى مطبخها الصغير، لكن كانت روائح الدهن المحروق التى لم تكن تهرب بسهولة من النافذة الصغيرة، كانت هذه العملية تخنقها وتضايقها. وتجنبًا لهذا الإزعاج كانت تفضل مطعم الوجبات الجاهزة القريب من منزلها، حيث كانت تشترى منه كل مساء عند عودتها للمنزل السلاطة وشريحة مشوية – كانت "ماريانا" صغيرة الحجم ووزنها قد نقص أربعة كيلوجرامات تقريبًا. « جسد مراهقة » هكذا كان "سبيروس" يصفها، فقد سمعت أن زوجته كانت تشترى ملابسها من محلات المقاسات الخاصة للبدناء، فقد رأتها ذات مرة خارج عيادته. كما أنها كانت تكبره بعامين، إلا أن "سبيروس" كان فقيراً وأنهى دراسته بعد معاناة، وكل البيوت والمكاتب كانت لزوجته. كان فى هذا الأمر صريحًا للغاية وقد اعترف لها بذلك.

فتحت "ماريانا" حاسوبها الآلى وألقت نظرة خاطفة على الرسائل الواردة. أحيانًا كان يرسل لها "أنتونى" ثم يختفى لشهور بعدها. كانت هناك رسالة من مارفا .كانت قد أرسلت لها ثانية النص الذى ترجماه معًا لإحدى المختارات الإسبانية. لم تكن تعرف "مارفا" بشكل شخصى، كل ماهنالك أن دار النشر قد اقترحت تعاونًا بينهما حول كتاب لكاتبة يونانية قد واجه نجاحًا كبيرًا فى الداخل والخارج. كانت إسبانية "ماريانا" متقدمة لكن لم تتح لها الفرصة لاستخدامها مثلما كانت تفعل بلغتها الإنجليزية وكذلك الفرنسية. كانت تحب هذه اللغة وكل الأجواء

الإسبانية، ذهبت ذات مرة بعدما وجدت عرضاً رخيصاً من تلك العروض المبهرة لتذاكر السفر والإقامة فى الفنادق التى تنتشر فى إنجلترا، كانت هذه العروض رخيصة جداً لدرجة عدم مقاومة الإغراء للذهاب خارج إنجلترا لثلاثة أيام بدلاً من البقاء فى إنجلترا حيث التكاليف الباهظة فى كل شىء.

والآن حانت اللحظة الصعبة أمام المرآة. ماذا سترتدى يوم الأحد؟ كفتاة متعلمة فى السادسة والعشرين من عمرها، هل تلجأ إلى ستايل الشباب الرياضى؟ إلى أى ستايل ستلجأ الآن؟ (ذات مرة اقترحوا عليها أن تصحح كتاباً بعنوان كيف تكونين أنيقة بتكاليف أقل، لكنها كانت من النوع الذى يفضل أن يؤخر دفع إيجار المنزل لشهرين) كانت تحب أن تسأل نفسها هذه الأسئلة منذ صغرها. لكن لم تحاول إجابتها قط، فى الوقت نفسه كانت خزانة ملابسها مكتظة بالملابس، ورغم ذلك كانت تغطى احتياجاتها على مدار العام بثلاث قطع من الجينز.

خرجت "ماريانا" للشوارع مرة أخرى. لكن اليوم كان خط سيرها مر بثلاث مناطق. قطعت ميدان القديسين فى البداية بشكل رسمى – نعم، فقد كان شعور ما يسيطر عليها أنها بصدد مقابلة مهمة – وعندما خطت نحو شارع "إيرمو" مروراً بمنطقة "كيراميكو" الهادئة، وجدت نفسها أمام المجمع الفنى جازى. هناك تجمع العديد من الناس كى يشاهدوا معرضاً فنياً لفنانة إنجليزية مثيرة للجدل. قرأت ما يكفى عن هذه الفنانة، القليل من هنا والقليل من هناك فى الصحف والنشرات، الثقافية، وقد

فتحت ذات مرة موقعها الإليكتروني فإذا بالفنانة قد وضعت مقاطع من لحظات شخصية حميمية من حياتها في سبيل الدعاية للمعرض، ومن أجل فضول الجماهير.

لم تكن فكرة سيئة على الإطلاق أن تمر على المعرض بعد أن تنتهي من لقائها وتحتسي القهوة في أحد الكافيتريات. كان لديها عشق للكافيتريات في المتاحف والمراكز الفنية؛ كانت تقضي بها ساعات وهي تتنقل بين الجولة والمرشد السياحي ورائحة القهوة.

دخلت في الشارع الرئيسي. كان الجو غائماً وكأن السماء امتلأت بالسحب، هل حان موعد تغيير الجو مع اقتراب الشتاء الذي يحمل السحب الرمادية فوق المدينة؟.

«تدخلين الشارع الرئيسي. هو في أول شارع موازٍ له » هكذا وصفت لها السيدة على الهاتف. « شارع أرتيمسو رقم (٣٠) اتصلي بي قبل أن تقرعي الجرس من فضلك».

بالفعل، هو شارع "أرتيمسو" ممر ضيق لا يتعدى المائتي متر، يتقاطع مع شارع "ليونيذو" الذي ينتهي عند خط السكة الحديدية في شارع "قسطنطيبوليوس". كانت البيوت المسكونة بالشارع قليلة. يسكنها الغجر والبوماك. بعض الصينيين والفنانين هم القاطنون الجدد لهذه المنطقة التي تكثر فيها المخازن والورش وبعض المنازل ثنائية الطوابق نصف المتهدمة، ذات أبواب حديدية وسقوف متهدلة، بعض المهاجرين كانوا

يدخلون ويدخلون فى هذه الأطلال، بوابة خشبية ضخمة كان خلفها مخزن للأخشاب، حانوت للخردوات مفتوح... وها هو رقم ٣٠ !.

بوابة خشبية مزدوجة قوية، منحوت عليها بعض الأشكال النباتية. أربع درجات واضح عليها كثرة الاستعمال، كانت تقود نحو المدخل العالى، النوافذ الزجاجية الملونة كانت محمية بقضبان الحديد الدكْن. لم يكن بالإمكان تمييز أى شىء خلفها، رغم أنه من الواضح أن هناك فيلا قديمة ترجع إلى فترة الحرب العالمية فى الداخل.

ضغطت على الرقم فى قائمة المكالمات الصادرة وانتظرت. بعد خمس رنات جاء الصوت النسائى دون أن يسأل عن المتصل.

« انتظرى من فضلك ».

فوق الدرج كانت تشعر "ماريانا" كأنها معلقة، لكن لو نزلت نحو الشارع فستكون بعيدة عن الباب الرئيسى. لكن لماذا تأخر فتح الباب؟ هل لابد لها أن تظل محشورة فى هذا المكان لأن صوتًا نسائيًا دعاها للدخول؟.

فى اللحظة التى فتحت فيها البوابة شعرت بثقة غامرة كذلك الشعور الذى انتابها عندما كانت فى امتحانات البكالوريا. لكن بدلاً من أن تظهر امرأة، برز رأس رجل من خلف الباب وألقى عليها تحية الصباح بلغة يونانية ركيكة.

«تعالى هنا يا آنسة » قال الرجل، وحينها ترددت بالفعل أن تحرك قدمًا نحو الداخل. لكن هذا الكائن كان غريبًا بالنسبة لها، كانت مقاوماتها كلها تنهار أمام كل ماهو جديد. اختلط لديها الفضول مع غريزة حماية الذات، كانت دائمًا ما تثق بهذا الإحساس العارم بالفضول وهو الذى دفعها نحو الصالة. لم تكن الفيلا بسيطة كما بدت من الخارج، إذ إن مساحتها بدت شاسعة طولاً وعرضًا من الداخل.

الرجل ذو الشعر القصير فضل أن يسير بجنبه وبعرض الطريق كى يشير ويوجهها نحو فناء مغلق به حديقة خضراء مزهرة، كانت لها رائحة الـ... اقشعرت "ماريانا"، يا إلهى. جنة صغيرة، جنة صغيرة مخفية !.

فى البداية وقعت عيناها على أريكة من الخوص ملقى عليها مفرش شديد الحمرة يلامس الأرضية الرخامية. امرأة مستلقية غائصة فى الأريكة. ترتدى فستانًا طويلاً بسيطًا أسود اللون حتى إنه كان يشتبك مع مفرش الأريكة الأحمر. سمراء بشعر أدكن – عيونها لوزية الشكل ومكحلة، رموش صناعية طويلة، كل مظهرها كان مبالغًا فيه بالنسبة للظرف والتوقيت. امرأة ناضجة واضحة الأنوثة، من تلك النساء التى يصعب ألا يلفتن انتباهك.

يقال إن الانطباع الأول دائمًا حاسم. اقتربت "ماريانا" من المرأة التى مدت لها يدها. فى ظرف آخر كانت ستنتظر أن تقف وتقترب منها

لكن من يدرى، يمكن أن تكون المرأة متعبة أو مقعدة (!) على أريكتها... وعلى أى حال، كانت المرأة تكبرها سناً.

قالت المرأة وهى تمد يدها مصافحة ومدققة على نطق الاسم الصحيح أنا "ناتاشا"».

قالت ماريانا: «اسم لطيف».

أشارت لها أن تجلس أمامها. ماذا تفضلين، شاياً أم قهوة؟.

« شكراً.. قليل من الماء فقط».

« أنتِ إذن متخصصة فى اللغة والأدب؟ "ماريانا" غالانوبولو »

« وحاصلة على الماجيستير من إنجلترا فى الأدب اليونانى النسائى المعاصر ».

« وهل هناك أدب نسائى؟... وماذا تعملين فى هذه الفترة...» يا آنسة "ماريانا"، سألت ربما بحدة بعض الشىء.

«أعمل مصححة بإحدى دور النشر».

« صحيح؟ أنا لا أقرأ للكتاب اليونانيين. لكن بالتأكيد أنا أحتاجك فى أمر مختلف كثيراً عن هذا... ».

نظرت إليها "ماريانا" باهتمام مصطنع.

« لا داعى للتوتر. أنا أحتاجك لعلمك. كمدرسة للغة وكمصححة أيضاً. بالطبع سيكون الأجر بالساعة...».

أشعلت غليوناً صغيراً بعد أن وضعت به الدخان الذى أخرجته من علبة فضية. ودون أن تنظر إلى "ماريانا" مباشرة استمرت فى الكلام :

«لا أستطيع أن أؤكد لك أنك ستعملين معنا كى أكون صريحة. لقد قابلت فتاتين حتى الآن ».

فى هذه اللحظة دق التليفون.

« لايظهر رقم المتصل؟ حسناً.. لا بأس.. دعك منه ! ».

اعتلى وجه "ناتاشا" تعبير مستاء. ثم بعدها مباشرة أشارت نحو الرجل الأسمر فهمَّ داخل البيت.

« هذه الفتاة اتصلت من رقم محجوب. لذا فهى مرفوضة فى الحال. لا أحب الاختباء أبداً ».

بدت فعلاً متوترة، إن لم يدم هذا أكثر من ثوانٍ.

« هل تسمحين لى؟ سأعود على الفور... ».

ذهبت داخل المنزل وطلت "ماريانا" تتطلع نحو الأشجار والحديقة والنافورة التى ميزتها خلف الحشائش الصغيرة، وفى عمق الحديقة كان هناك منزل صغير من الطوب والحجارة متسق مع عمارة

الحديقة وحوائط المكان. بدا لها وكأن شخصاً يقوم ببعض الأعمال خلف الحديقة.

شعرت "ماريانا" أنها محاصرة بثقل جذوع الأشجار المتشابكة ولم يكن يصل ضجيج السيارات من الخارج، وظنت أنها توجد فى فناء خارجى لبيت أندلسى.

عاد الشاب حاملاً صينية فضية، تُحمل من ثلاث أياد منحنية، مربوطة بيد واحدة على شكل رأس ثعبان ! فناجين صغيرة، إبريق مذهب يخرج منه بخار القهوة. وبجانبه طبق عميق به بعض بسكويت الفانيليا والفواكه المجففة.

عادت "ناتاشا"، لكن هذه المرة ألقت على كتفيها وشاحًا من الكتان بشكل استعراضى.

قالت وهى تعقد شعرها بمشبك نحو الخلف. وجهها فاتن ومكتمل الاستدارة، عينان متعبتان، حواجب منمقة ومرسومة بشكل مدبب كالسهام :« بدلت ملابسى كى نحتسى القهوة ».

« أتمنى أن تعجبك القهوة. فالأكثر شباباً لا يفضلونها ».

« كم سنة أكثر شباباً ؟ ».

« مارأيك أن ندع صيغة التكلف فى الحديث ونتحدث كأصدقاء؟ كم عمرى تظنين؟ ».

« سيدتى.. عِفواً... لكن لماذا تطرحين علىّ أسئلة صعبة يا" ناتاشا"؟.

« هل الصعوبة أدب منك أم أنك لا تستطعين التخمين؟ ».

« لا أستطيع، فأنت امرأة شابة كما تبدين لى ».

« شابة أنتِ. أما أنا فامرأة ناضجة ».

شربتا القهوة وظلتا صامتتين لقليل من الوقت.

نادت "ناتاشا" على الشاب الذى أتى ورفع ما على المنضدة من فناجين: « أحمد !».

« أَحْضِرْ لنا بعض ليكير اليوسفي... هل تحبينه؟ ».

أرادت "ماريان" أن تبتسم، لكنها بُهتت من غرابة الاسم، هذا ما كانت تحاول أن تفهمه منذ أن دخلت هذا المنزل وها هى قد فهمته ! الشاب الأسمر ليس يونانياً !.

« أحمد يساعد فى أعمال المنزل. إنه فتى مطيع وحسن الخلق ». ثم أضافت مؤكدة: « ليس دائماً فأحياناً يصير عنيداً للغاية ».

« هنا يا سيد ناتاشا » قال الشاب بلكنته الغريبة حيث كان ينطق "الذال" "دالاً" والمذكر مؤنثًا حين أراد أن يقول سيدتى كى يضفى على حديثه صيغة رسمية.

«أتدركين الآن أن هناك الكثير من العمل فى انتظارك؟. هذا إذا أصبحت المعلمة فى هذا المنزل...».

سعلت "ماريانا" فشراب "الليكير" قد علق فى حلقها. غريب كلام هذه المرأة. هذا إن قبلت... من حسن الحظ أنها قالت هذا.

« هل تريديننى فى شىء آخر يا سيدة "ناتاشا"؟ ».

«من فضلك. "ناتاشا" فقط دون سيدة. كنت أرغب فى لقاء آخر معك كى أقرر. مع الفتيات الأخريات، لم أجلس أكثر من دقيقتين لكن أنا تقريبًا متأكدة منك، لكن دعينى أفكر قليلاً فى الأمر. أريد أن تحضرى لى...».

« سيرة ذاتية؟».

«لا...».

« نسخًا من الشهادات؟ ».

« لا تتعجلى يا"ماريانا"... لست بصدد العمل فى مؤسسة! أريدك أن تكتبى صفحة أو صفحتين تصفين فيه مُقابلتنا الأولى ! كما ترين أنت. فتفكيرك ووجهة نظرك يهمانِّى فى كتابتك...».

« هذا غير معقول ! ».

« هل هو بالأمر الصعب؟».

« كنت أظن أننى لن أخضع لاختبارت مرة أخرى».

« وهل كتابة سيرة ذاتية جافة أمر أسهل بالنسبة لك؟ ».

نظرت إليها فى عينيها، على حين ظهر "أحمد" فجأة، ووضع قليلاً من الليكير فى الأكواب.

« فى صحتنا ياماريانا ».

« إنه شراب اليوسفى حلو ».

« فى صحتنا!».

يحلى الفم والأحشاء.

« هل من كأس أخرى؟».

وقت الظهيرة حلو أيضاً فى هذه الحديقة.

أغلق خلفها الباب الكبير. تمشت حتى ميدان "ميتاكسورغيو"، حيث رأت لافتة كبيرة عليها عناوين ومواعيد كل العروض المسرحية للموسم القادم. شعرت بالجوع لكنها لم تهتم إذا ما كانت ستتناول الغداء مع أحد أم إذا كانت ستتناوله بمفردها. على النقيض، كانت تشعر بالشبع تماماً.

(٤)

« طرقت الجرس وفتح لى رجل أسمر...».

بداية مباغتة. لم يكن الرجل يعنى لها شيئًا، هذا، فضلاً عن أنها هى بنفسها إذا قرأت نصاً يبدأ بهذه الجملة كانت لترفضه سابقًا.

«دخلت الشارع الضيق خلف الطريق الرئيسى، على حين كنت أسير، شعرت أننى لا أعرف أن مدينتى تخفى كل هذه المفاجآت...».

ماذا تقصدين؟ وكيف عرفت أنها تحمل وتخفى المفاجآت؟ هذا يأتى فيما بعد. ربما تعنى "تاتاشا"، هل حكمت عليها بشكل إيجابى سابق؟.

« جلست على أريكتها، غير حميمية تقريبًا فى البداية، واثقة من نفسها. قالت لى أن أجلس أمامها مما جعلنى أشعر مثل الغبية...».

هل هذه جملة تُكتب، « مثل الغبية »، هل لم يعد لديها الشعور نفسه الآن؟ تركت الكتابة وخرجت نحو شرفة؛ مساحتها متر لا تتسع لسوى كرسى مريح ومنضدة صغيرة، ابتاعتهما من محلات إيكيا . وضعت قدميها بين قضبان سور الشرفة. بعض النباتات البائسة كانت تضفى ادعاء ملامح جوٍّ طبيعى.

في السابق كان هذا الشارع المؤدى إلى المنطقة قليل الحركة، كان للسكان فقط تقريبًا. لكن مع رصف الشارع المؤدى للأكروبول جعل الحركة المرورية تتضاعف حول المنطقة. في الماضى، لم تكن هناك ضوضاء سيارات أمام بيتها، لكن الآن اضطرت أن تحشر مكتبها الصغير في غرفة نومها التى تطل على الشارع الخلفى كى تستطيع العمل فى هدوء نسبى.

ذلك المساء، مساء يوم الاثنين، كان قد تم ترتيب الموعد الثانى مع "ناتاشا". كانت واثقة من أنها ستحصل على الوظيفة، كانت تشعر بهذا. كل ما كانت تحاول استنباطه والتنبؤ به هى نوايا صاحبة العمل، وما مدى إمكانية أن تكون أغراضها أو نواياها حقيقية. إذا كان هناك خصلة جيدة فى "ماريانا" وهو شيء لم يثبت خطؤه أو يكذبها على الإطلاق هو القدرة أو الغريزة على حماية ذاتها، والتى قد نمت ونشأت من بيئتها الأصلية وحياتها السابقة مع عائلة لم تأمن لها أى نوع من الأمان، حتى منذ الطفولة.

راحت تفكر فى أنانية أمها، أعصابها التى كانت تنهار فى الفصول المدرسية وفى المنزل. خوفها الدائم عند خروجهم، عجز أبيها عن أن يضمن لهم حتى سباحة عادية فى البحر دون أن يتعرضوا لخطر الغرق المحتوم؛ أو حتى حوادث المراكب، أو هجوم أسماك القرش الشرسة ! كم مرة أغلق "أنتونى" الباب بقوة خلفه مغادراً...

الأب – ببساطة – كان حاضراً، موجوداً ومكذباً كل طموح الطالبة التى يوماً ما سحرتها شخصية والدها الشعبية العفوية.

لهذا كانت دوماً "دايزى" تقول لابنتها « مهما يعجبك رجل، فى بيتك لا تدخلى إلا رفيقاً فى مكانتك، لا تغرنك السمات الشخصية الخارجية، ولا العالم الذى يحمله والبيئة التى ينتمى إليها. لا تنظرى للرجل نظرة سائح للمعالم».

كان والد "ماريانا" يملك ورشة لتجليد الكتب، وكان كل يوم يقطع مسافة طويلة من مسكنه حتى محل عمله، حيث تقبع ورشته فى مبنى ضيق وغير صحى على الإطلاق. لم تنخدع "دايزى" من عالم تجليد الكتب، لقد رأته ذات يوم على شاطئ البحر عندما ذهبت مع صديقاتها وكان هو مع صديقه الحميم، رأته فى الماء، وعلى سطح الماء تتكسر الأحاسيس كما ينحرف عليها الضوء، وضوء الشمس يشوش العيون. وعندما رآها مرة أخرى بملابسه بعد أسبوع، لم يعنِ لها شيئاً على الإطلاق، لكن كم هو سهل أن تقعى فى فخ الرجل الواحد، عندما لا تكون لديك الخبرة مع رجال آخرين...

سمعت أمها تقول لها ذات يوم: « ليس سيئاً أن تتعرفى على رجال كثيرين، بطريقة ما أو أخرى » – لم تكن تعنى أن تمنح نفسها لهم كلية – « حتى ينتهى بك الأمر لاختيار أحدهم ».

كانت "دايزى" تتصرف دائمًا مثل بنت متقلبة المزاج. كانت كثيرًا ما تكسر أطباقًا وأكوابًا فى حوض الغسيل، حيث إن يديها مرتعشتان، وكثيرًا ماكانت تفجر غضبها فى تلاميذها فى الفصل؛ وقد قُدمت فيها شكاوى مرة أو مرتين لمكتب مشرف التعليم، واضطرت إلى تغيير المدرسة. وفى النهاية انتهى بها الأمر موظفة فى وزارة التعليم، فى مقبرة العمل العام، بلا اسم، محشورة داخل مكتب صغير مسؤولة عن ملفات تافهة تخص المكتبات العامة فى الدولة - التى أغلبها إما مهجور أو فى حالة يرثى لها. كانت تنتظر متحفزة حتى تصل لليوم الذى تستطيع فيه أن تحصل على معاش مبكر، لحسن الحظ أن محل عملها كان فى وسط المدينة، مما كان يتيح لها أن تتخلص من هذه المقبرة لتذهب إلى أحد مقاهى أزقة شارع "إيرمو" كى تنفث عن نفسها. لم يعلق أحد من زملائها فى العمل على تصرفها هذا، فقد كانوا يعرفون وضعها تمامًا، كانت دائمًا تقول إن ثمة رحلة رائعة فى انتظارها فور أن تنتهى من أسر العمل فى القطاع العام، كانت تحب السفر كثيرًا، لكنها هذه المرة كانت تقولها بشكل شخصى وتقصد رحلة استكشافية بعيدة طويلة ومتعمقة.

من أم كهذه تعلمت "ماريانا" أن تكون معتدلة وسيئة الظن بالآخرين، مثل خزان يغلى. تبدو "ناتاشا" وكأنها تحكم سيطرتها على نفسها، وليس ثمة شك أنها سوف تورطها فى لعبة متاهية مربكة، لكنها

فضلت هذا على أن تتردد على دور النشر والمكاتب وتقابل نساءً من أعمار مختلفة قد قررن أن يكتبن كتاباً.

كم مرة لم تكن لديها الرغبة أن تقول لهم حتى كقارئة عادية أن كتبهن هذه لا ترقى لمكان كسلة المهملات، حيث إن فى سلة المهملات نلقى بأشياء كانت لها قيمة ما وقمنا باستخدامها واحترامها سابقًا. كانت ترى "مارثا" تقرأ لمثل هذه الكاتبات، « وماذا أفعل ؟» كان هذا عذرها دائمًا « هذه الكتب تريح أعصابى، فأنا أعمل طوال الليل وأتعامل مع كم هائل من هراء الزبائن ».

« وفى النهار تأكلين هذا الكم الهائل من هراء الكُتاب ...».

« أنا يا عزيزتى لم أدرس الأدب حتى يتسنى لى أن أستمتع بتفاصيل تافهة... آه يا"ماريانا" كمْ آراءك مطلقة وقاسية ! » قالت لها عندما كانتا تتناولان الغداء فى إحدى التافرنات فى ميدان "باجراتى".

المطعم المقابل كان يقدم طعامًا بطعم بيتىٍّ. كان مرتعًا للفنانين، ويتردد عليه ممثل جيد انعزالى الطبع كان يعجب "مارثا" كثيرًا، "مارثا" التى انتهت فى العام الماضى من دراستها فى مدرسة المسرح القومى للتمثيل وبدرجات عالية. تعارفت البنتان فى فترة التعليم الثانوى. افترقتا بعدها لكن بعد أن عادت "ماريانا" من إنجلترا، كانت "مارثا" قد التحقت لتوها بمدرسة التمثيل بعد أن هجرت دراستها بأحد المعاهد المهنية.

سألت مارثا... وماذا تقرئين «الآن؟».

« عن امرأة ساقتها الأقدار نحو "حريم السلطان"، قصة تاريخية... واضطرت أن تعيش كجارية... ».

ضحكت "ماريانا"، « لقد صححت حوالى عشر قصص وروايات تدور كلها عن الحريم منذ العام الماضى. يبدو أن اليونانيات لم تشبعن من تغطية وجوههن !».

« وفيم يعنينى هذا؟ ! ».

« بالطبع يعنيك ! لقد درست المسرح يا"مارثا" ! ».

« ولهذا أتوسل حبيبتى لكل أبله أن يقبلنى فى أى مسلسل تلفزيونى، إذا لم أظهر فى التلفاز سأبقى كما أنا نادلة فى البارات وممثلة فى المسارح المهجورة...».

« لا تبدين سعيدة، كنت أظن أن البروفات التى ... ».

« البروفات؟ لدينا مخرجة فصامية تغير رأيها كل ليلة، وحتى ليلة العرض ستكون قد قضت علينا تماماً، هذا غير أننا لن نتقاضى أجورنا حتى ترضى عنا الوزارة وتدعم العرض... يقال إنها كانت سببًا فى جنون بعض الممثلين بعد إخراجها نصًا لـ"بيكيت". دعك من هذا، لهذا أقول لك، إذا وجدت عملاً فى بيت، لا تتركيه...».

«أىّ بيت!؟».

. ثراء "ناتاشا" انعكس على شخصيتها. هكذا كان "ديفيد"؛ يتصرف دائمًا كالأمراء على الرغم من كونه مفلسًا على الدوام، قبل أن يترك كل شيء خلف ظهره ويهجر بلده. كان يدخل أغلى المحلات وأرقاها، ويجرب الملابس دون أن يشك أى أحد فى إمكاناته الشرائية. وكان عندما يغادر دون أن يبتاع أى شيء، كان يصيب البائعين بالإحباط لأنهم لم يستطيعوا أن يكسبوا زبونا ثريًا. وهو الذى كان ينتمى إلى الطبقة البروليتارية فى ضواحى "مانشيستر"، كان يدرس فى الجامعة مستغلاً كل أنواع المنح والدعم الاقتصادى للطلاب.

قصة "ديفيد" كانت تؤلمها قليلاً. قبل أن تنتهى من دراساتها العليا بقليل، سألها إذا كانت تريد أن يرحلا معًا إلى اليونان. أجابته مذعورة « لا »، كانت تخشى أن تتحمله بمشاكله للأبد، فلم يكن من الممكن أن يوصف بالشاب الكادح والقادر على تحمل المسؤولية. أما هو فقد فضل أن يلقى بثقله فى الصحافة حتى يتسنى له السفر الدائم.

جلست ثانية لتكتب. سنوات حتى الآن وهى باحثة، مدققة، وبعيدة كل البعد من أن تطلق على نفسها كائنًا مبدعًا – فالإبداع يعنى أن تعبر بشكل شخصى مستغلاً إمكاناتك وقدراتك.

فكرت فى أن أفضل طريقة كى تكتب هذا النص والذى هو صك مرور داخل بيت "ناتاشا" هو أن تدخل فى منطق الكتابة النسائية. لكن

أكثر ما كان يخيفها هو التعبير بشكل شخصى، لم ترد أن تعبر عن نفسها كتابةً، فلم تكتب مذكرات قط، لم تكن تكتب بسهولة، كانت تفضل أن تتكلم، أن تنظر للآخرين وتتنبأ.

ولا حتى صفحة واحدة كمعلمة للغة وإن كان الوصف يتعلق بامرأة أخرى. كانت تحب لقب "معلمة" بشكل خاص، كان به شىء عملى، فى البداية عندما عادت من إنجلترا وفى طريقها للبحث عن عمل عثرت أيضًا على إعلان فى الجريدة فقادها قدرها للعمل معلمة لابن طبيب أسنان، أى "سبيروس" بالطبع. يا لها من مصادفة، فى هذه اللحظة بالضبط شعرت بألم فى أسنانها للمرة الأولى، مما أدى بها إلى مقعد طبيب الأسنان – وبعد ذلك – على الأريكة الجلدية فى العيادة. هذا ما يصيب المعلم دائمًا عندما يتورط فى حياة تلاميذه.

كانت تشعر أن شيئًا ما مشابها سيحدث مع "ناتاشا"، استغلت المهلة التى منحتها إيّاها بعد أن طلبت منها أن يلتقيا بعد ثلاثة أيام وفى يدها ما طلبت منها أن تكتبه.

لحسن الحظ دق هاتفها الجوال، وعرفت من الرنة الخاصة التى وضعتها لناشرها أنه المتصل؛ مما قطع عليها سيلاً من الأفكار المتلاحقة.

سمعت صوت السكرتيرة يقول «لحظة سأوصلك بالسيد باندزيكى». كانت نادرًا ما تتحدث مباشرة مع الناشر.

سألها وهى مازالت مستغرقة فى أفكارها عن تصحيح المخطوط الأخير فأجابته بدورها أنها ستنتهى منه فى غضون الفترة الزمنية التى منحوها إياها.

« نحن فى عَجَلة من الأمر، ونريد أن ننجز الكتاب مع أعياد الكريسماس » قال لها: « هل هذا ممكن؟».

« هل أقول لك رأيى فى الكتاب أم فى مدى نجاحه؟ ».

« رأيك فى الكتاب أولاً ».

« رأيى الشخصى هو سلبى بالنسبة للكتاب. وكى أكون أكثر صراحة يا سيد "باندزيكى"، أنا كقارئة لن أقرأ أبداً رواية كهذه. لكن من الممكن أن هذا النوع يعجب الكثير من النساء، فبه لون تاريخى وكثير من العاطفة غير المبررة ».

« متى سنلتقى لنكمل حديثنا؟ ».

« عندما أحضر لكم النص مصححا ».

«لكن بغض النظر عن هذا لدىّ عرض جادّ أودّ أن أطرحه عليكم ».

« خبِّرنى ما هو...».

«بعد غد فى الثالثة فى مكتبى؟ ».

« حسنا، ليكن، شكراً».

عرض آخر خلال ثلاثة أيام؟ الأمر له وقع سمعى يروق لها. هل بدأ نجمها فى الدوران فى الاتجاه الصحيح؟.

تركت كل شىء وخرجت كى تفرغ ذهنها، ذهبت لتتمشى على تل "فليبابو"، كانت تحب هذه التمشية بالفعل، فقد كانت تخرجها من ضيق شقتها. على التل فى الغابة الصغيرة وهى تدوس على الطين الجاف كانت دائمًا ما تتخذ قرارتها الحاسمة فى حياتها، كانت المدينة تختفى من أمام عينيها وهى تسير على هذا الطريق في وسط الطبيعة، كان يتولد إحساس لديها بأنها تعيش فى بيئة رعوية مثالية. هذا الممشى الذى لا يتوافق مع المزاج السياحى والرحلات السياحية المنظمة، وهو أمر غاية فى الأهمية لمن يسكنون على مقربة من المناطق الأثرية.

إذ كانت تشتاق من وقت لآخر لإنجلترا (مرات قليلة كان يحدث لها هذا)، كان بسبب تلك التمشيات الطويلة فى الحدائق الرطبة بجوار الأنهار الضيقة، فى طبيعة متزنة ومتدرجة كى يشعر المرء بثرائها الفريد.

تمشت نحو ساعة من الزمن وفى طريق عودتها دخلت فى شارع "إيراكليذون" وتوقفت أمام مكتبتها المفضلة. عند هذه المكتبة كانت دائمًا تشعر أن الحى السكنى الذى تقطن فيه ينتهى هناك أو ربما يبدأ؛ كانت دائمًا تستطيع أن تتحدث قليلاً مع مالكيه. "ثيوذوروس وماركوس" استقبلاها بصيحات من الفرح. قدما لها العصير وجلسوا جميعًا فى الفناء الخلفى الصغير.

تحدثوا سريعًا عن الإصدارات الجديدة. كانا مجبرين بسبب ضيق المكان أن يحجما ويحددا اختياراتهما دون أن يتناسيا احتياجات القراء والزبائن. على أية حال، كانت اختياراتهما مختلفة تمامًا عن المكتبات الكبيرة. كان الشعر يأخذ مكانًا رئيسيًا، كذلك الروايات المهمة والدراسات النقدية، بالطبع تغيب اختيارات المكتبات الصغيرة عن قائمة الكتب الأكثر مبيعًا.

أحيانًا كانا يسخران من هذا الأمر قائلين إنهما إذا عرضا محتوى قائمة كتب المكتبة سيحتاجان إلى مُسَوّدات كثيرة للشرح. رغم هذا: فى كل الليالى واللقاءات الثقافية والفنية التى نظماها كان المكان فى الداخل والخارج حتى الرصيف المقابل يعج بالناس، أكثر بكثير من رواد « ممر الكتب الشهير». المناطق حول حى "ثيسيو" كانت مأهولة بخليط من البشر، عائلات شعبية قديمة لكن بعض المثقفين أيضًا، والمنازل القديمة كان يقطنها مهاجرون؛ على حين بعض المنازل القديمة تم إصلاحها وتجديدها من قبل بعض الأثرياء. فالبناية القريبة من هنا صار بها مقر لمعرض الفنان "Escher" !

فى اللحظة التى كان يتحدث فيها "ثيوذورس" عن المجموعة الجديدة لدراسات مفكر أرثوذكسى واعد، دخل إلى المكتبة رجل وسأل عن « كتب السيدة "ناتاشا" ».

كانت "ماريانا" تجلس بالخارج خلف النافذة الزجاجية، ورأت الرجل وهو يتسلم حقيبة كبيرة ثم يدفع الثمن. شكر "ثيوذوروس" ثم غادر. كان الشاب الأسمر "أحمد".

« يا إلهى...» صاحت: « من هذا؟ ».

« هذا هو أفضل زبائننا. يعنى ليس هو ولكن السيدة "ناتاشا"، هى التى ترسله ليستلم الكتب ».

سألت "ماريانا" التى قامت من مكانها وراحت تسير ذهاباً وإياباً فى مساحة المكتبة الصغيرة « هل تعرفان هذه السيدة؟ ».

« لا نعرفها بشكل شخصى، هى دائماً تتصل بنا، وكثيرا ما تطلب الكتب عبر الهاتف. أظن أنها تطالع صفحاتنا الإلكترونية كى تتعرف على الإصدارات الجديدة. وأظن أنه من الواضح أن لديها ثقة ما فى اختياراتنا واقتراحاتنا...».

« أين تسكن هذه السيدة "ياثيوذورس"، قل لى !».

نظر إليها مبتسماً. ماذا أصابها وصارت تتقافز كبنت صغيرة مليئة بالحماس والارتباك كأنها تنتظر الحافلة التى ستأتى لتأخذها فى رحلة؟ أين تسكن بالضبط لا أعرف، لكن أظن على مقربة من هنا، ربما فى مقابل الشارع الرئيسى.

« ثيوذوروس،: أريد منك معروفاً...».

هذا أمر هين جداً. طلبت منه قائمة بالكتب التى تسلمها "أحمد" لتوِّه، وأيضاً إذا أمكن قائمة بكل ما اشترته من كتب حتى اليوم. كل شىء موجود على جهاز الكمبيوتر، لكنه تململ من طباعة القائمة، اقترح عليها أن يرسل لها نسخة على بريدها الإليكترونى.

(٥)

أحلى انتقام من شخص سبب لك أوقاتًا صعبة هو أن يصادفك ورأسك به آلاف الخطط، وتكون هناك فرص بانتظارك ربما .ستغير حياتك المهنية ـ لمَ لا؟ ـ توجه اهتماماتك نحو معرفة أناس جدد.

حسنًا إذن، وجود "سبيروس" أمام باب مسكنها، إذا كان قبل شهرين يعنى حالة طوارئ، فاليوم يعنى إنهاء حسابات وعبوراً من الشك نحو اليقين.

قال هو مذكراً إياها أنه مازال يحمل مفتاحًا لشقتها. « كنت على وشك أن أدخل ».

طلبت "ماريانا": « أعطنى المفتاح أولاً ثم دعنا نصعد إلى الشقة »

سألها إذا كان بها شىء.

« هل عادت الأمور على مايرام مع زوجتك؟ »

« ليس بالضبط، ماريانا، دعينى أشرح لك. كان الأولاد بحاجة إلىّ، "تاكيس" لديه امتحانات فحص مهمة، كما تعلمين... ».

أفهمته على الرصيف الضيِّق، وبعد أن طالبته بنسخة المفاتيح، أنَها لن تكون أبداً عائقًا بينه وبين زوجته.

« دور البديل الاحتياطى يجب عليك أن تنساه! لدى الكثير فى ذهنى يا"سبيروس" ولم يعد لدى وقت أن أنشغل بمشاكلك الوجودية. مللت أن أعطى على الدوام، وأن أتعامل دومًا مع رجل مجروح. اذهب إلى زوجتك لتعالجك، فهذا هو دورها ...».

لم يصدق ما يسمعه. راح يمسد شواربه الأنيقة، ربما كان بقايا نزعة يسارية قديمة. ربما ...؟ لم تكن بحاجة أن تشرح له شيئًا.

راحَ يقول لها: « كيف تتحدثين هكذا ...».

« هكذا يحدث فى الحياة، تستيقظ ذات صباح وتشعر أن الآخرين يضايقونك. أصدقاء، عشاق، جيران... أ... صباح الخير ياسيدة "يورغيا" ... ».

السيدة "يورغيا" أغلقت الباب الخارجى على عَجَل، ليس لأنها لم ترج أن تسمع مايقال، لكن لأنها أرادت أن تقول إن الأمر لا يعنيها، فكما يبدو أن هذا صدام شخصى وخاص جداً. هذا غير أنها كانت تعلم من هو الرجل الذى كانت "ماريانا" تتشاجر معه. السيدة "يورغيا" كانت من ذلك النوع النادر من النساء فقد ظلت طوال حياتها معنية بأمر البناية وصيانتها، وكان لها اتصال منتظم مع كل السكان. لم تسبب قط أى نوع من المشاكل، وإن كانت تعلم تفاصيل كثيرة عن الحياة الشخصية

لكل فرد فى البناية ربما أفضل من الشخص نفسه. أما سرها: فكان أنها تدعو السيدات على فنجان من القهوة، ثم تقرأ لهن الطالع فى الفنجان، وبهذا الشكل كن يغادرن مجبورات الخاطر.

بعد قليل سمعت السيدة "يورغيا" سبابًا قبيحًا وتهديداً. خرجت إلى شرفتها ورأت السيد "سبيروس"، رجل لا بأس به، يشوط سلة القمامة فى الشارع، على حين راحت السيارات المارة فى الشارع تدق ساريناتها معترضة على تصرفه الهمجى - معتقدين أنه مخمور.

فى اللحظة نفسها كانت "ماريانا" تغوص فى حوض الحمام بعد أن ملأته بالماء وتأخذ أنفاسًا عميقة، راحت تفرك جسدها بليفة ماساج خاصة ثم خرجت من الحمام بعد عشرين دقيقة وهى تحتسى شراب "الليكير" الذى صنعته بنفسها. وصفة قديمة من وصفات أمها.

اقتربت من المكتب ورأت صورة "دايزى" مبتسمة. كان يتصادف أحيانا أن يتجاذبا أطراف الحديث فيما بينهما - واحدة من العالم السفلى، والأخرى من العالم العلوى فى الحياة. كانت "دايزى" المجنونة تنظر إليها وكأنها تنتقد تصرفاتها.

هل تسمع الموسيقى؟ أم تقوم بطبخ شىء لفردين ثم تلقى بنصف الطعام؟.

فتحت الكمبيوتر وراحت تبحث عمًا كانت تعده لـ"ناتاشا". بدأت فى تصحيح ما كتبته كما لو كان نصًا غريبًا. بدا لها نصها ضعيفًا بلا

عصب، كان بإمكانها أن تكون غير ودودة مع "ناتاشا"، آخذة فى الاعتبار أنها كتبته بعد أن رأتها.

أمسكت النص من البداية لتدققه وتصححه « فتح لها الباب رجل غير معتاد الملامح كما بدا لها » ماذا تعنى هذه الجملة، تقليدية للغاية وغير منطقية، فالرجل يشبه الكثير من الرجال اليونانيين ذوى البشرة السمراء، بالطبع كانت عيناه تشعان بريقًا مختلفًا، حسنًا ، هل عليها أن تشرح هذه الخاصية؟

تُرى من أين يكون "أحمد" بالضبط؟ أين ينام، ماهى علاقته بناتاشا؟ الفرق بينهما سنوات كثيرة. قد تعدت "ناتاشا" الخامسة والأربعين، وهو بالكاد يبدو فى العشرين أو الثانية والعشرين، من الممكن أن يكون ابنها، إذا كان...

كأس الليكير الممتلئة أصابها بالدوار قليلاً فنزحت نحو الفراش كى تتخلص من – حالة الأرق القصيرة المدى التى تنتابها فى الشهور الأخيرة. عندما دق الهاتف فى وقت متأخر لم تسمعه ولم تهتم.

استيقظت مبكرًا وتذكرت أن "ثيوذورس" أرسل إليها رسالة إليكترونية تحمل قائمة كتب "ناتاشا". نهضت من الفراش عند الساعة الرابعة وعشرين دقيقة صباحًا، الشارع مازال هادئًا بالخارج. فتحت البريد الوارد. بدأت "ناتاشا" فى طلب الكتب قبل شهور قليلة وتعدى عدد الكتب الثلاثين كتابًا بالفعل، مما يعنى إما أنها كانت تضع الكتب على

أرفف مكتبة بيتها أو أنها تقرأ طوال اليوم – وإن لم يبدُ عليها شيء كهذا. بين عناوين الكتب لفت انتباهها الكثير من الترجمات للأدب اليوناني القديم. "ديوذوروس وإيروذوتوس". دراسات تاريخية. دراسة لإدوارد سعيد – معقول؟.

بالطبع، لا شيء من كل هذا يضيء الجانب الخفي من "ناتاشا". كانت بصدد قائمة كتب لباحث أو لغرض أكاديمي.

تأخرت في العودة للنوم، وعندما استيقظت في اليوم التالي في العاشرة صباحاً، شعرت أنها تخلصت من حمل ثقيل. حتى إنها وقفت على ميزانها الرقمي...

قامت بطبع الصفحة التي كتبت فيها ما طلب منها كطالبة نجيبة، اتصلت بناتاشا وقالت لها إنها جاهزة لمقابلتها.

قالت لها ناتاشا. « تسعدني ثقتك بنفسك ».

لماذا قالت هذا، شيء مثير للأعصاب !.

« كان من الممكن أن تسأليني إذا كان ما عرضته عليك قائماً ».

« لم يبدُ لي أنك سحبتِ عرضك ياناتاشا ».

« حسنًا إذن. تعالى إلى هنا في الخامسة مساءً ».

ليكن إذن. قالت بمعنويات مرتفعة ثم خرجت إلى الشارع ووقفت لتتفقد محلاً للأثاث، على حين كانت هناك مظاهرة للمعلمين غير المثبتين في

وظائفهم فى شارع "ستاذيو" فى طريقها نحو وزارة التعليم، يطالبون بتعليم أفضل وميزانية أفضل، وبالطبع تثبيت فى وظائفهم. أرعبتها فكرة أن تكبر فى السن مع راتب شهرى، تدور على المدارس فى أرجاء البلاد، كما فعلت امرأة تعرفها اسمها "آنا"، كانت "آنا" تجد نفسها مع بداية كل عام دراسى معلمة احتياطية فى إحدى الجزر. كانت "آنا" تحب عملها هذا، أما "ماريانا" فكان اللقب فى حد ذاته يصيبها بالرعب، ياللهول «احتياطى»!.

بعد ذلك صعدت شارع "سولونوس" وبدأت تبحث بدأب عن فستان. للدقة، أرادت بعد فترة من الزمن أن ترتدى فستانًا جديداً.

فى المساء اختارت طريقًا مختلفًا كى تصل لشارع "أرتيميسو". فبدلاً من أن تذهب إلى "كيراميكو" مباشرة، قطعت ميدان "كومنذورو"، والذى كانت تعرفه لأن مقر حزب الكتلة اليسارية يوجد هناك، حيث كان لها صولات وجولات عندما كانت طالبة، عبرت الطريق ومرت على الضفة الأخرى. بناية التأمين الصحى، هذا المكعب الأسمنتى فوق رأسها؛ استمرت حتى "كيراميكو" حيث انحرفت أسفل الطريق يساراً.

كان المهاجرون يدخلون ويخرجون فى البنايات المتهدمة ، الصينيون قد أقاموا حوانيتهم فى الأدوار الأرضية بشكل غير قانونى وظلوا مهددين بالإغلاق.

مسرح سينما "كيراميكو": فى العام الماضى حضرت مع "سبيروس" حفلا لأليكسيو، لم تكن تحب الحفلات الموسيقية الصيفية، فالكل يتكلم ويأكل ويشرب ويدخن فى أثناء الأمسية. قال لها "سبيروس" « لا تكونى قاسية فى أحكامك». « هكذا يستمتع الناس، يصرخون ويغنون فى الوقت نفسه، ألا ترين كيف يكونون فى حفلات الزواج ؟» ثم أكد « أليس هذا أهم ما فى الأمر؟» ولكن لا ينصت أحد للموسيقى، «لكن الأهم هو الحدث فى حد ذاته».

مأثورات "سبيروس" الحكيمة... وكأنه فى مستوى أرقى من البشرية وعيناه لا تكفان عن النظر يميناً ويساراً، فبعد تخطى الثالثة والأربعين اكتشف أن له وزنًا فى سوق الرجال.

توقفت عند الأزقة الضيقة- عند تافرنا صغيرة على ناصية الشارع، بناية من طابق واحد، أخرج صاحب المحل منضدتين حديديتين أشبه بتلك التى فى المقاهى، وجلس عليها مجموعة من الناس مازالوا يحتسون الخمور، معلوم أنه عندما يشرب المرء، يفقد الوقت قيمته. شقراء سمينة كانت تدخن كالمدخنة بنهم، كانت تضحك عاليًا بصوت مبحوح. ذات الخمسين ربيعًا غير عابئة بشىء ! حياتها، جيدة أو بائسة هى حياتها فلا تهتم أو تعبأ بأى أحد.

عندما بدأ "ديفيد" يحتضنها بقوة فى الشوارع وفى حدائق لندن، كانت تنظر حولها مرتبكة... من سيرانا يا حبيبتى؟ قال ساخراً :

الطبيعة والأشجار، أترين كيف يتعانقان؟ وبعد عام سيحصل على جائزة فى مهرجان أدبى كأكثر شاعر واعد فى ذلك العام.

وكيف لم تعِ هى ذلك ؟ كيف لم تنكب على أبياته وقصائده التى كان يدعوها لقراءتها ؟ هل لأنها كانت تعتقد أن كتابته للشعر ما هى إلا استراتيجية يتقرب من خلالها إلى الفتيات؟.

هل لأنها كانت تعتقد أن الإبداع لا يمكن أن ينفصل عن الحياة اليومية؟ لأنها كانت دومًا تحظى بالجائزة الكبرى لسوء الظن ؟. دقت جرس الباب وانتظرت حتى يُفتح. تدحرجت كرة وهرول ثلاثة أولاد ليلحقوا بها، كلبان توأمان نبحا فى أثناء اقتراب "أحمد" من الباب ثم فتح، شَعْرٌ مقصوص منمق وممسد بالجيل.

قال بابتسامة متحفظة: « صباح الخير آنسة "ماريانا" ».

أغلق خلفهما الباب. تلطف الجو فجأة وفاحت رائحة الياسمين فى كل الجوانب.

وقفت فى الحديقة. أعطت "ناتاشا" الأوامر لرجل بزى أخضر فهرع متعجلاً إلى المنزل المقابل. كان من الذين ميزتهم "ماريانا" فى الزيارة الأولى.

قالت "ناتاشا": « سعيدة لرؤيتك مجددا ». لم ترها بوضوح لأول وهلة، إلا إذا كانت قد حوصر بصرها خلف عينيها النديتين.

. لكن "ماريانا" كانت سعيدة أيضاً. ليجلسوا إذن.

قهوة؟ فنجانان من القهوة سيحضرا حالاً. بعض التعليقات التقليدية عن حالة الطقس والمناخ وحالة المرور.

«هل تقرئين لى من فضلك؟».

غاصت "ناتاشا" فى أريكتها. ووضعت قدميها على عارضة المنضدة المزينة بالفسيفساء. كيف لم ترَ من قبل هذه الرسوم الرائعة بالفسيفساء؟ دلافين وحوريات بحر، وامرأة بكامل زينتها تفتح ذراعيها.

« هيا ياعزيزتى، لا تخجلى...».

فتحت "ماريانا" أوراقها كفتاة مطيعة. كلما كانت تدقق وتصحح كانت تسمع أكثر صوتها الداخلى. الآن تركت صوته يخرج، كان صوتاً يحاول أن يفسر معانى تشبه كثيراً تلك المعانى التى فى النصوص التى تصححها.

« عندما انتهينا من القهوة، قلبت هى الفنجان على طبقه الصغير المزين بالورود الذهبية على أطرافه. البن السميك القابع فى قاع الفنجان أخذ يتسرسب خارجه هارباً من القاع المظلم. ثم راحت تحركه بشكل دائرى حريصة على ألا تمحو الخطوط السرية الذى تشكلت فى داخل الفنجان. ثم أضافت أن هذه القهوة مصنوعة من بن ثقيل وسميك القوام، بن لبنانى».

تركت "ناتاشا" فنجانها على المنضدة ثم قضمت قطعة من بسكويت الفانيليا.

« هل بإمكانك قراءة آخر جملة مرة أخرى؟ ».

« ... ثم أضافت أن القهوة مصنوعة من بن ثقيل وسميك القوام، إنه لبنانى...».

« شيق. هل قلت لك أنا أن البن الذى لدينا لبنانى؟».

فوجئت "ماريانا".

« لا أتذكر».

لكن "ناتاشا" كانت تتذكر أنها بالفعل لم تقل شيئًا كهذا. لكن كيف كتبته ماريانا؟.

« هل قرأته فى الفنجان؟ ».

الضحكات المقتضبة خففت من وطأة مقابلة العمل غير التقليدية.

أكدت "ناتاشا": « البن لبنانى بالفعل » .

قالت "ماريانا": « وأنا مندهشة لأبعد الحدود»، وراحت تبرر صدقها وتحيله إلى جوِّ المكان العام وتفاصيل المكان.

غيرت الموضوع وراحت تسأل عن الفسيفساء.

« هذه القطعة من الفسيفساء هى من كنائس مسيحية فى الشرق، لكن بها بعض المشاهد الرومانية. الأعمال الأصلية نادرة جداً، قطع متناثرة هنا وهناك. هذه القطعة مركبة».

قالت "ماريانا": « رائع جداً...» فقط لأنها لم يكن لديها ما تقوله، وتذكرت بعض عناوين الكتب التى لها علاقة بذات المواضيع.

قالت ناتاشا: « حسنًا، لقد حصلت على الوظيفة » وضغطت على كلمة وظيفة بطريقة معينة تحمل مغزى بل معانى كثيرة.

« أريدك أن تأتى كل يوم، عدا السبت والأحد. فى المساء. فالساعات الصباحية عصيبة دائماً. ثلاث ساعات كل مساء إذن تكفينا. سوف تساعديننى فى ترتيب بعض الملفات. سنرتب معًا بعض مدوناتى ومذكراتى التى تكومت عبر السنين حتى الآن، كلها مهملة فى الأدراج. إنه عمل شخصى جداً، تعلمين أن الأمر يتطلب ثقة وكتمانًا، أصابع قوية وعقلاً حاداً، كل ما يكتب سيظل هنا فى الداخل، فيما بيننا».

عرضت عليها أجراً عن كل ثلاث ساعات. أجر سخى جداً. ستحصل فى الأسبوع على ما تحصل عليه فى شهر من التصحيح لدور النشر. رائع.

« فيما بين أوقات الكتابة معًا، ستعطين بعض دروس اللغة لـ...».

قالت ماريانا، التى لم تستطع أن تتحكم فى حماسها: «أحمد!» .

« أحـمـد يتـحـدث بشكل جـيـد. لكن الأولوية لصـابات، هذا الفارسى...».

فى عمق الحديقة ظهر ثانية الرجل الذى يرتدى الأفرول. يحمل مقصًا لأعمال الحديقة. شعر مجعد، أبيض البشرة. يبدو فى الثالثة والعشرين من عمره. اقترب منهما. مسح يديه فوق ملابسه ثم دخل، مسح حذاءه فى السجادة التى أمام الباب.

قال وهو يفرد جسده: « صباح الخير»

« صابات: هذه هى ماريانا، معلمتك».

« أوه، إنك صغيرة ».

« المعلمات يا صابات، يبدأن صغاراً ».

تُرى هل فهم كلامى؟ مدت "ماريانا" يدها، التى، تقريباً، جرحت من راحة يده القاسية وهو مازال ينظر إليها باستغراب.

« متى يدرس اليونانية؟».

قالت "ماريانا"، ويغمرها إحساس أشبه بحماس المراهقين : «متى "سندرس" تريد أن تقول. لقد بدأنا لتونا!.

« صابات، اذهب الآن لتستحم ونلتقى غداً ».

ذهب فى طاعة إلى المكان الخلفى من الحديقة.

« صابات يعتنى بالحديقة، الأشجار كثيرة وتكثر بها الأعشاب الطبيعية...».

شجرتها المفضلة امتلأت بالفروع وفاضت بالأوراق...

انقلبت الفناجين وتسرسب البن الثقيل منها، تمددت أشكال عشوائية خارج محيط التنبؤ. تساءلت "ناتاشا" من سيقرأ لهم هذا الفنجان، وإن كانت لا تؤمن بهذا.

أكدت "ماريانا"، « بالتأكيد لست أنا » وألقت نظرة خاطفة فى عمق الحديقة، حيث اختفى الشاب الفارسى.

(٦)

مكتب "يراسيموس باندزيكيس" كان مليئًا بالأوراق – أليس طبيعيًا؟ ! فهو مكتب ناشر على كل حالٍ. حزَم الكتب كانت تفيض وتميل بشكل خطين، هذا الكم الهائل من الكتب ترى من سيقوم بترتيبها .

خلفه، زوج من الأرفف الضيقة، عليهما أكوام من الورق مقاس A4، وهو مقاس الورق المعتاد للكتب المستقبلية الجارى الإعداد لطباعتها . كان "باندكيس" هو الناشر لأشهر وأنجح رواية فى سوق الكتاب، كتبتها فتاة غير معروفة على الإطلاق، وكان هذا الكتاب قد رفض من قبل ثلاث دور نشر مجاورة.

قال لها وهو يشعل سيجاره الثالث، والذى كان يبقيه بين شفتيه وأسنانه طوال الوقت «لهذا أريدك ياماريانا». كان ينظر إليها بميل من تحت نظارته، قيل إنه كان ينظر هكذا لكل الفتيات التى يعمل معهن، انفصل عن زوجته منذ عام تقريبًا، رجل ناجح ويمكن أن يوصف بالوسيم.

يقال أيضًا إنه لم يكن يسمح لنفسه أن ينام ليلة أخرى مع المرأة نفسها .

« ليس لدينا إمكانيـة رفض رواية دون أن نقـرأها. كـتـاب "لينا ميرلى" لم يعرضه عليّ شخص أعرفه، إذا كنت قد تركته على الرف كنت سأضيع على نفسى أكبر فرصة فى حياتى. حسنًا، ربما أبالغ...

أريد إذن أن تصبحى قارئة للكتاب الجدد. حتى الآن كنت أعطى هذه النصـوص لاثنين من الكتـاب، لكن هؤلاء لديهم أحكام سـابقـة، وأحيـانًا مـا يتـعـاملون بتنافسيـة مع النصـوص. لا تنظرى لى هكذا، أعرف كم أنت حـادة وقاسـية فى أحكامك، لكن لهذا بالضبط أريدك...».

« قل لى من فضلك، كم نصًا لابد أن أقرأ شهريًا؟ ».

« كثير. ربما أكثر من مئة...».

« يا إلهى... لماذا؟».

« لا أدرى لكن من يسـتطيع أن يجيـبنا هم المحللون النفسـيـون وعلماء الاجتماع. السوق يريد روايات نسائية.

فى الفـترة الأخـيرة كما ترين، تبـاع كثـيرًا الروايات ذات الطابع الشرقى، كمـا أصبـحنا نسميـها الآن. أريدك أن تختـارى بعضًا منها، فلدينا أكوام، دون أن ترفضى المختلف والشيق. لا تنسى أننا نتعامل مع سوق دائمًا ما يخفى لنا المفاجآت، العمل الناجح القادم ربما سيكون فى فرع مختلف تمامًا. لابد أن تكون لدينا القدرة على التنبؤ بالمزاج القادم.

كم "لوكساندرا" سنتحمل؟ بالطبع ستتقاضين أجراً وعمولات عن الكتب التى ستصل إلى الطبعة العاشرة...».

« طبعة عاشرة؟».

« هذا لا شىء، خمس إصدارات تؤمن كل رواية بعنوان مشوق وصورة نسائية على الغلاف...».

« هل تمنحنى مهلة أسبوع لأعطيك الجواب؟ فلدى بعض الأمور المعلقة ولابد أن أنجزها ...».

« لو كانت فتاة غيرك، لخطفت الوظيفة فى التو واللحظة ياماريانا» قال لها وهو يهز ويدور على كرسيه الجلدى.

على الحائط خلف مقعده تماماً كان بورتريه كبير لأمه معلقًا، تلك المرأة التى أسست دار النشر، وكانت من الأوائل الذين نشروا لجيل جديد من الكتاب اليونانيين بعد الحرب العالمية. وبالطبع كان أحد هؤلاء "ماكيس ماكريذيس"، والذى عندما ترجم أحد أعماله فى التسعينيات إلى اللغة الإنجليزية وتم صناعة فيلم عن هذا العمل، ازدادت شهرة دار النشر بشكل كبير.

فى اللحظة المناسبة تركت الأم إدارة دار النشر إلى ابنها، الذى لم يستمر على نهج أمه فى النشر بنفس الحماس للكتاب اليونانيين الموهوبين.

لكنه كان أول ناشر أسس لما نسميه الكاتبات اليونانيات، مما أثار الكتاب والمثقفين والنقاد، كما أدى إلى سخونة وإثراء سوق الكتاب.

"يراسيموس باندزيكيس" أتم دراسته في الخارج، وكان يعلم جيداً أن الأولاد في اليونان لا يقرؤون كثيراً، كما أنه في اليونان لا تجد الناس مصطفين في المحطات وفي القطارات يقرؤون الروايات البوليسية، ولا يعودون إلى بيوتهم كي يقرؤوا بجانب المدفأة – كل هذه عادات إسكندنافية.

كان باندزيكيس الجذاب يقول دائمًا: « لو أن جائزة نوبل ستأتي إلى اليونان، فدع الناشرين الآخرين يفرحون بها ».

« أود أن أسمع إجابتك على طعام الغداء عندما سنتقابل . ستحددين أنت الموعد...».

وقفت "ماريانا" أمام أكوام الكتب وراحت تتصفحها في ذعر.

« هل يحدث لك شيء غير مألوف مؤخرا؟».

« لا، شكراً يا يراسيموس، لا يحدث شيء على الإطلاق، رغم أني أتمنى أن يحدث شيء خارج المألوف». وكأنها قبضت على نفسها متلبسة بالكذب.

نهض "باندزيكيس" ليرافقها حتى الباب، وربت على ذراعها بحنان لم يضايقها على الإطلاق. في مكتب السكرتيرة كانت فتاتان تنتظرانه وهما تحملان حقائب بلاستيكية بها أوراق من مقاس A4.

خرجت "ماريانا" من أقبية وأزقة شارع "سولونوس" ودخلت فى مكتبة كبيرة تبحث عن كتاب بعينه.

قالت « طرق تعليم اليونانية للأجانب» ، أشار الشاب الخدوم لها إلى رف كامل يحمل كتبًا لثلاثة أو أربعة طرق لتعليم اللغة كما لا حظت باندهاش. لكنها توقفت لتفكر. فهذه الطرق موجهة لراشدين أجانب يعرفون سابقًا الأبجدية اللاتينية ويكتبون على الأقل حرف الـ A بنفس الشكل والطريقة.

كيف ستعلم اليونانية لشخص تعلم الكتابة من اليمين إلى اليسار؟.

ذهبت إلى قسم كتب الأطفال. الأطفال الأصغر سنًا ربما أفضل ! وجدت كراسات ملونة، فى كل صفحة تتعلم حرفًا بأشكال وأمثلة.

دفعت الثمن ثم خرجت إلى ضوضاء المدينة. قطعت شارع "ميتروبوليوس" واختلطت بالزحام اليومى. عادة عندما تمشى فى الشارع كانت تنظر بلا هدف حولها، ربما وقعت عيناها على رجل وسيم أو شخص بملابس أنيقة، دون أن تلفت انتباه أحد أو حتى تنظر بتفحص...

هذه المرة ضبطت نفسها تسرح فى المهاجرين، على الأقل من كانت ملامحهم توحى بذلك أو تذكرها بتلاميذها. الغالبية بدت ملامحهم متعبة وليس بها شىء من الجاذبية. لكن لماذا قالت هذا؟ هل كان الشباب فى منزل "ناتاشا" بهم شىء من الجاذبية؟ ربما كان الوقت مبكرًا لمثل هذا النوع من الأفكار؟.

فى أفضل الاحتمالات، هذان الأجنبيان لهما جاذبية ما (يمكن أن تقول هو أمر شيق فى حد ذاته) ربما تنتقل إليهما من صاحبة المنزل.

كانت سعيدة كمعلمة جاءها أول قرار تعيين فى مكان بعيد فى البلاد. ياللقدر! كل ما كانت تسخر منه سقط فوق رأسها. لابد ألا تنسى فعلاً أن تغسل شعرها.

(٧)

لوحة على الحائط ذات ألون حيوية. أصفر، أوكرا، أزرق سماوى ورتوش حمراء، أشكال تشكلت فوق كتل البيوت البيضاء الحنونة. مظلة ملونة وفى الخلفية قبة ناصعة البياض.

قالت "ناتاشا": « لوحة أصلية لـ Macke » ربما سمعت "ماريانا" عن الرسام، سألت عن الفترة التى رسمت فيها اللوحة وراحت عيناها تغوص فى اللوحة.

قالت ناتاشا: « تعود اللوحة إلى أوائل القرن » « اسمها "بازار تونس". صديقى "تيتو" يعرف أفضل منى عن هذه الفترة، فهو من أهدانى إياها ».

لم تصر "ماريانا" أن تعرف من هو "تيتو".

كانتا فى الطابق العلوى، حيث صعدتا على الدرج ذى الصرير العالى. كان الطابق العلوى كله عبارة عن مساحة واحدة، صالون كبير، أرائك منخفضة تشمل كل الزوايا وكل المساحة تتجه نحو المدفأة الحجرية. على أحد أجناب الصالون توجد منضدة طولها ثلاثة أمتار من

خشب البلوط، وحوالى اثنى عشر مقعداً حولها وخزانة للأطباق مليئة بأباريق وأكواب كريستالية منحوتة. على الرف السفلى زجاجات صغيرة أشكالها لطيفة لأنواع معروفة من المشروبات الكحولية والليكير.

« النبيذ » شرحت لها « النبيذ فى القبو ».

كان المطبخ فى الجوار، على حين باب مزدوج يقود نحو شرفة مغطاة تطل على الحديقة وتكشف المكان كله، وكأنه كابينة مراقبة لبيت البستانى.

قالت ناتاشا: « مضيفة عادية متكاملة » « لا يظهر من هنا لكن المكان يمتد للخلف حيث يسكن الأولاد...».

ودت "ماريانا" لو سئلت. « كم من الأولاد»؟.

راحت تنظر نحو الحديقة المزهرة ورأت خيال رجل فى الصندرة، مثل شخص يحاول أن يرسم بخياله شكلاً واضحًا. رأس الشاب شكلت قمة النافذة مما يجعلك تظن أنه نبتة على شكل رجل شكلت أروع نباتات الحديقة.

صاحت "ناتاشا" من الشرفة: « صابات! » « هل أنت جاهز؟ سيبدأ درسك بعد قليل» رفع رأسه وأشار لها مبتسمًا. ثم ذهب نحو المضيفة مطيعًا. من الحديقة فاح مزيج من رائحة الياسمين والطين الرطب والنباتات والسماد.

الطابق العلوى لم ينتهِ هنا: كان هناك درج صغير يقود نحو صَندرة. ونبتت مكتبة ضخمة هناك، كم تود "ماريانا" أن تلقى نظرة وتتصفح هذا الكنز. لعل من الأفضل أن تريد كل شىء من اللحظة الأولى.

نزلا إلى الحديقة. كانت " ناتاشا" تلمس أطراف النباتات والزهور وللحظة اشتبك وشاحها الذى ألقته على كتفيها بأشواك الورد.

قالت وهى تشير نحو المضيفة: « هنا بالداخل ستقومين بدروس اللغة ».

دخلتا فى بناية صغيرة. أريكتان، تلفاز يعمل لكن بلا صوت والصورة لقناة أغانٍ أجنبية (ربما قناة فضائية)، منضدة تستند على النافذة. نجفة برونزية تتدلى بانخفاض خطير فوق رأسيهما. سجادة أرجوانية اللون أحيت روح مكان الضيوف. على الحوائط نسخ للوحات معروفة معلقة على أطر مشغولة. خارج الحمام عدد هائل من الأحذية الرياضية الملقاة.

جلس التلميذ على مقعده بالفعل متأهبًا لدرسه الأول. تمنت لهما "ناتاشا" حظًا سعيداً وغادرت تاركة وشاحها على الأريكة. ابتسمت "ماريانا" وجلست فى مقابل تلميذها الجديد. أخرجت دفترًا كبيراً وقلمين.

قالت: كيف يبدأ المرء مقابلة كهذه؟، دعنا نقول ثانية: « اسمى "ماريانا"، أنت ما اسمك؟».

« اسمى "صابات"، أنت ما اسمك؟».

«ماريانا!».

لتكتب له بعض الحروف.

أخذ قلمًا فى يده عندما كتبت "ماريانا" « اسمى ماريانا»، وبدأ يكتب ما تنطقه على صفحة بيضاء بلغته هو.

« ماذا كتبت الآن؟».

«اسمى ماريانا» قال وهو يشير بإصبعه علي الكلمات المنحنية الشكل.

« كان يجب أن تكتب صابات ».

« أنت تكلم أنا أكتب كلمة أنت تكلم».

« عظيم، دعنى أفسر مرة أخرى ».

« ماذا ...؟ ».

ابتسمت "ماريانا". يعنى أوضح، أشرح أو أضرب مثلاً؟ يبدو أنه علىّ أن أتناول الأمر بشكل مختلف.

« منذ متى وأنت فى اليونان؟ ».

راح يعد على أصابعه وأشار إلى الإصبع التاسع. انحنت نحوه "ماريانا" لتشير له أين هو الرقم (٨) واضطرت أن تلمس إصبعه الأوسط الخشن بظفره القصير. ضحك مستمتعًا بدرسه الأول.

أوضحت المعلمة منتهزة الفرصة: « هذه يد. وهذا إصبع ».

بدأ يردد المقاطع بصعوبة. لديه صعوبة فى نطق بعض الحروف، فهو ينطق حرف «الذال»، «زايًا» كما أنه لا يستطيع أن ينطق حرفين ساكنين على التوالى. فراحت تشرح له كيف ينطق ويدغم الحروف الساكنة مع المتحركة. راح يحاول نطق كلمة إصبع وهو يلمسها بإصبعه الخشن الذى كاد يجرح جلدها، لكن هى أيضًا كانت تفعل الشيء نفسه بظفرها المدبب لكن جلده الصلف لم يكن ليتأثر. فصابات لا يشعر بأى شىء على جلد يديه، لكنه بالتأكيد يشعر باللمسة. سحبت "ماريانا" يدها وأمسكت بالقلم.

« ماذا أرسم الآن؟ ».

فقال لها: « ارسمى يدًا الآن ».

فراحت تشرح له تصريف الأفعال، أرسم، ترسم، يرسم..... «الجملة الآن بها ضمير المخاطب أنت ترسمين...».

عادت "ماريانا" بظهرها إلى مقعدها. التواصل الاجتماعى الحقيقى يبعد كثيرًا عن تصريف الأفعال. يبدو أن لديه مشكلة فى هذا الأمر. لكن "صابات" لم يبدُ عليه الضيق وهو يواجه صعوبة فى التعليم.

الدرس ليس إجباريًا، فلا يندرج تحت أى نظام أو برنامج، فليس هناك مشكلة، أينما يرسو بنا الأمر إذن. يبدو أن الرسوم تروق له وهذا

يقود إلى تسمية الأشياء التى حولهم: المشاعل المتعددة والأُصص المعلقة. هذه الأشياء التى كانت حولهم كانت موضوعًا مملاً للدرس. ثم إنه كيف من الممكن أن ترسم الأحاسيس؟ هل بأشكال أم بالألوان؟ هل فعلاً الفرحة يعبر عنها اللون الأصفر لهذا الرأس كما فى برامج التخاطب الإليكترونية؟.

مر الوقت – كم يستغرق حقيقةً الدرس أو الحصة الخاصة؟.

ظهرت فى غرفتهم "ناتاشا" مجدداً، بعد أن دقت الباب ودخلت وهى تحمل الحلوى وقنينة من الماء. ألقت نظرة على دفتر الرسوم:

« أشكال تصاميم ومخطوطات ! تذكرنى بطفولتى ».

قالت ماريانا: « حقًا» « إن الطريقة المثلى كى يتعلم أحد اللغة هى أن يعود طفلاً مرة أخرى ».

سألته "ناتاشا" وهى تربت ضاغطة على كتفيه: « أنت طفل يا صابات؟ ».

أجاب وهو يحرك عنقه فى استرخاء. « طفل، أنا؟ لا، أنا رجل! ».

أخذتا الإجابة بجدية. واضطرت "ماريانا" أن تؤكد على اعتراض تلميذها وتعبيره عن رجولته بنظرة لم تمر على مملولة الدروس مرور الكرام.

(٨)

لهثت من صعود الدرج حتى الطابق الرابع لتصل لتلك الشقة الجميلة التى بنيت فى ذلك الشارع الضيق خلف مسرح "إليسيا" بلا مصعد، موقعها مريح حيث إنها قريبة جداً من المترو. كانت "مارثا" تزعم أنها سر احتفاظها برشاقتها يرجع إلى الدرج المؤدى إلى الطابق الرابع. ربما تكون على حق، على أية حال هنيئًا لها رغم أنها مدخنة شرهة...

حاولت أن تشرح لمارثا ماحدث لكن الأمر لم يكن سهلاً. دعتها "مارثا" إلى بيتها فى منتصف النهار وراحت تتفحصها. لا حظت ارتباكًا لطيفًا على صديقتها هادئة الطبع فى الغالب، حاولت أن تستنطق من فمها البديهيات. ماذا يفعل كل هؤلاء الشباب داخل المنزل؟ فحتى قبل أمس رأت "ماريانا" فى طريق خروجها شابًا آخر يدخل المنزل، كان يعرج عرجًا خفيفًا، تذكر نظرته اللامعة، سعدت لأنه يقوم بزيارة "ناتاشا" وأصدقائه.

امرأة ثرية ناضجة لديها صحبة كبيرة أم خدم ذكور كثيرو العدد؟ هل هذا تفسير أو شرح ما، إذا كنا نبحث عن واحد؟ من الناحية

الأخرى كان المكان يعج بالأجانب فى ذات الحين الذى تجد فيه خدمًا أجانب فى بيوت يونانية كثيرة، ربما كانت مبالغة أن نبحث عن الحقيقة فى منزل شارع "أرتيمسو؟".

كان للصديقتين آراء واستنتاجات كثيرة فيما يخص هذا الأمر. كانت تلمسه "مارثا" أيضًا من البار، فهناك اتجاه أو تيار فى البلاد، فى المدينة، فى أثينا يجنح نحو الغريب أو الأجنبى. فى الفن، فى الطعام، فى الموسيقى، فى ديكور المحلات التجارية، يمكن أن نقول إن البلاد تمر بمرحلة.... كيف نسميها الآن؟.

قالت "ماريانا" بسخرية: .« مرحلة استشراقية ».

علقت "مارثا" بلهجة تليق بفظاظة "يورغى": «إلى الجحيم»، وجدته مخمورًا ليلة ماقبل الأمس، أغلق البار فى الثانية والنصف بعد منتصف الليل بعد أن ودعها بقبلة باردة، حل الفجر فى بار **Sodate**.

« فى أى حقبة نعيش؟».

ضحكن، كن يقضين وقتًا طيبًا. وعندها وجهت لها "مارثا" سؤالاً كان يؤرقها: « هل تعتقدين أنها تنام مع كل هؤلاء؟ ».

ذعرت "ماريانا"، ولم تكن تعلم إن كان ذعرها ناتجًا عن تعدد الرفاق أم أنه ناتج عن غرائبية الفكرة نفسها. وبدأت "مارثا" فى الثرثرة عن عرض مسرحى سيبدأ يومى الاثنين والثلاثاء فى أحد الأقبية المسرحية فى

"ميتاكسورغيو"، شربت ثلاث كؤوس من النبيذ، ثم بدأت فى الابتسام المخمور.

حاولت "ماريانا" أن تفيقها وفى الوقت نفسه كانت تفكر فى المرحلة القادمة فى عملها، من أين ستبدأ هذا المساء. هل تسأل صديقتها عن طريقها العملى الجديد أم ربما عليها أن تودعها بطريقة أنيقة وتنصرف، لماذا كانت تشعر وهى فى طريقها لنزول درج الطوابق الأربعة المظلم كأن أحداً ما يؤكد لها أنها ستتأخر كثيراً كى تصعد هذا الدرج مرة أخرى؟ ويالسخرية القدر عندما سيتأكد هذا، ستكون قد ابتعدت كثيراً عن "مارثا" التى لن تفهم السبب. لأن "ماريانا" كانت تحوم مثل قطة حول أماكن مألوفة لديها، إذ كانوا يسكنون هذا الحى قبل أن تنتقل العائلة والقطة معهم.

أخبرتها "ناتاشا" ألا تحضر شيئًا معها. هناك كمبيوتر نقال فى البيت، هل تذهب هكذا، خاوية اليدين ؟

نعم، هكذا ستذهب، استقلت المترو ونزلت منه عند "ثيسيو"، تسكعت قليلاً أمام محال الأنتيكات التى انتشرت حول ميدان "كومنذورو". لقد وصلت مبكراً ساعة عن موعدها. فى المسارح المقابلة يعرضون مسرحيتين تجاريتين، وقد انتظمت الصفوف للحصول على بطاقات المشاهدة.

غرق هذا الميدان فى عالم أسمنتى عارٍ طارد بارد. لم تحب قط هذا المكان، تذكرت عندما نصب الأكراد مخيماتهم فى وسط الميدان وكانت تمر بالتاكسى ذاك اليوم مغلقة عينيها من وحشة المنظر. ترى ما هو مصير هؤلاء الناس الآن؟ هل تركوا خيام الميدان إلى تشرد الشوارع؟ ومن يهتم أساسًا بعابرى السبيل؟.

عبرت طريق "بريوس" نحو الضفة المقابلة بالقرب من متحف الفنون الجميلة، على أى حال خطوتان من هنا ويبدأ الامتداد الراقى للمدينة، فهناك بناية على طريق "بريوس" تحولت إلى بار راقٍ. اشتهر بالعروض الفنية والحفلات الخاصة، كان "ماكسيموس" يتحدث عن هذا البار منذ بضعة أيام. بجواره أيضًا هناك مطعم غالي الأسعار صار أحدث تقاليع الطبقة الجديدة الثرية دون مبرر، وتأتى إليه جموعهم من شمال المدينة الراقى.

عندما توغلت فى الضفة الأخرى ودون أن تقتنع بأصالةِ هذا المزيج العجيب رأت فجأةً جزءًا من بيت غجرى يبرز أمام عينيها: طابق أرضى، نوافذ مفتوحة، أصوات، أطفال يهرولون خارج المنزل يلامسون السيارات بأيديهم، تافرنا على ناصية الشارع تخرج منها رائحة الدهن المحروق، هؤلاء كانوا أقدم سكان الحى، لكن لم تكن تراهم كثيرًا فى المنطقة...

أمام بناية ذات ستة طوابق جَمْعٌ من الباكستانيين يعبرون عن تذمرهم لرجال الشرطة الذين أغلقوا الشارع بسيارتهم الجديدة. كما

يبدو الأمر من الأصوات العالية أنهم يسكنون فى البناية بشكل غير قانونى. أسرعت "ماريانا" خطواتها عندما بدأ أفراد الشرطة يحشرونهم داخل السيارة، عويل أحد المهاجرين الذى كان يشبه بكاءً مزيفًا عكّر مزاجها لقليل من الوقت.

دقت "ناتاشا" الجرس وَفتح الباب الفتى المبتسم الذى كان يعرج قليلاً. حياها برعشة بسيطة فى صوته وبنطق يونانى يبدو أنه لا يتلاءم مع تشريح فمه، وقادها مباشرة نحو الطابق العلوى.

قالت مفسرة محاولة استباق التساؤلات التى كادت تحطم هدوء "ماريانا" الهش: « هذا هو "حكم" الفلسطينى ».

ابتسم "حكم" ثانية وغادر، نزل الدرج الخشبى قافزًا بشكل يوضح أن عجزه لا يمنعه عن شىء. بل إنه مسد شعره الكستنائى الطويل المرتب بعناية فى طريقه.

«بلغ حكم لتوه من العمر الحادية والعشرين، فجروا النادى الرياضى الذى كان يتدرب فيه. بالنسبة للبعض ممارسة الرياضة هى التجهيز لعملية إرهابية » علقت "ناتاشا" وهى غارقة فى الأريكة ثم أضافت: « على الأقل هذه رواية أو تفسير لإصابته. ليس لدىّ الشجاعة أن أشكك فيها...».

كانت ترتدى قميصًا أبيض فضفاضًا وبنطالاً أبيض واسعًا، وتشرب الليكير. كانت فى انتظار هذه اللحظة.

« والآن جاء دورنا ! سأشرح لكِ ماذا سنفعل بالضبط. سنبدأ بشكل تجريبى. إذا كان لديك اقتراح ترين أنه سيساعدنا، خبرينى به فيما بعد ».

رفعت من على المنضدة صندوقًا خشبيًا قديمًا، منقوشًا ومصنوعًا من خشب ثقيل يشبه أخشاب السفن، عليه قفل محكم. يمكن أن يكون علبة جواهر. تغير لون صوتها فور أن أمسكت بالصندوق وكأنه صار أكثر تعبيرية، أو مسرحيًا، وهذا الشىء لن يمر مرور الكرام ودون ملاحظة من "ماريانا" فى المرات القادمة.

« داخل هذا الصندوق أحفظ مذكراتى. متناثرة. كنت متمردة فى الكتابة، لم أستطع قط أن أكتب بعقلانية ومسؤولية. أقرأ بسرعة، وبلغات متعددة، لكن، عندما تأتى لحظة الكتابة، أشعر أن يدى قد تخشبت مثل الفروع فى الحديقة...».

هذه هى مبالغات اللغة المنطوقة، قالت "ماريان" فى داخلها – قالتها بطبيعية شديدة وكأنها جزء من حياتها اليومية.

فتحت الصندوق بحركات بطيئة تليق بساحر. ظهرت داخل الصندوق دفاتر صغيرة لطيفة بحجم الكف، مربوطة بشكل رائع، مصنوعة أغلفتها من الجلد أو الورق المقوى، على حين أوراقها من الداخل كانت مصنوعة من أوراق البردى وأوراق الأرز وكل أنواع لباب النباتات المعالجة.

« هذه الدفاتر ترافقنى طيلة عمرى. اشتريتها من بازارات وبعضها صنعتها بنفسى. عددها هائل والكتابة فيها كثيفة وبلا فراغات. لكن عليها تواريخ وبعضها يحتوى على أسماء، وأخرى على أحداث مميزة أو أحاسيس، مراحل مختلفة. من سيرتب كل هذا؟. لقد قصدت هذا حتى لا تُقرأ بسهولة أو حتى لا يقرؤنى أحد إذا ما نسيتهم أو ضاعوا منى فى مكان ما... سنرتبهم معًا: سأقرأ أنا، سأحاول أن أتذكر، وأنت على الكمبيوتر ستكتبين من جديد وتصححين أو تعيدين صياغتها. هذا العمل سيتم هنا. فى بيتى، لن تغادرى بورقة واحدة، غير مسموح يا "ماريانا". ولا أريد أن يعرف أحد شيئًا عن هذا...».

خرجت قليلاً من دورها ودخلت فى دور صاحب العمل وقالت:

« ستتقاضين أجراً إضافيًا إذا رأينا أن الأمر يحتاج لمزيد من الوقت والعمل ».

أعطتها دفتراً، ربما الأكثر تهرؤًا كى تفتحه. أخذته "ماريانا" بين يديها وانتابها إحساس بالهرش فى ذراعها فذعرت، وكأنها أمسكت بكائن صغير بين يديها، لماذا كان لهذا الدفتر رائحة قوية وغريبة. رأت – لم تقرأ – خطوطَ سطورٍ مكتوبة غير منتظمة وبين الحين والحين نجومًا مرسومة.

« رحلاتى، هى حياتى. هنا فى هذه الدفاتر كل الرجال الذين عرفتهم. أريد أن تفهمى يا"ماريانا" أننا لن نكتب مذكراتى. لكن سنقوم

بتدوين شخصى وأريد أن أستمتع به، أريد أن أعيش مرة أخرى كل هذه الأحداث التى فنت...».

هل فهمت "ماريانا"؟ حاولت أن تمنطق الحالة والخطوات. فى المرحلة الأولى سنضع الدفاتر فى تسلسل زمنى؟.

« لا يهمنى منطق الزمن، الأحداث تهمنى أكثر. لكن إذا فرض علينا الكمبيوتر تسلسلاً زمنيًا فهذا أفضل. على سبيل المثال، هنا نحن فى بداية الثمانينيات ». .

اقتربت منحنية من "ماريانا" وفاحت رائحة عطرها فملأت بها أنف "ماريانا" وكان العطر يشبه خليطًا من الزعتر والبخور. لاحظت أنها ترتدى فى معصمها أربع أساور وثلاثة خواتم بها أحجار ثمينة.

« لنأخذ على سبيل المثال تلك الفترة. كيف يمكن أن أحكيها؟ كيف سأكتبها مرة أخرى؟ كنا على متن يخت، فى رحلة استغرقت خمسة أشهر مستمرة. لابد أننا توقفنا فى "ترييستى". بالتأكيد مررنا بمدينة أخرى قبل ذلك... سنجدها فيما بعد. هنا كتبت... مشروب، لا أستطيع أن أقرأ خط يدى... وكأن امرأة أخرى قد كتبت هذا الكلام، حتى هذه الحروف الفرعونية...».

كانت تحاول أن تضفى ملمحًا من الغموض أو شبه الشفرة على كتابتها لعل هذا يساعدها فى استدعاء الحالة وتذكر الأحداث.

« ما رأيك، هل نبدأ؟».

جلست "ماريانا" أمام الحاسوب النقال تنظر إلى الصفحة البيضاء التى صارت شفافة أمامها ثم صارت الكلمات تتحول فى البداية إلى خطوط رمزية ثم مباشرة إلى صور متعددة الأبعاد.

الجزء الثانى

غواية البحر المتوسط

اليخت يتأهب للإبحار. المصابيح على أطراف سطحه تزين رتابة اللون الأبيض العام. منزل خاص عائم يبحر فى الصيف إلى الموانى المفتوحة بعيدًا عن الأوطان حرًا، بلا حدود، وبلا عوائق.

هذا ما يعتقده على الأقل كل من يركبون البحر تحت تأثير النور والبحر. الحقائب مفتوحة، تنبعث منها رائحة امرأة رحالة. دفتر ذو غلاف جلدى ملقى بين الفساتين والأوشحة الحريرية عليها عطر كل هؤلاء الذين عبروا عليها والذين سيعبرون. المرأة الشابة تضع بعناية الدفتر الأرجوانى داخل الحقيبة وتهبط السلم الضيق بمساعدة أزواج من الأيادى الذكورية وقوة دفع أمواج البحر معًا.

تتساءل أيهما أفضل، أن تتعرف على المدن التى تزورها أم على هؤلاء الذين سوف يختفون من حياتها للأبد؟.

قالت "ناتاشا" وهى تشعل سيجاراً: « تعجبنى الطريقة التى بدأت بها ».

اختنقت "ماريانا" من الدخان. كانت منحنية على الكمبيوتر فانسدل شعرها الناعم.

« لكن يا"ماريانا"، لا أريد أن أصنع من حياتى رواية. لنترك العنصر الروائى فى حياتنا يتحدث دون رتوش، ألا تتفقين معى !» ؟.

« بالطبع وإلا فسيبدو الأمر كأنه سرد وإحصاء أحداث».

« أكيد. إذن اتفقنا ألا نجعل من عملنا رواية، فلست أنا ولا أنت كذلك».

« رائع. لندع الشاعرية تتدفق من دواخلنا، حينها ...».

« ولا تنسَىْ يا"ماريانا"، أن مايُكتب لن يُقرأ من أحد. وهذا فى حد ذاته يعطى لنا حرية مطلقة. أنا لن أفرض رقابة على نفسى...».

« لكن يجب علىّ أيضاً أن أنقل الصورة والقصة بشكل جذاب. لابد أن تعجبك. وإلا فستصابين بالملل. أضافت "ماريانا" ضاحكة: وسأخسر وظيفتى »

« لن يذبحك السلطان، كونى واثقة. إذا ما أصابنى الملل فهذا سيعنى أن حياتى نفسها كانت مملة. لا يشغلك الوقت أبداً فيمكنك أن تستغرقى ما يناسبك من الوقت وكل ساعة بأجر إضافى. يمكنك البقاء هنا حتى وقت متأخر، يمكنك أن تنامى هنا.

لن أتدخل فى سير العملية الإبداعية. لا تنسَيْ أن المنزل دائماً يعج بالناس. وهذا مبدأ أساسى. لا تبقى أبداً وحيدة، لا تقبلى هذا. إذا كانت هذه رغبتك واختيارك. فلابد أن تفرضى ما تريدينه على الآخرين وتناضلى من أجله...».

« شكراً "ناتاشا"، لكنى أود أن ألتزم بالواجبات الأساسية...».

« كما تحبين. لا أريد أن أتدخل فى حياتك الشخصية، لكن يبدو لى أنك تمرين بأزمة عاطفية».

اعتبرت "ماريانا" التوصيف أزمة عاطفية أنه سطحى جداً، فهى طريقة بدائية تُستخدم من أجل أن يبدأ المرء فى السؤال عن الحياة الشخصية للآخر.

« نعم أنا وحيدة فى الفترة الأخيرة، لقد أنهيت علاقة قديمة. لكن هذا لا يعنى أننى أنهار...».

« الرجال دوماً فى أيدينا. لا تصدقى النقيض على الإطلاق. دعيهم هم يصدقون هذا. ستفهمين ما أعنيه عندما نسير فى عملنا. هل من الممكن أن تقرئى لى صفحة الأمس؟».

* * *

رسى اليخت ذو الألوان الحيوية منذ وقت قصير فى الميناء. كان صباحًا باهتًا فى شهر يوليو، وجثم ضباب الصباح على المدينة فحزم أطرافها. فى الكابينة السفلية مدت "ناتاشا" رأسها وسألت أين هم؟. أشار الرجل بجوارها قائلاً "ترييستى"، الميناء الحزين على البحر الأدرياتى، ثم احتضنها برقة. طلب منها أن تنام، لكنها نهضت. مدت يدها على عنقها لا إراديًا باحثة عن قلادتها وقفزت مذعورة... أين هى؟.

لحسن الحظ تذكرت ! قلبت وسادتها ووجدتها أسفل الوسادة، ربما نزعتها حتى لا تضايقها فى أثناء النوم. كم من شفاه الرجال تشققت ودمت وهى تقبل هذا العنق.

بعد ساعة ستعقد منديلاً على رأسها ووشاحًا حول جسدها وتذهب فى جولة فى Piazza dell'Unita وتساءلت ماذا تفعل ليلا فى بلدة تعداد سكانها ثلاثمئة ألف، حيث يحل عليها الظلام وتضىء مصابيح اليخت.

* * *

اعترضت "ناتاشا" على "ماريانا" لأنها ذكرت لفظ المدينة بصيغتها الكلاسيكية القديمة فى اللغة «لماذا يا"ماريانا" رغم أننا كنا فى هذه الفترة فى عام ١٩٨٢م، كما أنك كتبت " الرجل بجوارها" إلا أن ذاكرتى الآن تزهر وتتفتح مثل حديقة "صابات"... آه، بمناسبة ذكر اسمه، "صابات" متحمس جداً من درسكم الأول ولا يستطيع الصبر حتى تلتقيا مجدداً ...».

«إنه ولد لطيف...».

« وعاشق لطيف الفحولة أيضا! ».

تلقت "ماريانا" كلمات "ناتاشا" كطلقات الرصاص. لا، ليس لأنه كان لديها ثمة شك ولو للحظة فى أن هناك علاقة بين "ناتاشا" والشاب الفارسى. لكن ما الذى يهمها؟.

« لنعد إلى النص، ممكن؟».

« نعم، لديكِ حق، فأنا غليظة وفجة فى كلامى أحيانًا، مع الأسف هذا من عيوبى... لكن دعينا لا نشحن الأجواء من الآن، فما سوف نسمعه عن الماضى هو أكثر جرأة مما قلته بمراحل، إذا أردت أن تصيغيه هكذا؟ ».

راحت "ماريانا" تفكر بعمق إلى أى وجهة تميل، إلى الماضى أم الحاضر. على أى حال، "ناتاشا" مالت على الأريكة بسعادة من سياق الأمور، كيف بدأت تظهر وتنساب من السطور الأولى.

« أظن أننى قررت أخيراً، أريدك أن تجعليه أكثر رقة. ليس من الجيد أن نرى كل الأشياء بواقعية لأننا نعيش اليوم ونرى الأحداث عن بعد يا "ماريانا". فحينها كانت الحياة أكثر رومانسية، أو أنها كانت تفرض علينا... انتظرى الآن... هذا الرجل الذى بجوارى، كان رفيقًا أو مجرد عشيق من عمال المركب ربما... يوجد هنا اسمه وسنه وهناك أيضًا نجمة مدونة بخط خفيف، هل ترينها؟ هذه هى العلامة كما قلنا، واحدة لكل عاشق... ».

سيارة ليموزين سوداء تتوقف عند طرف السلم الخشبى حيث ستنزل الفتاة الرشيقة.

تحمل حقيبة يد Hermes وعلبة مغلفة كهدية. خلفها رجل يكبرها قليلاً يرتدى بنطالاً من الكتان. استقلوا السيارة التى اختفت فى اتجاه طرف المدينة. يعلو صوت السيارة فى أثناء توقفها أمام متجر للهدايا فى فيلا أنيقة تعود للقرون الوسطى منحوت عليها رؤوس بشرية.

النوافذ تتلألأ خلف الستائر.

يبدو أن البعض قد أقاموا حفلاً صغيرًا. وجه ذكورى وسيم يفتح باب السيارة ويحتضنهم بحماس. شقة الإيطالى "ماركو" يبدو أنها معدة ليستقبل الصحبة. هناك ثلاثة أشخاص تقريبًا يُحدثون ضوضاء ربما لأنهم شربوا الكثير من الخمر. على حين صوت الأغانى الإيطالية يُسمع بوضوح.

* * *

استنشقت هواءً نقيًا. كانت تشعر أنها ستختنق داخل بيت "ناتاشا" من كثرة الروائح، زيوت القناديل والشموع المعطرة، أعواد البخور الهندى، كان لديها ولع أن تجعل كل غرفة تفوح برائحة مختلفة مع مرور التوقيت.

سارت حتى تقاطع الطريق الرئيسى مع شارع "بيريوس"، رغم أن "ناتاشا" عرضت عليها أن تطلب لها تاكسى، كيف تصل إلى هناك بالتاكسى؟. هل يدور حول التل بالكامل سيراً على الأقدام فى دقائق تصل إلى الحى الذى تسكن فيه؟ لكنْ ثمة شىء يفصل بينها وبين "ناتاشا". تلك السهولة الغريبة التى أفصحت بها عن علاقاتها بـ "صابات" تثيرها أكثر من الوصف التفصيلى فى المذكرات. حتى الآن لا تفهم بالضبط ماذا يحدث. لكنها حتى الآن عدت حوالى خمسة عشر عاشقاً وهم مايزالون فى صيف ١٩٨٢م عندما كانت "ناتاشا" تبلغ من العمر الثانية والعشرين. متى أدركت كل هذا؟.

ودت لو سألت كى تعرف أكثر، لكن أيضًا كان بإمكانها أن تنتظر حتى يأتى كل شىء فى وقته المناسب. نأت بنفسها عن الفضول وإن كانت هناك رغبة عميقة تدفعها نحو ذلك.

شعرت وكأنها تحتاج لشىء يوطد ثقتها بنفسها. لابد أن تقف أمام المرآة وتنظر جيداً لنفسها: إنها رشيقة، جميلة، لديها أنف لطيف، هذا يتوقف على الزاوية التى تنظر إليه، فتراه تارة جذابًا وتارة أخرى معقوفًا. أنف دايزى نفسه. شعرها ناعم وطويل، ربما فى حاجة إلى تسريحة جديدة. ترتدى بنطالاً من الجينز وبلوفر مشغولاً، بلا أى إضافات. أما بخصوص شخصيتها فدائمًا تتساءل أى انطباع تتركه. من المؤكد أنها لا تدع أى شىء يبدو أو يرتسم عليها بسهولة. هكذا دائمًا يبدأ توصيف مانسميه «بالشخص المعقد ».

عندما وضعت يدها فى جيب بنطالها الجينز وجدت مقصوصة تذكرة الفيلم الذى شاهدته فى سينما "أبولون". أى فيلم شاهدت مع "سبيروس" فى المرة الأخيرة ياترى؟ كان يذهب بصعوبة إلى السينما، كان يريدها دائمًا بجواره فى البيت، فى الفراش وأحيانًا كانت تضغط على نفسها كى تلبى احتياجاته نظرًا لضيق وقته.

تسمرت فى مكانها على الرصيف. حركة أشخاص أمام ملهى ليلى يدخلون ويخرجون يفرغون صناديق المشروبات. لم تكن لديها رغبة فى أن تعود للبيت الآن. راحت تتسكع فى الشوارع فى منتصف المدينة لكن يبدو أنها ضلت طريقها عند موقف الحافلات، فكثيرًا ماكانت تقول ألم يحن الوقت أن تتعلم الطرق فى مدينتها بشكل أفضل؟ لم يحدث مرة أن استقلت السيارة بشكل غير مخطط إلا وحدث لها شىء غريب، وذات مرة أنقذت حقيبتها بصعوبة من أيدى اللص قبل أن تدخل الحافلة. لقد رأت اللص، رجل فى عمر والدها تقريبًا، تساءلت: كيف يمكن لرجل فى هذه السن أن يسرق فتيات صغيرات؟ ترى هل يذهب بعدها لامرأة ما؟، هل يفعل ذلك لأن لديه امرأة أخرى؟.

* * *

انطلقت السفينة الحربية فى البحر. فى الصالون صندوق الموسيقى جاهز ليعزف مع حركة أمواج البحر، يعلو صوت الأغنية الشعبية:

« سأنجو إذا جاءك الموت » بصوت مطربة ساحرة الصوت، على حين كان هناك صوت أعذب وأرق يغنى كصوت ثانٍ أو كورس فى أغنية لا تحتاج إلى صوت ثانٍ ربما. فتيان أسمران عاريان ممددان على الأريكة المصنوعة من الجلد، مثل عبيد تم بيعهم فى أسواق شمال أفريقيا، يخرجان لسانيهما ويشيران بإيماءات جنسية نحو المرأة التى تبدو حتى الآن كأنها تتجاهلهما وهى مازالت تشرب وتتراقص، تبدو كما لو أنها تؤدى حركات قد رأتها من قبل فى السينما أو فى أحلامها.

لكن عندما رأتهما مضطربيْن دعتهما للوقوف والرقص معها. هبَّا واقفَيْن تسبقهما أعضاؤهما الجنسية. راحت الفتاة تلهو معهما كما لو كانا لعبتين. صاروا فى حضن ثلاثى إلى أن دفعت الوالدين ليحضن كل منهما الآخر، لدرجة أنهما أصيبا بالذعر...

* * *

« هل تسمعيننى أم أنك غارقة فى عالمك الخاص أيها الكائن المسرحى؟ آهٍ لو رأيت بقية المنزل من الداخل ! خلف ذلك الباب الحديدى هناك قصر صغير، بناية من طابقين تختفى خلف الحديقة الكثيفة... لم أرَ من قبل مكانًا بهذه الروعة، منسيًا من الزمن... نستغرق وقتًا طويلاً فى العمل، نشرب "الليكير" فى الاستراحات. قبل الأمس أتى لنا فتى جديد. سأنفجر يا"مارثا"، من هم كل هؤلاء فى هذا البيت؟.

« هل تسمعينني يا"مارثا"؟ أنى لك أن تنصتى، فقد اعتدتِ طوال حياتك أن يستمع لك الآخرون...».

أجابت الأخرى « تبدو عليك عصبية واضحة يا"ماريانا"، هل تحتاجين إلى رجل؟ أراك متوترة وفى منتهى العصبية».

وهكذا، غادرت "ماريانا" البار، تاركة الحيرة والتساؤلات ترتسم على وجه "مارثا" التى بقى سؤالها دون إجابة.

صار شارع "إيرمو" خاوياً. هناك فتاة نحيفة وطويلة تترنح أمام أحد الأكشاك الساهرة، ربما تكون إحدى العاهرات المتحولات، وتتشاجر مع صاحب الكشك الذى كان يدخن بشراهة. فقد كان الدخان يخرج من فتحة الكشك كأنه خارج من عنق مدخنة. على الجدار شعار مكتوب بالخط الأسود يدعو للتضامن مع المضربين عن الطعام... وحركات سياسية جديدة تدعو المواطنين للوقوف ضد ترحيل أحد اللاجئين السياسيين...

كان الأكروبول يتلألأ وحيداً، كرمز منهك. ياله من أمر منهك أن تصبح رمزاً أو مؤشراً، أو مكاناً يُحج إليه أو مقصداً. من حسن الحظ أن الآثار والنصب التذكارية لا تشعر بما تحمله.

بزغ الفجر.

« ... ربما تحتاجين إلى رجل؟».

دائما ما تبالغ "مارثا"، أو ربما كانت "ماريانا" فى احتياج لرجل بالفعل؟ انحنت أمام أوراقها عاجزة عن التركيز. بجوارها فنجان من القهوة. لتنتهى من التدقيق والتصحيح، لتذهب بها إلى دار النشر وتفكر فى الإجابة التى ستعطيها للسيد "باندزيكيس". بالتأكيد لم يكن لديها متسع من الوقت لتقوم بعمل آخر، فقد ازدحم برنامجها اليومى واقتربت من أن تعمل من الصباح وحتى المساء فى بيت "ناتاشا".

زوج من القواميس اليونانية الضخمة يقومان بحل تساؤلاتها عن كلمات وعبارات من لغة يظن المرء أنه لن يتعلمها أبداً بشكل صحيح.

كانت "ماريانا" دائماً ما تتعامل مع لغتها كلغة أجنبية كلما سمعتها تنطق من شخص آخر. "ناتاشا" على سبيل المثال: كانت لديها لهجة ثقيلة خاصة فى الحروف الصامتة الشفهية وحروف الهمس التى تنطق بالأسنان مثل : "السين والصاد" فكانت تنطق بعضها بثقل كأنها مزدوجة مما يغير من هويتها. كانت تعلم بالطبع أنها متمكنة وماهرة فى استخدام اللغة، كان لديها عمق معرفى لم يأتِ بالطبع من الدراسة الأحادية الجامعية على سبيل المثال... آهٍ ثم ماذا... كانت تقرأ وهى مغمضة العينين بعد أن تلقى نظرة سريعة على مدوناتها والتى كانت بالنسبة لها مجرد علامات لتستدعى صور الماضى. تُرى ما مدى صحة ما كانت تقصه وتقرؤه؟ لكن هل لهذا أى نوع من الأهمية؟.

* * *

فى ميناء "فاليتا" الضحل كانوا يصطدمون بسفينة ركاب ضخمة رست على رصيف الميناء. كانت أسوار المدينة مفتوحة تدعوهم للدخول حتى أسرار قلبها. مدن قليلة احتفظت بحصونها القديمة. السياح ينزلون من سفينة الركاب ويركبون زوارق صغيرة ويسرحون فى شوارع الجزيرة الضيقة.

طلب منها "تيتو" أن يؤجلوا خروجهم قليلاً لأن القبطان يريده.

الميدان الذى زاروه فيما بعد كان قذرًا. على مصطبة عليها مظلة حمراء كان الموسيقيون يعزفون مقطوعات "إنيو موريكونى و نينو روتا" بالإضافة إلى مقطوعات أخرى من أفلام السينما. بينما تلطف الجو فى المساء، اتكأت على كتف "تيتو"، على حين الرجال المحليون كان البعض منهم إيطاليين والبعض الآخر سمر البشرة، يرتدون بناطيل ضيقة ويعلقون الأحجبة فى أعناقهم، وكانوا يحومون حولهم بشكل غير لائق.

قال لها "تيتو" إن طائرة "جاك" سوف تتأخر، ولهذا كان عليهم أن يقضوا الليلة بدونه...

ابتسمت وذهبوا نحو أزقة البارات، شوارع متشابكة تضيع بين ظلال الليل. كانت تجلس على أبوابها نساء سمينات أياديهن مليئة بالأساور ويعرضن للبيع بناتهن الصغار. مر الوقت وبقيت المدينة محاصرة ومحصنة فى الوقت نفسه.

همست "ماريانا" وهى تتكئ على الحائط الرث «تذكرنى بجزيرة رونوس». كان "تيتو" يحمل البيرة فى يده ومنظرهم كان يشبه إعادة لمشهد من فيلم إيطالى شاهدوه مؤخرًا.

راحوا يسيرون فى تخبط وقد أصابهم السُكْر نحو أبواب مضيئة، فتحت لهم فتيات صغار استطعن بسرعة أن يُشرن لهم بإيحاءات جنسية أن يمروا للداخل، تجاهل "تيتو" ملابسهن الرخيصة وقمصان النوم الشفافة وجذبها نحو باب منخفض مفتوح دائمًا لا يغطيه سوى قطعة من القماش المبهرج.

* * *

« ماريانا، بعض الكلمات لا تعنى بالضبط هكذا».

« الكلمات تتغير بسرعة، لكن المعنى يبقى يا "ناتاشا"».

« الكلمات مثل حالاتنا المزاجية. فى تلك الفترة لم أقم فى اليونان أبدًا. لغتى اليونانية كانت تلك التى أسمعها مع صُحبتى. لم ينقصنى أصدقاء يونانيون...».

« تتحدثين كما لو لم أكن يونانية».

« بالطبع أنا يونانية...».

أشعلت سيجاراً، كانت دائماً عندما تتحدث عن نفسها تعيد بناء المشهد من البداية.

« بالتأكيد يونانية، لكن جذورى متشابكة. على الأقل أبى كان يونانياً خالصاً».

« هل ولدت هنا فى "كيراميكو"؟».

قالت "ناتاشا" وأصدرت صفيراً خفياً: «لا، هنا عاش جدي»

دخل "أحمد" إلى الصالون. نظر إليهما مبتسماً.

« يا "أحمد"، هل يمكنك أن تعد لى النرجيلة؟ ».

هز رأسه باستحسان وتشجيع.

« هذا المنزل هو جنة صغيرة يا"ناتاشا"، منعزل عن المدينة ومنسىّ ».

قالت "ناتاشا": « لا، لا تظنى هذا » «لقد اكتشفونا. بين الحين والحين يأتى المقاولون والسماسرة يطلبون شراءه. ترتفع قيمته مع الوقت».

أضافت "ماريانا": «هذا بسبب الاكتشافات الأثرية القريبة»

«المنطقة هنا كانت متدنية وفقيرة، لهذا ترين بيوتاً كثيرة مهجورة. مع الاكتشافات بدأ الاهتمام، أنا ضد التدخل والتغيير فى طبيعة المكان. أريد أن تتبع المدينة قدرها. أحب المدن، تلك التى أعيش فيها وتلك التى اختفت...».

«على أية حال» قالت "ماريانا": « "أثينا" مرت بالكثير. هناك نزعة الآن أن يعود الناس إلى مركزهم، بدأ بالفعل الفنانون والمثقفون...».

«هل ولدت هنا يا "ماريانا"؟».

« نعم، لكن والديّ لهم جذور غير أثينية».

« من الشرق؟».

« أحد أجدادى، جدى لأمى، جاء من آسيا الصغرى، الآخر، جدى لوالدى، ولد هنا. لكنى لست من هؤلاء الناس الذين يبحثون فى جذورهم كثيراً».

قالت "ناتاشا" بارتياح وهى تستقبل النرجيلة فى اللحظة التى وضعها "أحمد" فوق السجادة المشغولة.: « كنت أتوقع أن لك جذوراً شرقية». الفحم على النرجيلة كان يشتعل بصعوبة. أضافت وهى تضع وسادة تحت إبطها حتى تستطيع أن تميل بجسدها بعد أن ضمت إحدى رجليها ومدت الأخرى: « لهذا اتفقنا. لديك شىء شرقى وبحر متوسطى، لكنا هكذا فى هذا البيت...».

« هل حقًا كنت تتوقعين هذا يا ناتاشا؟».

لم تجب. أعطتها النرجيلة لتجربها، كانت تعلم أنها تدخن وقالت لها إن من أدخل النيكوتين داخله سيشعر أنه فى الجنة عندما يدخن النرجيلة. وضعت "ماريانا" شفتيها على طرف الخرطوم المطعم بالكهرمان. سعلت قليلاً فى البداية واختنقت.

ابتسم "أحمد". فربتت "ناتاشا" على رأسه بود. أخذت الفقاعات تتراقص داخل القاعدة الزجاجية.

« هل سنستمر فى العمل اليوم؟ ».

« لا، لقد تعبت، سأخرج للعشاء مع أحد الأصدقاء. هل ترغبين فى أن تأتى؟ ».

« ليس بعد أن أصحح وأدقق ما فعلناه اليوم».

« لا داعى أن تذهبى إلى بيتك، يمكنك أن تستحمى هنا فى البيت».

بعينين نصف مغلقتين، كانت تنظر إلى دوائر الدخان على حين كان استنشاقها للدخان يجعل الماء يصدر خريراً.

* * *

كانت تفضل برشلونة أكثر من غيرها من مدن حوض البحر المتوسط. فهى تحمل رطوبة المتوسط، وذكريات من الماضى، وتواجه شطوط إفريقيا الحارقة من الناحية الأخرى. لم يرفض لها "تيتو" طلبًا ووافقها. أرسل إشارة على عجل أن يرسو اليخت الصغير على رصيف آمن بين المراكب القديمة والحبال المتآكلة كان أشبه بصورة منسية.

تركها تنام فى الكابينة، بعد أن غطاها بوشاح أبيض، على حين ضمت ساقيها مثل قطة صغيرة. على سطح اليخت قام الرجلان بحمام شمس عاريين. قال لهما إنهم على وشك الوصول إلى إسبانيا حيث تنتهى رحلتهم البحرية. أعطاهما تذكرتيهما فى أيديهما وتمنى لهما حظًا سعيدًا.

بعد ساعات، ذهبوا مع "ناتاشا" فى جولة فى "لاس رامبلاس" لكن لم يعجبها الناس وتقززت من الحر فى أواخر أغسطس. كان هناك شخص يتبعهم منذ فترة، وضع لها مروحة يدوية فى يدها، ففتحتها فهى مثل أجنحة طاووس، شعرت بهمس النسيم ورائحة المكان. انضم إلى صحبتهم لبعض الوقت. حاول أن يشرح لهم أنه ليس بإمكانه أن يبقى معهم لأن الفكرة فى حد ذاتها لم تكن من بنات أفكاره أو مبادرة منه.

سيتحسن الجو بعد قليل وهم يشاهدون العرض Plaza d" Espana. أمام القصر كانت هناك نافورة يصنع تدفق المياه من داخلها أشكالاً بديعة.

جذبت "ناتاشا" "تيتو" من يده إلى جوارها وهم على الدرج المرتفع. التحما مع الجموع وابتلا تحت رذاذ النافورة. ميزت الشخص الذى كان معهما إذ كان على مقربة منهما يقف وحيداً. نحيف وله شارب صغير ويرتدى قميصًا محليًا، بدا مرتبكًا بعض الشىء... ألقت عليه نظرة خاطفة.

خمنت جنوره. اقترب منها. كان يتحدث فرنسية ركيكة. تركته يلف يده حول خصرها؛ كأنه أتى لها بالنسيم مرة أخرى، فتبدلت حرارة الجو وبقيت رطوبة لطيفة.

* * *

فى الصالون على أركان الحوائط وُضعت رفوف خشبية بشكل يستغل كل الأركان التى تشكلها الحوائط ووُضعت عليها زهريات رُصت بشكل بديع، زهريات صناعة يدوية عليها أشكال وحروف ونقوش عربية. قطعة من الزجاج الملون الباهت جاءت من حضارات أخرى. على خزانة الأطباق المنخفضة طبق فاكهة ملىء بالمكسرات والتفاح.

أرائك منخفضة خشبية عليها حواش مغسولة ووسادات مربعة ملقاة على كل الجوانب مزركشة بترتر ذهبى وأنصاف أقمار ونجوم فى منتصفها شكل العين وكلها على خلفيات إما من اللون الأزرق الأدكن لون الليل أو اللون الأحمر الأرجواني.

على أحد الوسادات أشارت لها على التصميم الذى يشبه شكل الأمواج. أو على الأرجح كما كانت تشرح "ناتاشا" ليس فقط شكل الأمواج ولكن صوت الأمواج أيضًا. لغة الأمواج، الهدير. هذا ماكانت تحاول أن تصف صانعته المجهولة، وإن لم ترَ قط فى حياتها أمواجًا فى بحار مخيلتها الجافة.

« فى الغرفة الصغيرة سيكون الدرس اليوم».

قالت "ناتاشا" وهى تسكب "الليكير" مِن الزجاجة فى الأكواب الطويلة: « أنا وأحمد وحكم سنخرج لنتبَضع بعض الأشياء. وهذا الشيك يا "ماريانا" هو أول أجر لك ».

غادرت بعد أن رمقت المكان بنظرة شامخة، نظرة ثقة، وبدلاً من أن يعطى هذا لماريانا إحساساً بالهدوء، أخافها قليلاً. ربما كانت تُوَلِّد هذا الإحساس كحصن دفاعى حتى لا تتقبل سلطة الآخرين، كانت تخاف أن تقع تحت استبداد الآخرين وفى الوقت نفسه لم يمنعها شىء من أن تسعى نحو استقلالها واكتفائها الذاتى، ودائماً بشروطها.

على المكتب الخشبى لمحت زهرة ياسمين فى كوب، زجاجة مذهبة فى منتصفها وعليها رسمة ما، لم تستطع أن تحدد ملامحها.

رائحة الياسمين كانت قوية. "صابات" جلس فى مكانه مثل التلاميذ الذين ينتظرون المعلم فى الفصل الدراسى. حليق وربما قد قص شعره الأسود أيضاً، برزت عيناه ولمعتا فور أن رآها.

كان يستمتع على مايبدو. كان يرتدى جينز أزرق وقميصاً برتقالياً أنار وجهه الأبيض.

فى البداية جعلته يكتب بعض الكلمات، كان يرسم الحروف جيداً وأحياناً كان يكتبهما لكن باستدارة ما ربما تعود إلى حروف لغته

الأصلية. استغرق الهجاء المنهك حوالى عشرين دقيقة، المبلغ المكتوب فى الشيك كان أكثر بكثير من المتفق عليه. ودت لو انحنت لتحسس الرقم، كان على الأقل ضعف ما اتفقا عليه.

الأسئلة الشفهية بالطبع كانت تحدث بإيقاع بطىء مصحوبة بحركات تمثيلية بالأيادى والرأس. ثم بدأت تسأله عن أشياء يومية.

لمست شعرها .

فسماه هو. سألته عن اللون. من لا يعرف الأسود؟ ! سألته إذا كان طويلاً أم قصيراً؟.

أجاب طويل.

جاء دوره الآن.

ارتبك. ابتسمت واقتربت أصابعها من رأسه.

قال وهو يمسد شعره بأصابعه الذى دهنه بكثير من الجيل: شعرى... «ق... صير».

« من قصه لك؟».

« صديق ».

صححت له: « أحد أصدقائى ».

فكرر الإجابة الصحيحة بنطق أقل ركاكة.

«صديق يعنى ولد وصديقة يعنى بنت».

« أنتِ صديقتى ».

« أنا معلمتكَ ».

« المعلمة ليست صديقة؟ ».

نظر إليها "صِابات" بتفحص.

« هل لديك صديق – ولد – ؟».

« ليس الآن... لماذا تخلط الأمور؟ هل لديك أنت صديقة؟».

« أنا.. صديقتى.. فى وطنى... برسيا ».

ثم عبس وجهه.

« هنا، لديك صديقة هنا؟».

«لدى صديقة معلمة وصديقة ناتاشا».

المكان حميمى وله راحة طيبة.

« زهرة الياسمين جميلة ».

« الياسمين الجميل للمعلمة ».

« هل أحضرته أنت؟».

« أنا، "ناتاشا"، قال أضع زهرة على منضدة».

راحت تصحح له الجملة وراح يردد من بعدها، أصابها الإحباط من مخارج ألفاظه الخاطئة التى يعود مردودها ربما إلى لغته الأصلية. فتحت الدفتر ثانية ليكتبوا الحروف بشكل صحيح.

بينما كان هو منحنياً، اقتربت منه. فرد جسمه ومدد قدميه فتلامس كفاهما دون قصد. ضغط هو على كفها فوق الورق الأبيض وسطح المنضدة الخشبية بوضوح. ثم انحنى وشم عنقها ودار بأنفه بشكل دائرى خلف عنقها. جذبت "ماريانا" نفسها كأنها صعقت من تيار كهربائى (مثل ذلك اليوم حين مسها التيار الكهربائى من سلك ميكنة القهوة).

للحظات سار المس الكهربائى فى دمائها.

« صابات !»

وقفت أمام النافذة الزجاجية المطلة على الحديقة، فى الحديقة فى المكان الذى كان يسقط فيه شعاع الشمس، رأت نافورة صغيرة فى هذا الركن، بدا لها كأن رذاذ الماء الخارج من هذه النافورة يصل حتى قمم الأشجار ويبلل المكان بأسره. التصقت بزجاج النافذة، كانت تتمنى لو خرجت الآن إلى نور الحديقة، لكنها قد حوصرت فى الصوبة. وقف "صابات" خلفها ووضع رأسه خلف عنقها. فكرت أن تصرخ – كيف يذوب المعدن فى صمت؟.

وضع "صابات" يده بهدوء على صدرها.

« أنت معلم جميلة، صديقة جميل».

راحت تصحح له الجملة هامسة بتلعثم: « صديقة جميلة».

* * *

بعد خمسة أيام من مالطة، رست الفرقاطة الملونة فى مرسيليا. لكن الجو قد ساء بما يذكر بشهر أكتوبر. الرياح تصيبها بالصداع. الرياح والأمواج تغير من لون البحر وتحيطها بشىء من الغموض والضبابية. كل هذه الأشياء معًا لها تأثير سيئ على صحتها. صوتها يُسمع ضعيفًا وتشعر بالضعف الشديد. حتى هذا المكان من الميناء الذى رسى فيه اليخت لم يعجبها. كان "جاك" دائمًا بجَوارها يربت على شعرها، على حين كانت هى فى حالة ملل: خرج "تيتو" منذ زمن ولم تكن لديها رغبة فى أن تلحق به. تأمل أن تتحسن حالتها حتى صباح الغد، حتى يتسنى لها أن تقوم بجولة فى الأسواق لتبتاع وشاحًا جديدًا لتكمل به مجموعتها التى تحرص دائمًا ألا ينقصها شىء فى أى بلد كانت.

كانت رائحة الكحول تفوح من "جاك"، لقد أتعبته فى المرة السابقة. تشعر بالضجر منه هذه الليلة ولا تستطيع الانتظار حتى يعود "تيتو" ليصف لها الحياة الأخرى التى لم تستطع هى أن تراها بسبب وعكتها الصحية وبسبب "جاك" الذى لحسن الحظ لن يلحق بهم فيما بعد.

قبّلها في عنقها وقال لها أن تحترس في الميناء القادم، حيث لن يكون في أوربا. تساءلت عن حرارة الطقس هناك. بعد قليل سيستلقي "جاك" بجوارها ويبدأ في الشخير.

ستصعد هي على سطح اليخت. لا تستطيع أن ترى شيئًا من الجانب التجاري للميناء، راحت تشاهد درجات ألوان البحر، الألوان نفسها رأتها على جدران الجوامع، رأتها في النقوش حول بعض الآيات القرآنية، وكأنها تهدئ وتلطف من صرامتها. دائمًا ما كانت تتجنب الكتب الصارمة مثل الكتب المقدسة...

أرادت أن تدخن، لكنها تململت من الذهاب للكابينة.

جاء "تيتو" اللطيف يترنح، لم يكن وحيدًا. ودّعَ شخصًا على رصيف الميناء قائلاً وهو يشير نحو "ناتاشا" « bella donna ». نزلت "ناتاشا" وأشارت لهما بالصمت.

كلاهما مخمور. شرح "تيتو" لها أنهما تعرفا في بار البحارة وأن هذا الشخص القوي البنيان ينتمي إلى فيلق أسطول أجنبي وإنهم نسوه على اليابس.

تبسمت "ناتاشا" وأمسكته من ذراعه. والآخر يحاول جاهدًا ألا يسقط. شعرت "ناتاشا" بالبرد والجندي المخمور يترنح بين أحضان الاثنين. "ناتاشا" متفهمة لوضعهما تركت نفسها بين أحضانهما على حين مال "تيتو" ليتقيأ في البحر.

« استيقظت المعلمة بداخلى!».

« غريب. ألا تدعى هذا الهراء لنتحدث معا؟».

« لماذا يا"سبيروس"؟ تنتقد اختياراتى؟ هل تدخلت أنا فى اختياراتك؟».

« لم يكن لدى اختيارات».

استطاع أن يلتقى بها على الرصيف. جلس فى آخر مقهى فى شارع "إيراكليذون"، بين الشباب الصغير والعشاق الصغار، ربما مكث هناك كثيراً من الوقت، وراح يخطط ويدبر أنها لابد أن تمر فى لحظة ما من أمامه أو من الناحية المقابلة فى طريقها كالعادة نحو متجر الكتب المفضل لديها. كان بإمكانه أن يدخل داخل المكتبة لكنه فضل أن ينفرد بها. كان من هؤلاء الذى تعنى بالنسبة لهم كلمّة انفراد أكثر من حجمها فى قاموسها الذكورى.

« بل كان بإمكانك الاختيار يا"سبيروس"، لكنك فضلت عاطفتك، وحسنا فعلت».

« إذا خفضت صوت المعلمة هذا، فسوف أجيبك».

كانت "سونيا" قد ذهبت إلى حفل فى البار الذى تعمل به "مارثا" نظمه زميل لها فى مجال التأمينات. كان يعلم أن "مارثا" وكالة أنباء متنقلة إذ إنها فى أثناء عملها تشرب دوماً فى الخفاء، سألها عن صديقتها الحميمة

وإذا بمارثا تطلق كل مافى جعبتها بأنها تعطى دروساً فى اللغة اليونانية فِي بيت جميل. لكن لحسن الحظ لم تستمر فى إعطائه معلومات وتوقفت عند هذا الحد.

« وفيم يضايقك هذا؟».

« كم هو أجرك؟».

صعق الخسيس عندما سمع كم تتقاضى، وقد قصدت "ماريانا" أن تعلن له أجرها بنبرة انتقامية.

« أنا فى حاجة لك، الآن أكثر من ذى قبل ».

قال "سبيروس". "سبيروس اللطيف". لكن لفظ الاحتياج كان له وقع سمعى سيئ على آذانها حاولت بشكل أو بآخر أن تصحح له ما قاله أو تعدله أو تبدل ألفاظه أو تصحح له مخارج ألفاظه على الأقل. إلا أنها...

« سبيروس... لابد أن أرحل...سأخرج اليوم مع صحبة...».

« هل أعرفهم؟ ».

« حتى وإن كنت تعرفهم، ماالذى سيتغير يا سبيروس؟ دعنى على الأقل أذكرك كما غرفتك».

وحانت لحظة الدراما. نهض ليغادر فجأة، معتقداً أنها ستهرول خلفه كما حدث من قبل ذات مرة عند شاطئ كافورى، أغلقت خلفها. آخر قوس فى فصل طويل وذهب مغادراً بين ضجيج الكافيتريات.

اشتدت حرارة الجو على حين كانوا فى الطريق نحو شمال إفريقيا. حتى إن الهواء كان ثقيلاً وأكثر كثافة فى الجو، تنتظرهم فى الأفق موانى غير معلومة. كانت "ناتاشا" تجلس على السطح، تحاول أن تميز أى علامة من بعيد، لكن الأفق كان ضبابيًا لا يمكن تخطيه. أمواج البحر تشبه أنهارًا جارفة، لا أحد يعرف إذا كانوا يبحرون أم ينجرفون. قال بحار من أعلى الصوارى من المفترض أنه يعرف، النوارس فقط تتعرف على التيارات الجارفة. فالبحر والسحب تسير مع النوارس.

تحمل بين يديها كتابًا صغيرًا بغلاف من الجلد. وكما يبدو من بعيد لا يحمل هذا الكتاب أى عنوان. هذا الكتاب الذى تحرص أن تخفيه دائمًا فى كابينتها، فى خزانتها ذات الأقفال. القلائل الذين يعملون على متن هذا اليخت كانوا مختلفين تمامًا فى ذلك اليوم، كان هناك شجار بالأمس، لقد شربوا حتى ثملوا، مما جعلها تغلق على نفسها الكابينة حتى لا تسمعهم.

تولى "تيتو" أمر العقوبات. كانت هناك أوامر صارمة ألا يحدث شجار أو تمرد على متن اليخت. كانت "ناتاشا" لديها السلطة أن تعاقب وتعفو وتأمر وتنهى وهو أمر كان يضايق البحارة المحترفين. لم يكونوا معتادين على الأوامر النسائية، وبالأخص أو على الأرجح تلقى الأوامر من فتاة صغيرة، كانوا ينسجون الأساطير حول هذه الفتاة فى أمسياتهم الليلية وقت الراحة وهم يدخنون. لكن شيئًا وحيدًا هو المؤكد. أن الصغيرة وإن كانت لديها قوة داخلية، فإنها تستقيها من مكان آخر غير قدراتها الشخصية.

كان الحر شديدًا فى "تونس" كان الميناء بعيدًا، هناك بحيرة مالحة ضحلة تصل من الميناء إلى المدينة. استعد "تيتو" ليجرى بعض المكالمات التليفونية مع بعض أصدقائه الفرنسيين، الذين يسكنون فى فندق من أيام الاستعمار ليخرجوا معًا فى الليل.

سيذهبان إلى الشواطئ فى اليوم المقبل. جلسا فى مقهى على البحر فى "شارع بورقيبة"، راحا يتطلعان إلى المصطافين الذين كانوا يرتدون الملابس الفضفاضة، وينتعلون الصنادل ويتمايلون. ولد صغير يبيع عناقيد الياسمين المربوطة بشريطة بيضاء. ثبت عناقيده فى سلة مشغولة. أخذا منه اثنين ووضعاهما تحت آذانهما.

ذهبا إلى المدينة فى المساء، راحا يتفقدان الأزقة الضيقة. اشترت منديلاً، جربت إسورة منحوتة ذات طراز بدوى. أصر صاحب المتجر على الثمن وهى تتفحص القطعة بعناية. فى النهاية قيمت وزنها ثم وضعتها فى معصمها.

شدها "تيتو" نحو مقهى بحرى مغطى بالمظلات، جلسا ليحتسيا الشاى الأخضر المطعم بعيدان النعناع وحبات الصنوبر تسبح على السطح. طلبا النرجيلة. ابتسم رواد المقهى على اختلاف أعمارهم. شرح لها أن هذا المكان ليس من الأماكن الشهيرة أو ذات السمعة السياحية، كان من الممكن أن يأخذها إلى مكان كهذا فى الجزء الحديث من المدينة لكنه كما يقول يشعر بالضجر من الأماكن المتحضرة ثم أخذ نفسًا

عميقًا من مبسم النرجيلة. رجلان مسنان فى الجوار يبتسمان، على حين كانت "ناتاشا" تشرع أن تضع النرجيلة على فمها. كانا يضعان أيضًا الياسمين خلف آذانهما، إلا أن أحدهما وقف وقدم لها عنقوده بأدب جم. أزاحت "ناتاشا" شعرها الأسود ووضعت الياسمين على أذنها الأخرى. ستقول فى المساء لتيتو « إنها شعرت بأن رائحة الياسمين كانت تحرق لها سمعها ».

تطوع الرجلان أن يأخذاهما فى جولة ليكشفا لهما خبايا المدينة القديمة، ساروا فى شوارع متاهية، استنشقوا روائح السوق، ارتاحوا قليلاً تحت صفوف الأعمدة.هناك حَمّام لكن كانت الساعة التى يغلق فيها أبوابه، لكنه سيستقبلهم.البقشيش السخى أجبر صاحب الحمام أن يغلق أبواب الحمام ويهتم فقط بالزبائن الأربعة بأن يتركهم على راحتهم فقط.

* * *

كان البيت يضج بالضحك لدرجة أن جرس الباب لم يُسمع. كانت "مارثا" تضحك بهيستيرية بطريقة غير طبيعية، وحدها فى الشقة، و"ماريانا" ترددت إذا ما كان عليها أن تدخل.

قالت "مارثا" ضاحكة. : « تعالى حبيبتى » ثم توقفت عن الضحك فجأة، أخذت نفسين عميقين ثم جلست فى مقابلها.

كانت "ماريانا" تفكر جديًا إذا كانت ستثق فى صديقتها بعد ذلك.

« لمَ كل هذا الضحك؟ ».

« لا شيء، بقايا من التدريبات في البروفات، نتدرب على الضحك. أنا على ما يرام...».

« بالتوفيق إذن».

« هيا يا "ماريانا"، احكِ. يبدو عليك الرغبة في حكي أشياء كثيرة».

« كيف فهمت؟».

« تحدثي...».

حاولت أن ترتب الأمور والأحداث.

أولاً: لم تقع في عشق تلميذها.

ثانيًا: قطعت كل العلاقات مع "سبيرو".

ثالثًا: لم يحدث شيء جديًا بين المعلمة والتلميذ.

« ولا حتى قُبلة واحدة يا "ماريانا"؟»

« فقط نوع من الاتصال الساخن، أو تلامس ساخن. لم أشعر بشيء كهذا من قبل».

« هل شعرت بالنشوة؟».

« شيء أكثر من هذا...».

وقعت "مارثا" فى حيرة فلم تكن متأكدة إذا كانت صديقتها تعنى كل ما قالته أم أنها فى حالة سخرية من الذات.

« وصاحبة العمل؟».

« لم تر شيئًا .. تبدو هادئة وواثقة، وماذا ستقولين فى ما تجعلنى أكتبه؟ قصص لا تصدق، مئات العشاق، رحلات لا تنتهى».

« هل تكتبينها على الكمبيوتر؟».

« بالطبع، وأين سأكتبها؟».

« أرجوك، أتوسل إليك...».

توسلت إليها أن تعطيها إياها لتقرأها، أى نوع من الأصدقاء أنت. حاولت "ماريانا" أن تشرح لها أن هذا مستحيل لكن "مارثا" سألتها كم من الوقت تعتقدين أنك ستستمرين فى العمل هناك.

« هذا يتوقف على الصندوق. تخيلى رأيت أصغر دفتر فى حياتى. حجمه صغير لدرجة أنه بإمكانك أن تخبئيه فى أى مكان».

« لو كنت ثرية مثلها... صحيح يا "ماريانا"، من أين لها كل هذه الأموال؟».

« ورثتها. المال ليس هو المسألة لكن شخصيتها. الأماكن، البلاد، الأصدقاء الذين هم فى كل مكان. كل أفعالها لها سبب وعمق، وإن بدا أن الرجال هم لب الأمر».

« هل تحفظين عددهم؟».

« لابد أنني قد وصلت إلى الجزء الخامس والستين حتى الآن ولم نكمل حتى عُشر العمل المطلوب...».

« أرى أنك سوف تحصلين على مكافأة نهاية خدمة من ناتاشا... وربما تحصلين على عشيق أيضاً...».

وبدأت "مارثا" تضحك بهيسترية مجدداً. لكن هذه المرة لم يكن ضحكاً مسرحياً.

* * *

شرح لهم "جاك" الطريق الذى يجب أن يتبعوه، كان بجواره القبطان، رجل بدين يدخن ليلَ نهارَ. استطاع "جاك" أن يؤمن لهم رخصة اقتراب من الساحل الليلى فقط لمدة يومين فقط من أجل أغراض بحثية. يبدو أن "ناتاشا" يصيبها الضجر من الآراء ومثل هذه النصائح والإرشادات، كانت تسمعها دوما بانتباه لكن دون أن تقاطع أو تسأل أو تستفهم عن شىء. يتصفح "جاك" بين أوراقه بعناية خريطة باللغة العربية. انحنت "ماريانا" نحوه باهتمام كي ترى طبيعة الصحارى والأراضى البدائية البكر، الصور والمخطوطات. مثل هذ الأشياء لا تنتشر أبداً فى الغرب.

ساحل "قورينا" (القيروان) يعتبر من عجائب العالم القديم. الأعمدة والتماثيل المكسورة تمنح المكان مسحة من الحزن. أشجار السرو والصنوبر تكمل صورة منطقة مدافن مفتوحة على البحر. الحر شديد رغم أن شهر سبتمبر قد حل. "جاك" باحث درس اللغات وعلم الآثار وتاريخ الشعوب الشرقية.

« البحر الأبيض» شرح أن هكذا يسميه العرب.

« أحترمُ أباكِ كثيرًا... فقد قام باكتشافات مهمة. حتى الآن نعتمد على نتائج أبحاثه... العمل الذى قام به فى الصحراء العربية فريد من نوعه يا"ناتاشا" ».

لا أحد لديه رغبة فى رؤية طرابلس بعد الجولة المرهقة بين الأطلال الهلينيستية. لا يحتمل "جاك" أى مدينة لا يستطيع أن يجد فيها مطعما جيدًا، ويفتح فيه زجاجة نبيذ. عادوا إلى اليخت ليعدوا وجبة العشاء.

كان فى الميناء عدد وفير من أفراد الشرطة يدورون هنا وهناك. الجميع كان لديه علم بأن النظام لا يحتمل أى نوع من الاستثناءات.

كان يجلس بجوار "جاك" رجل أسمر اللون، يستمع إليه باهتمام، يلف سجائر طيلة الوقت. من المفترض أنه كان دليلهم السياحى، اتضح فيما بعد أنه اقترب منهم عله يستطيع أن يرحل معهم بشكل غير شرعى. وراح يجرب كل حيله، اقترح على "ناتاشا" أن يقوم بعمل تدليك خاص للاسترخاء بعد أن أخرج نوعا من الزيت من حقيبته.

شمت "ناتاشا" رائحة الزيت ثم اتجهت معه نحو كابينتها. بالفعل كان ماهرًا وكانت يداه تنزلقان كما لو كانت على سطح مخملي. لسانه أيضًا كان يتحرك مثل سحلية مرنة، وهذا أمر من شأنه أن يجعل "ناتاشا" عندما تبقى بمفردها تضمه إلى تدويناتها فى كتيبها الصغير.

فى الليل غادر الدليل مصحوبًا بالشرطة التى كانت تنتظره فى الميناء.

كان جنديًا فى البحرية « هذه هى قصة الشاب الليبى. حوكم بتهمة الزنا وقضى سنتين فى السجن، ومن يومها انهارت حياته تمامًا ».

تحدث "جاك" مع "تيتو" طيلة الوقت، فهما صديقان منذ سنوات طويلة. كان "جاك" يصر على أمر كانت تستمع إليه "ناتاشا" باهتمام وهو أن الشاعر اليونانى "أنجلوس سيكليانوس" تأثر كثيرًا بهذه الأماكن التى زاروها اليوم بالتحديد عندما قام برحلته الشهيرة فى البحر المتوسط والشرق الأوسط...

سألت ناتاشا، متى حدث كل هذا؟. "سيتولى كل من «تيتو» و«جاك» أمر إنارة عقلها بالمعرفة. أما هى فكانت تستمع تارة بانتباه شديد وتارة أخرى بلا مبالاة.

قالت "ناتاشا": « إذا كانت أمى على قيد الحياة...».

* * *

« لو عاشت؟».

صمتت "ناتاشا" ووضعت الكتيب الصغير على المنضدة. مسحت عينيها برقة، كما لو أنها تعانى من حساسية ما.

طأطأت "ماريانا" رأسها وهى تهزه، الآن عرفت أنه لا يجب أن تثير الأسئلة الشخصية، يجب عليها فقط أن تطلب إعادة المشهد. وصف "ناتاشا" الدقيق لكل التفاصيل يتطور وينمو من خلال كتابة "ماريانا" إلا أن المشاهد بالأساس مصنوعة طبقًا لرؤية الراوية، أو طبقًا للصورة التى تعطيها "ناتاشا" فى كل لحظة بذاتها.

استمرت الإشارة إلى الأم.

« كان لديها معرفة واسعة دون أن تدرس شيئًا. لكنها كانت تتعلم بالطبع، من أبى المتعدد المدارك... فقد كانت تعرف فى الفلك، وتلقى الشعر، وتداوى بالتعاويذ والطاقة البشرية. ورثتُ عن الاثنين حب التعلم والفضول. لا أحتمل الناس الذين لا أتعلم منهم شيئًا، أمَلُّ منهم بسرعة، معلومة، أى شىء أو معرفة شىء ما. من ناحية أخرى يمكن أن أعطى كل ما أملك لأحصل على شىء إيجابى. كلمتان باللغة العربية يلخصان ما أعنيه: أدب: التعلم والثقافة، وأديب: هذا الذى يعرف ».

أطلقتْ صفيرًا بفمها. فظهر "حكم" على الباب يجر رجله بكسل.

« ستأكلونَ وحدكم الليلة يا "حكم". غدا سنذهب إلى السوق معًا».

« أنا ثانية ».

قالت "ناتاشا" مبتسمة: « "صابات" لديه درس ».

قال حكم: « دروس جميلة لصابات».

« سيأتى دورك...».

شعر "حكم" بالظلم.

استأذنت "ماريانا" وهرولت إلى الحمام تتنفس الصعداء. دَرْسُ "صابات" تأخر يومين ولم يظهر هو فى الحديقة ولا فى أى مكان آخر. تساءلت إذا كان كل ماسمع منذ قليل كان يحمل فى طياته شيئًا آخرَ، أو ربما تبالغ هى فى تحسسها من الأمر. ثم ماذا كان معنى « سيأتى دورك»؟

عندما عادت إلى المكتب لم تجد "ناتاشا" فى مكانها على الأريكة. بل وجدت شيكًا، بمبلغ أكبر من الذى كان قبله.

بحثت عن "الليكير". كانت تسمع أصواتًا غريبة، مثل آهات وتنهدات... من ناحية غرفة النوم توترت.. لكنها انتظرت، لابد أن تحافظ على دورة ساعات عملها.

بالفعل، بعد عشرين دقيقة، مرت عليها كقرن من الزمان، ظهرت "ناتاشا" ترتدى الروب وشعرها مرفوع وتضع مكياجًا خفيفًا. بالتأكيد لا يحتاج الأمر أن تكون أنثى كى تفهم متى شعرت المرأة بالنشوة بعد ممارسة الجنس.

قالت لهم: « أريد أن أتجنب الذهاب إلى هذه المنطقة».

« لقد عانى والدى وأصدقائى كثيراً هناك».

أشارت على الخريطة نحو "لبنان". تذكر المعبد المنسى على الجبل على بعد نصف ساعة من "بيروت" على الجبل. تسير بين أطلال المعبد الذى قد بنى على شرف "أدونيس وأفروديتى". على حِيَف الصخور الوعرة تلمس الأعمدة ذات الطراز الكورنثى. ومن أسفل يتمدد الوادى والشاطئ على ساحل البحر المتوسط، مدينة "جبيل".

قال "جاك" بإصرار: « لست وحدك فى هذه الرحلة. فأنا أقوم بأبحاثى أيضاً. سنرى ماذا سنفعل...».

"الإسكندرية" تتلألأ تحت شمس المساء، وهؤلاء يفكرون فى الرحلة التالية.

قالت ناتاشا: « حالة الانتظار الدائم للميناء القادم يشبه حالة عصبية ».

كانت تعرف الإسكندرية جيداً لدرجة أنها تساءلت ماهو الجديد الذى يمكن أن تكتسبه من خبرات أخرى غير الأسماك الطيبة فى المطاعم بالقرب من الميناء؟.

« يا "جاك": لا تقل شيئاً آخر عن الشاعر...».

« أتفق معك. لكنى قد عانيت كثيرًا لإحيائه من جديد... لقد صرت هدفًا لأعداء الأكاديميين».

« من حسن الحظ أنك فهمت هذا... لهذا فنحن نفضل أن نذهب لندخن "النرجيلة"».

* * *

« هيا رشفة أخرى، قدر ما تستطيعين، لا تستنشقى الدخان».

لم تصر "ناتاشا"، حيث رأت أن الدخان يخنقها. زبائن المكان نظروا إليهم باستحسان (فقد اعتادوا أن يروا أثينيين يرتادون المكان) المرأتان كانتا فى أجمل حالاتهما.

« عندما لا يكون ثمة اسم فى السماء العالية،

فالأرض تحتها ليس لها اسم».

ألقت "ناتاشا" الشِّعْر بحيوية.

سألت ماريانا: « من قال هذا؟».

« إنها أبيات الخلق، كتبت فى القرن الثامن قبل الميلاد فى بابل ».

أخذت رشفة قوية أخرى من "النرجيلة".

« أبى لم يدخن قط فى حياته، كان يُسمى "النرجيلة" نفق الدخان، ياله من اسم منفر! أما أنا فكنت أدخن منذ صغرى فى الخفاء. كنت أذهب إلى المقاهى أجلس بجوار الرجال وأطلب منهم أن يعطونى مما يدخنون. كان يكتشفنى بين الحين والآخر لكنى كنت أنجو من العقاب، كان يقول إننى لست من دمه ويتركنى. آتى إلى هذا المقهى المصرى بانتظام. يذكرنى بتلك الفترة... ومواجهة الجموع فى الموانى والمدن».

«كم أغار من رحلاتك الكثيرة يا "ناتاشا"».

« كنا مثل أبناء الشتات. دائمًا مانبدل بلدانًا وأوطانًا ...».

لم تشأ أن تستمر فى الحكى عن شجرة العائلة. أى عائلة، قالت، بل هى غابة متحجرة...

« لم تكن لدينا قاعدة ثابتة. كنا نأتى إلى "أثينا" فى الإجازات عندما أكون فى البيت، أشعر أننى فى كل مكان، من ناحية أخرى لقد فقدت المدينة شخصيتها».

كانوا يلعبون الأوراق على أغلب المناضد، وعند البار أربعة أو خمسة شباب يتابعون قناة موسيقية فضائية. رائحة دخان التفاح انتشرت فى كل مكان. كانت "ماريانا" تنظر باستمرار إلى مدخل المقهى. فى كل مرة يُفتح الباب كانت تظن أنها سترى أحد معارفها. قلقها الواضح على وجهها لم يمر دون ملاحظة.

« ماذا بك ياماريانا؟».

« أشعر أننى مثل السمكة خارج الماء ».

« إذا كان المكان لا يروق لكِ، نغادر. على أية حال سيمر "تيتو" من لحظة لأخرى».

بعد ثلاث دقائق فُتح الباب وظهر "تيتو". قال لماريانا: إنه سمع الكثير عنها وأجابته بكلمات متشابهة. "تيتو" رجل طويل، شعره القصير رمادى قليلاً، فى عمر "ناتاشا" تقريباً.

« تقومين بعمل صعب للغاية، أحييك على شجاعتك يا ماريانا!».

« اهتم أنت بشؤونك... ».

« أتوقع أن تغيرى اسمى!».

ضحكت "ناتاشا" عالياً: « لقد غيرت اسمى!».

« هيا بنا؟».

قادهما بأدب وبابتسامة رصينة فى أزقة "كيراميكو"، خلف مجمع "جازى"، فى "جاليرى" جديد تم افتتاحه مؤخراً. كان الجاليرى يقع فى الدور الأرضى لمبنى ذى ثلاثة طوابق؛ فى الطابقين الأول والثانى كان هناك مطعم وبار.

كـان يوم الافـتـتـاح الرسـمى، وكـان الزحـام شـديداً فى الداخل والخارج دون أن يشاهدوا اللوحات الفنية. جَمْعٌ من الناس غير مترابط قد اختلطوا بسكان الحى، ربما لم يكن يعنيهم الفن التشكيلى.

أصـاب "مـاريانا" الإرهاق. فلم تر أى شـخص تعرفه وللحظة فقدت صـحـبتـهـا . فضلت أن تجلس على أحد الجـوانب وتنتظر. كـان الشـارع مظلمًا ومـهـملاً. قمـامـة، نفـايات مبانٍ من أحد المنزل التى تحت التجديد فأفرغوا أحشاءه.

لكن، على مسـافـة ليست بـالبـعـيـدة كان هناك شـخص يتكئ على سيارة ينتظر فى صبر وفى صمت.

«صابات!» صرخت "ماريان" وهرولت نحو مكانه بسرعة حتى إنها اصطدمت بقطة.

كان، هو، ينتظر حتى تقترب.

« لماذا لم تأتِ إلى الدرس اليوم؟».

شـرع فى أن يقـول شيـئًا لكنه لم يحـاول أن يبـذل جهـدًا حتى يكمل الجـمـل الصـعـبـة. احـتـضـنـا بشكل طـبـيـعـى بل وبديهـى، وكـأنهـمـا لم ينتظـرا شيئًا آخر. بدأ فى القـبـل بشغف فى شبه الظـلام، قبلات كثيرة لم يشـرع أى منهم فـى التوقف. كـان يرتعـش من التـأثـر وعندمـا توقف فى النهـاية ، مَرَّرَ راحـة يده على وجـهـهـا كـأنه يفـسـره. سـارا حـتـى

الشارع التالى، وتوقفا أمام بوابة حديدية لأحد مخازن أدوات البناء، وبدأ فى القُبَل مجدداً، على حين كان كلب الحراسة ينبح وهو يخدش الباب الحديدى.

أدركت "ماريانا" متأخراً أنها قد تركت صحبتها فى الجهة المقابلة. تفتت جموع الجماهير. لم يكن ليتركها تسير وحيدة. تحت الجسر المعلق فى شارع "بترو راللى" تساءلت إذا كان بمقدورها أن تذهب إلى بيتها سيراً على الأقدام.

عرض عليها "صابات": « هل أصحبك حتى منزلك؟ ».

سار معها حتى بداية شارع قريب ثم رجته أن يعود. لكنه تردد قليلاً.

« أين ستنام أنت؟».

« فى بيتى. حى "أجيوس ذيميترى" ».

حيته بارتياح إذ علمت أنه لا يبيت فى مكان عمله الصباحى. لم تغمض عيناً طوال الليل. راحت الغيرة تأكل أفكارها، وكانت فى صراع بين هذا وبين العقل والمنطق.

* * *

تركهم "جاك" فى "رودوس" وغادر إلى "أثينا" ليشارك فى مؤتمر عن العلاقة بين الحضارة اليونانية والوثنية. كان "جاك" دائمًا يفتخر بأطروحاته العلمية ويتسلى كثيرًا ببرود الأفعال التى تثيرها. فى هذه المحاضرة سيعطى بعدًا خاصًا ويطرح أسانيد عن الروح الوثنية فى آسيا الصغرى، وسيعرض المخطوط النادر ليوحنا فى إفيسوس.

قررت باقى الصحبة أن تبقى فى الجزيرة من أجل عمل صيانة لليخت.

ستذهب "ناتاشا" فى المساء، إلى الحمام فى المدينة القديمة. كانت الرياح تهب بشدة لدرجة أنها ظنت أن الهواء سيقتلع المسبح الحجرى.

نساء قليلات داخل الحمام، أربع على الأكثر، وبالطبع اثنتان منهن أجنبيات، كن من الشرق وجئن يتبعن أزواجهن فى رحلات عمل.كن يتحدثن الفرنسية وراحت "ناتاشا" تتنصت على حديثهن. كانت إحداهن متحمسة جدًا وشرحت لهن أن فى بلدها الحمامات العامة صارت ذكريات من الماضى، حيث إنهم يعيشون الآن فى بيوت مريحة.

كنّ سعيدات ومتحررات.

شعرت "ناتاشا" بالنعاس. عندما خرجت كانت الرياح هدأت، لكن المبانى والشوارع مبتلة. حتى فى الشتاء تحتفظ المدينة بأضوائها الصيفية التى تنعكس بدورها على الأرصفة المبتلة والبرك الصغيرة التى خلفتها الأمطار الغزيرة.

ستجلس وحيدة فى بار الفندق «كاسيوبى» وستطلب نبيذًا. الفندق صغير لكنه أنيق، به غرف قليلة وطعام رائع. على البيانو تعزف فتاة ممتلئة فى السابعة والعشرين من عمرها بشعر قصير أحمر اللون تبتسم لها باستمرار. رجال قلائل، تأخر "تيتو" فى العودة من نزهته الشخصية بالقرب من معسكر الجيش.

عازفة البيانو تهدى لها أغنية شعبية وتغنيها بتأثر حقيقى من أجلها. فى نهاية السهرة ستدعوها "ناتاشا" على طاولتها. عازفة البيانو جاءت من "أثينا" كى تغنى فى الجزيرة فى موسم الصيف لكنها بقيت. حيث إن العمل صار صعبًا فى العاصمة. فى "رونوس" يأتى الناس ويغادرون...

خرجتا تتمشيان عند الميناء، سارتا فى محيط الأسوار. كانت "رانيا" تدخن كثيرًا وليس فقط سجائر. تذكرت الأيام الجيدة حين كانت تأتى سفن الركاب الضخمة وكيف كانت تكسب منها مالاً وفيرًا. لكن هذا لم يستمر بالطبع، صارت الأمور صعبة فى هذا المكان. تعمل فى الجزيرة بأجر يومى «هذا ليس سيئًا». آخر محطة لها كانت فى "بيروت" فى ملهى كبير وحيوى كان رواده من كل أجناس العالم.

تحدثتا عن "بيروت"، كيف رأتها كل منهما. مدينة الأحزان والأطلال، الأحياء الفقيرة، مدينة الجسور، أشجار الأرز، الأحياء المتهدمة. قالت لها "ناتاشا" إنها عاشت قليلاً فى "بيروت"، حيث إن أباها كان يعمل أثريًا هناك، عمل فى "صور" وفى "فلسطين" و"الأردن". عندما كان بإمكانه أن يعمل هناك.

كان كربه عند موته هو أن المنطقة قد دخلت فى مغامرات سياسية وحروب مما منعه أن يكمل اكتشافاته الأثرية. وكان يخشى من أن الحروب والقنابل ستحطم ما تبقى من الأجناس المختلطة والشعوب والحضارات، وكان يناضل كى يعثر على الأثر اليونانى بين كل هذا...

« حبيبى، كان يحبنا أنا وأمى كثيرًا. وكان دائمًا يقول إننا قطعة الفسيفساء الرائعة المحببة لديه. خليط يونانى عربى... ».

* * *

تنهيد عميق فى صدر "ناتاشا". بدا مظهرها أكثر إنسانية عن مرات سابقة، عندما تحاول دومًا أن تبدو فى مرتبة أعلى عن الآخرين وفى حالة تحفز مستديمة.

سكبت كوبًا من الماء وشربته. ثم وقفت بعد أن ارتبكت قدماها فى فستانها الطويل.

قالت "لماريانا": « تعالى معى ».

قادتها للطابق العلوى حيث المكتبة. كانت ترتدى فى أقدامها حذاء منزليًا ذهبى اللون.

كانت الصندرة مليئة بالكتب، لا شىء فيها سوى الكتب، أرفف مكتظة بالمجلدات، كما كان هناك أيضًا بعض القطع الأثرية. بعضها

تماثيل فخارية لا تقدر بثمن. على الحائط قطعة نسيج محفوظة داخل إطار خشبى، محتفظ بأغلب أجزائه وبعض الأجزاء كانت متمزقة.

« كان أبى يحب هذه القطعة كثيراً ».

ألقت عليها نظرة قريبة متأنية. سلسلة من الأقواس وكانت تحتها أشكال متشابكة كأنه طقس ديونيسى غرائزى.

« هذه قطعة فريدة من نسيج سجاد الحائط. هناك قطعتان أخريان مكملتان، واحدة توجد فى أحد متاحف أمريكا، لكن هذه القطعة هنا هى بدايتها.

كان أبى يشعر أن هذه القطعة تربط بين حياته وحياة زوجته، أمى. ولعله هذا فقط!».

لون أرجوانى عميق. رجل وامرأة فى حالة سكر. الإله بان، « هذا هو الناى...». وهذا الشكل الأنثوى فى المنتصف لامرأة جميلة وغامضة، عارية تقريبًا، صدرها عار، فى إحدى قدميها صندل أحمر والأخرى حافية، حركة كسولة على حين تنحنى. وفى المشهد يدخل رجلان، ملامحهما شعبية، ربما للاشتراك فى الطقس، على أية حال....

« هذا العالم مابعد العالم القديم، فى العصور الرومانية اليونانية، وبالطبع كل الشعوب التى كانت تعيش فى حوض البحر المتوسط حتى الخليج الفارسى والفرات. هذا عالم مختلط، وثنى، يونانى، مسيحى، وإسلامى فى النهاية، بمعنى... اليوم. كل هذه الأماكن والبلاد تعنى لى

أشياء كثيرة، هؤلاء الناس، تلك النساء...انظرى كيف كانت هذه المرأة هنا، مكشوفة، مثابرة، متحررة. هنا العالم الجديد الذى ـ ياللخسارة ـ لن يكتمل أبدا ...».

اقتربت "ماريانا" أكثر من لوحة الفسيفساء ونظرت إلى عين المرأة.

« ما اسم هذه المرأة؟».

« كم كنت أتمنى أن يكون اسمها "ناتاشا" أو "ماريانا". فى كل لوحات الفسيفساء تم تسجيل أسماء كل الحوريات فيما عدا هذه: فهى تحمل اسمًا حير أبى كثيراً. قبل موته، قال لى عندما عاد من مؤتمر مهم فى "برينستون"، يمكن أن تعثرى على أشياء كثيرة إذا حفرت مدينة بأكملها، لكن وجه امرأة جميلة، يصعب عليك معرفة اسمها، سيعذبك حتى النهاية. وترك لى هذا اللغز قبل أن يرحل، لترتاح روحه أينما كان، فى أى جنة استقبلتها.

* * *

ستتبعهم "رانيا". ستقيم معهم، لن ترفض صداقة "ناتاشا" ولا عرضها عليها بالذهاب معهم. فعملها فى بار الفندق فى فصل الشتاء لا يكون على ما يرام، ولا حتى أجرها كان بالشىء المغرى. وعدتها "ناتاشا" برحلتين أو ثلاث وبعد ذلك، إن شاءت يمكن أن يجدوا لها عملاً فى "أثينا"، حيث سيقضون الشتاء فى بيت العائلة فى "كيراميكو".

"رانيا" تنحدر من "قبرص"، والداها غادرا "فاماغوستا" بعد الغزو التركى، وعاشوا فى "لندن" بضع سنوات، كان هناك أولاد عمومتها، لكن ثمن الحنين كان باهظًا. مات أبوها بزجاجة عرق فى يده معتقدًا أنه تحت ظلال أشجار بيته. أصيبت أمها مع مرور الزمن بداء النسيان وأخذتها أخت "رانيا" الكبرى لتعيش معها، كانت متزوجة من لاعب كرة قدم إنجليزى فى ليدز.

قبلت "رانيا" بسعادة كبيرة المغامرة الجديدة - وتحدى الواقع، تكسب دائمًا نقاطا كثيرة بسبب شخصيتها المتفجرة، المبتهجة العشوائية. بهذا الشكل كانت "ناتاشا" تكسب الأصدقاء، وإن لم تكن بينهم صفات أو خبرات مشتركة. كانت دائمًا تسعى إلى الصداقة، التى كان من الصعب الحفاظ عليها بسبب تنقلاتها المستمرة. يمكن إحصاء الأصدقاء بالأخير.

- أما العشاق فيبقى عددهم لا يحصى.

عادوا إلى "أثينا"، وجدوا البيت على مايرام. لكن السيدة "ذروسولا" التى كانت تعتنى بالبيت بدأ التعب يظهر عليها. لابد أن هذا كان فى الثمانينيات - تميز مرور "رانيا" بالنجاح الساحق الذى حققته فى البار الكائن بشارع "قسطنطينوبوليوس" عند قضبان القطار. كان حينها أمرًا غير مألوف، وضربًا من الجنون أن يفتتح أحد بارًا فى المنطقة الصناعية بالمدينة وبجوار قضبان القطار حيث كان جراجًا لعربات النقل الكبيرة.

كان هذا العقد فترة حرجة فى "أثينا" التى لم ترتدِ بعدُ زيها الحديث. كان اليونانيون يشاهدون أفلام الفيديو اليونانية وهم يأكلون البيتزا، وفى المطاعم كانوا يقدمون الكفتة مع بيض مقلى وفوقه الجبن المحلى الأصفر.

رغم هذا، نجح هذا البار نجاحًا كبيرًا، كان زبائنه من النخبة الفنية. وفى ليلة يقال إن أحد الموجودين كان "مانوس خادزيذاكيس".

كانت فكرة "تيتو" أن يفتتح مكانًا كهذا، « بدلاً من أن نذهب بعيدًا إلى أماكن منحطة الذوق، لمَ لا نقيم نحن بارًا يكون لنا؟».

إدارة البار تولاها أحد أصدقاء "تيتو"، كان من "فيريا"؛ الذى قد أنهى لتوه الخدمة العسكرية فى الحرس الجمهورى. حرص أن يكون العاملون فى المكان فتاتين ومدربًا رياضيًا، ليعطى للمكان روحًا شبابية.

بدأت "رانيا" فى غناء أغانيها الشخصية، وشكلت برنامجها الخاص. خليط من الأغانى التراثية والألحان الحديثة.

كانت "ناتاشا" تبتهج عند سماعها. بعض الزبائن كانوا يرون أن أغانيها الشخصية لم تكن مسلية بالقدر الكافى.

« لا تهتمى يا"رانيا"، هذه بضاعتنا ومن لا يعجبه... ».

كانوا يسهرون ليالى كثيرة حتى ساعات مبكرة من الصباح يحكون القصص أو يستمعون إلى القصص. بين الزبائن الدائمين فى المكان غير

الجيران بالطبع كان هناك سائقو النقل وشباب شعبى من غرب المدينة، بعض مدمنى المخدرات، مجندون، اشتراكيون، حتى أحد الكتاب المعروفين كان يحوم فى المكان...

قالت لها ذات ليلة: « أمى ... ».

سألتها رانيا: « أمك؟ ».

* * *

اقترحت "ماريانا": « هل نكتفى بهذا القدر؟ ».

بدأ التعب يظهر على "ناتاشا" بوضوح. فى كل مرة كان الحكى يصل إلى أمها، كانت تنكسر وتحزن، تؤثر التوقف وتكمل فى المرة القادمة. لم يكن لديها مشكلة أن يبدأ من البداية مرة أخرى، لم تهتم أيضًا بالترتيب الزمنى للأحداث. كان يعتريها القلق اليوم. مكالمة تليفونية، زيارة جديدة...

« لابد أن نرسل سيارة تاكسى إلى المطار، سيأتى صديقنا من باريس ».

سألت ماريانا: « سيأتى "جاك"؟ ».

أجابت الأخرى شاردة: « كيف فهمتِ أنه "جاك"؟ » .

« هل نسيت أننا نتحدث عنه طوال الوقت؟».

ضحكت "ناتاشا". هذا بالضبط ما كانت تخشاه: أن يمتزج الماضى بالحاضر.

فى البداية كانت تود أن تكتب فقط الأحداث التى انتهت.

« إذن، نتحدث عن مذكرات يا"ناتاشا"، تُكتب حين لا نوجد ».

حين لا نوجد... لم تعجبها تلك الجملة، ارتسمت علامات الحزن على وجهها، بدأت تدخل فى حالة من الشك، إن "جاك" على وصول. لن يجد أحداً فى انتظاره فى المطار، مر الوقت... إن "أحمد" زادت جرأته أكثر مما يجب، إنها ملت منهم جميعاً.

« أريد أن أخرج فى تمشية وحدى. إذا شئت يمكنك أن تستمرى فى الدرس مع "صابات" » قالت ثم قامت من على مقعدها.

الإشارة إلى صابات أرسلتها إلى الحمام، حيث ذهبت بلا سبب. تسلحت بنفسية المعلمة وبازدراء شيخوخة مبكرة علها تساعدها أن تتخطى سحر عينيه.

كان يجب عليها أن تطلب تلميذها للدرس، وهو أمر لم يكن صعباً على الإطلاق، ففى الحديقة كان يسمع صوت خرير مياه الرى الذى يخرج من خرطوم المياه مصحوباً بصوت صفير منغم.

قالت بحزم: « لدينا درس ».

أجاب «صابات» بنبرة تحمل إخلاصاً للعمل: « عشر دقائق ».

تقدمت "ماريانا" بين النباتات والورود. عالم النبات كان غريبًا بالنسبة لها. لم تعش قط بين أحضان الطبيعة، حتى عندما كانوا يذهبون فى نزهات وإجازات عائلية، وكانت مرات قليلة وربما نادرة، كان الأمر ينتهى بهم فى فنادق سيئة وأماكن بائسة، حيث كانت الخضرة بها تتمثل فى النجيل المقصوص. ربما كان البحر يمثل الطبيعة بالنسبة لها. لكن ذاك الشغف بالطبيعة الخضراء ظلت حابسة إياه فى أعماق ذاكرتها.

عاد "صابات" وهو يسير بشكل غير طبيعى. حيث كان يسير على أرضية الحديقة المبللة، دخلوا إلى المضيفة ليبدؤوا الدرس.

قال وهو ينظر نحو باب المنزل. « "ناتاشا" أين هو؟».

سألها: « هل أنتِ بخير؟».

وأجابته إنها على ما يرام ولمَ لا تكون؟ تحرك بداخلها مزيج من الرغبات يبدأ من حقيقة أن هذا الرجل كان وسيظل غريبًا فى حياتها. جلسا متجاورين هذه المرة وجعلته يقرأ ثلاثة أسطر من كتاب اللغة اليونانية للأجانب. كان ينطق الكلمات بشكل جيد وهو يمرر إصبعه تحت الحروف، كما يراجعون الأسعار بالمكينة الإليكترونية فى السوبر ماركت.

كانت يده مرات عديدة بالطبع، وكذلك عيناه تذهب نحو الاتجاه المعاكس متتبعة الاتجاه التقليدى للقراءة بالنسبة له من اليمين إلى اليسار.

كان النص يتكلم عن العائلة وعدد أعضائها، وهكذا بدأت تسأله عن عائلته:

« أنا عندى ثلاث بنات، أخ كبير».

« أين هم يا صابات؟».

قال ثم تردد: « طهران ».

« أكمل ».

« لا أريد أن أتكلم عن بيت طهران».

« حسنًا، لا تتكلم عنهم؛ حقيقة لماذا غادرت طهران؟»

أخذ يستجمع الكلمات والحركات كى يجعلها تفهم أنه غادر بلاده لأنه لو بقى كان سيزج به إلى السجن. كان هناك حكم قد صدر ضده، والقرار أيًا كانت عقوبته هينة هذا يعنى بضعة أشهر فى السجن. ما الذى ارتكبه؟ أقام حفلاً فى بيته لصحبة من أصدقاء فى مثل عمره، كانوا يلعبون الموسيقى ويرقصون، كانت حفلة عيد ميلاده. هذا هو الجرم الذى ارتكبه. لكن الشك الذى كان دائمًا مزروعًا بداخلها، أكملت فى ذهنها « على الأقل هذه هى الأسباب التى تقولها الآن ».

لكن فيم تعنيها الحقيقة – إذا كانت تهتم بالفعل من أجلها؟.

كلما اقترب منها وكلما أحسته قريبًا منها حين يتحسن ويتعلم، وبينما كانت قدمه فوق قدمها بدأت "ماريانا" تشعر أن صوته الرخيم يخترقها.

« ناتاشا...».

مرر يده فجأة خلف عنقها مزيحًا شعرها وبدأ يقبلها فى عنقها. سحب المقعد للخلف وأجلسها على ركبتيه، وراح يردد تصريف الفعل فى أذنها يصيب ويخطئ فى النهايات. لم يكن يخطئ فى صيغة المفرد لكن تصريف الأفعال فى صيغة الجمع كان يصعب عليه. رأته متأثرًا فاحتضنته بلهفة.

لم تكد تصحح له أحد التصاريف التى أخطأ فيها إلا وقد فتح بنطاله وبدا مستعدًا.

صرخت "ماريانا". بدأ المطر يهطل بغزارة مع برق ورعد فى الخارج. مددها على السجادة ومرر يده على كل جزء فى جسدها. الاتصال مع جسده كان له إحساس غير عادى. حتى رائحته كانت مختلفة. كانت بها شىء من الطين ومن ورود الحديقة.

حاولت أن تتهرب من قبلاته، أرادت فقط أن تترك له جسدها، لكنه كان ينظر إليها فى عينيها طالبًا نظراتها ومشاركتها.

نهضا من فوق السجادة مخدوشين. نصّف عاريين، استمر فى تقبيل ظهرها. كان لعابه يسيل بغزارة يخنقها ويرطبها فى الوقت نفسه.

« ناتاشا؟ ماذا سأفعل، ماذا سأفعل؟ » دمدمت المعلمة، المثقفة الأديبة.

* * *

« يؤلمك موضوع أمك ».

« كنت مرتبطة بها جدًا. كانت لأمِّى جذور عربية...».

بدت "رانيا" مندهشة.

أكملت "ناتاشا": « كان أبى فى حقبة الستينيات» فى الشرق الأوسط. كان أثريًا. بدأ من سواحل لبنان، من صور، واستمر حتى الأردن. حاول أن يثبت أن الديانات الوثنية فى الشرق كانت فى الأصل يونانية. اليهود والمسيحيون ليس لهم أى علاقة بهذا. ففى مدينة صور بالفعل وعلى إحدى المخطوطات وجد خاتمًا يوضح أن الديانات الوثنية اليونانية كانت موجودة هناك كما يوجد أصلاً الاسم "أنجلوس"، ويالها من صدفة عجيبة يا"رانيا"، فقد كان اسمه "أنجلوس".

"أورشليم" فى ذلك الحين كانت منقسمة إلى قسمين، من إحدى البوابات تمر من إسرائيل إلى الأردن.

بالطبع الأجانب وبالأخص الذين لم يكونوا يهوداً كانوا يستطيعون المرور من أى بوابة وإلى أى قسم منهما . كان أبى مضطراً أن يتعاون مع كل الناس بحكم طبيعة عمله، فقد كان لديه سائقون عرب، حتى إن بوليصة التأمين الخاصة به اضطر لعملها فى ناحية الأردن، من أجل أن يحصل على راحة باله. فى كل مكان كان السماسرة والعملاء يحومون. كانت جولاته تبدأ من شمال أفريقيا حتى "قبرص" و"فلسطين" انتهاء «بالأردن» . كان فى أحرج لحظات بحثه: وجد أدلة تثبت أن الثالوث كان فى الأصل يونانياً وثنياً ومع انتشاره تبنته الوثنية العربية.

« ثم بعد ذلك ذهب أبى من "البطرة" إلى "حلوصا" ثم إلى صحراء نجف. ليس هذا الوقت المناسب حتى أحكى لك عن أبحاثه. مكث وقتًا فى قصر الأمير، فى القلعة الشهيرة فى الصحراء حيث يقال إن فى الماضى فى عصر القوافل كان هذا المكان للمتعة والترويح وممارسة الحب. انبهر هناك من الجداريات. نساء جميلات، عاريات، رسوم على الحوائط – وفجأة رأى إحداهن حية أمامه !.

« سأفتح هنا قوسًا لأقول لك إن سائق أبى ومرشده كان عربيًا مكارًا، كان يساعده فى تنقلاته وكل أموره العملية المتعلقة بالعمل، حكى له عن عمله الآخر الذى كان يقوم به: كان يجمع فتيات من كل البلدان العربية، بنات فى سن المراهقة تقريبًا وكان يدربهن ويعلمهن كيف يمتعن الأثرياء العرب فى الفيلات الخاصة والأماكن المخصصة لذلك.

« كان يملك بيتًا كبيرًا على حدود "أورشليم" غير المعروفة والمنسية، مكان مهجور تحوطه أشجار الزيتون والتلال الرملية الصفراء، حدود طبيعية محصنة، كل هذا غير موجود الآن. كان لديه قدرة على تحمل السلطات المحلية، حيث كان الرجل كما ثبت فيما بعد - عميلاً للشرطة».

« البنات كما قلت لك كن يأتين من بلدان عربية مختلفة، لكن الغالبية كن بدويات، أردن أن يجربن حياة أخرى، لم تكن فى مخيلتهن بالطبع ولا كان بإمكانهن فى حياتهن على المصاطب الحجرية الضائعة داخل التلال الرملية».

« هكذا إذن، السائق تحمس عندما رأى أمامه فتاة جديدة. ربما كان هذا أمرًا مرتبًا، أو أن أحدًا من زملائه قد أرسلها له ليأخذها معه فى بيته ذاك، ويضيفها إلى الأخريات. تحدث العربى معها، كان اسمها "أمينة"، لم تشك ولو للحظة فيم ينتظرها فى الشهور القادمة. انبهرت بشدة من أدب الشاب الآخر، "أنجلو"...».

« كانت فتاة جميلة ومرعوبة، من القبائل الرحالة، كانت خائفة وتأمل فى حظ أفضل. كانت لها عقلية موائمة لعقلية أبى. العربى المكار الذى تولى أمرها ليمنحها "حظًا أفضلَ" فَهِمَ فيما بعد أنه سيخسرها، لهذا عندما عادوا إلى قواعدهم قرر أن يبعدها فى أسرع وقت».

« عندما فهم "أنجلوس" ما يجرى، هرب بها من الناحية الأخرى... كيف استطاع أن ينقذها ويستضيفها فى الجانب اليهودى، كانت مغامرة

كبرى. استغرقت الإجراءات حوالى الشهر. اضطرت "أمينة" أن تخضع لطقسين فى الكنيسة الأرثوذكسية: الأول للتعميد والثانى للزواج، حتى تحصل على الحق القانونى لتعود مع أبى إلى "أثينا".

. « وهكذا، ذات صباح وضعها على متن سفينة وغادرا وكانت "قبرص" محطتهم الأولى...».

* * *

زجاجة من النبيذ الفاخر أحضرتها من القبو. متى استطاعت أن تطبخ؟ لكن "ناتاشا" تزعم أنها تطبخ جيداً وتقضى أوقاتاً طيبة فى المطبخ مع البهارات وأدخنة الطبخ. قبل سنوات عرضتها هذه الهواية لخطر زيادة الوزن.

« من حسن الحظ أننى تخلصت من الوزن الزائد بسرعة ».

سألت "ماريانا" وهى تعد نفسها أن تفتح فى حياتها صفحة جديدة: « كيف استطعت؟».

قالت" ناتاشا": « ممارسة الحب تحرق السعرات الحرارية » لكن لأول مرة شعرت "ماريانا" أنها لا تعنى ما تقول، وأنها تحاول أن تكرر نفسها كى تبقى على الصورة التى كانت عليها من قبل، وكانت تصدر هذا الانطباع عن قصد.

شموع ومصابيح فى كل مكان ترتعش، قنديل ضخم على شكل شجرة البونساى.

فى وقت تقديم الطعام كان الجميع يجرى فى الوقت نفسه. عاد "حكم" لمزاجه الطبيعى، كان مرن الحركة، وجد طريقة يمشى بها ويخفى نقطة ضعفه.

بدا "صابات" سعيداً وسمع فى لحظة ما صوته كأنما كان يتحدث فى هاتفه النقال بلغته الأصلية، ربما مع أحد أقاربه. بقت "ماريانا" أكثر أفراد الصحبة ارتباكا. «معلمتنا» كما كان يناديها الفتيان اللذان ينتظران دورهما فى التعلم...

كانت "ماريانا" تشرب وتحاول التوفيق بين الماضى الذى كان يتشكل من قصص "ماريانا" مع حاضرها. مع كل هذا الذى سمعته وفعلته، ما أهمية أن تفهم "ناتاشا" معاناتها من أجل "صابات"؟.

فى الوقت الذى كانت حياة "ناتاشا" مليئة بالرجال، كم أن حياتها ضيقة ومحكمة التفاصيل، فلديها عذابها أن تحصل على رجل واحد، هذا ما تفعله النساء من مئات السنين فى كل أنحاء العالم.

كبرت الصحبة - لم تسمح قط "ناتاشا" لنفسها بالعزلة الاجتماعية، كما قالت أكثر من مرة وهى تثرثر بتفاخر.

"جاك" المتعب الذى جاء من المطار لم يأتِ وحيداً. جاء بصحبة شاب طويل ذى شعر كستنائى يميل إلى السواد ومتدرج بمساعدة زيت

خاص. ربما كان فى عمر "ماريانا"، كان يبدو أصغر من سنه على أية حال. عندما بدأ التعارف، لم يبدُ على "رفيق" أى انبهار أو اندهاش من باقى التعداد الذكورى فى المنزل. بدا وكأنه يعرف الحالة كلها. كان أسلوبه به شىء من التعالى، ربما يرجع هذا إلى أنه درس الفلسفة فى جامعة تونس وحصل على الدكتوراه من باريس.

"جاك" الذى عرفته من النصوص المكتوبة صار أخيراً كائناً حياً فى عيون "ماريانا"، كثير الحركة إلى درجة العصبية وكان شعره مصبوغاً، كان يبتلع بصعوبة، اختنق من النبيذ حين أراد أن يستبق البلع بالكلام عن كل الأشياء. من البداية كان متحفظاً بعض الشىء من حضور "ماريانا" وكأنه لم يكن ينتظر تلك المبادرة من صديقتها. لهذا، بادر فى أثناء حديثه بسؤالها عما تريد أن تفعله بكتاب حياتها.

« هذه ليست سيرة ذاتية يا عزيزى. إن الأمر يتحدث عن عشاقى الذين أريد أن أحصى عددهم...».

« وهل يمكن إحصاء عددهم ؟» اختنق من رشفة النبيذ على حين كان يسكب الكأس الثالثة.

« وهل فى النهاية ستحيلين "ماريانا" للمعاش؟».

قاطعته ولفظت اسمه بلكنة فرنسية: « كيف كان المؤتمر يا"جاك"؟»

« كادوا أن يقتلونى. تلقيت مكالمات تهديدية كالعادة، وبالطبع لا ينتوون أن يدعونى فى مؤتمرات مماثلة ».

استغراب "ماريانا" يتطلب إيضاحًا: فعلى أى حال لديهم صديقة جديدة على الطاولة وعليهم أن يحرروها من أن وجودها هو مجرد تحصيل حاصل.

« ذهبت إلى المؤتمر السنوى الذى يعقد فى الإسكندرية عن الشاعر كفافيس » قال "جاك" بلغة يونانية فصيحة: « لست أسعى أن أكون باحثًا كفافيسيًا، لكن، بوصفى باحثًا فى تاريخ الفترة التى يتحدث عنها فى أعماله، الفترة التاريخية القديمة أعنى فهو يشير دائما إلى العالم القديم، لا أحتمل هذا الكم من هراء التحليلات الشعرية التى تحدث كل عام من باحثين لا يفقهون شيئًا ...».

تساءلت "ماريانا": « وهل هناك شىء آخر يمكن أن يقال أو يضاف للشاعر عمَّا سبق؟»، ولاحظت كم أن الموضوع لا يهم أى أحد من الرجال الثلاثة فى الصحبة. فيما عدا رابعهم، "رفيق" الذى كان يستمع بتأنٍ، محاولاً أن يحسن لغته اليونانية من خلال السمع.

قال "جاك" وهو يرفع كأسه: « هناك تقليعة... أن يخلعوا عن الشاعر مثليته. بالطبع حلفاؤهم فى هذه المحاولة هم بعض الأساتذة العرب المحافظين، هذا يحدث بمساعدة أستاذة يونانية لا يعلم أحد من أين أتت ولا ما علاقتها بالشاعر "كفافيس"... بالأخص إن كانت امرأة...».

« وما أهمية كونها امرأة؟ لا تنس أن التى ترجمت "كفافيس" للفرنسية هى "مارجريت جيوسينار"».

أجاب "جاك" بسخرية.: « ياليت كل المثقفات مثل جيوسينار...».

«سـألت مـاريانا، بنبرة لا تخلو من رفضـها لمنطقـه الذى يعـود للعصور الوسطى: «ما اسمها؟».

« حلو هذا النبيذ، أليس كذلك يا صابات؟ أشرب نخب عيونك الزرقاء».

« فيرونيك مانوليذو»

صاحت "ماريانا" وكأنـها شعرت بالدوار فور أن سمعت اسمها: « آه، يا إلهى!».

سأل الجميع فى صوت واحد: « هل تعرفينها؟ »؛ حتى أحمد الذى أصابه الضجر من الحديث رفع رأسه من على الطبق الذى كان أمامه – لم يكن يستخدم سكينا قط.

« كـانت تدرس لى فى قسم اليونانى الحديث. من سوء حظى بالطبع، وبسببها تأخرت فى أن أحصل على شهادتى. إنه لأمر عجيب أن تجد هذه المرأة خلف كل لجنة أدبية يتم تشكيلها، رغم تغيير الحكومات... وهى صغيرة السن بالنسبة للمناصب التى تتقلدها... ».

أضاف "جاك" مُصدراً زفيراً يدل على الضجر من الشخصية: « هى صغيرة فى العقل أيضاً ».

« هم لا يحاولون فقط أن ينفوا عن الشاعر الصفة المثلية ويضعونه فى "الطريق المستقيم" لكنهم أيضًا يحاولون إثبات أنه كان مسيحيًا مؤمنًا ومتدينًا وكان يضع قناع الإلحاد والوثنية كى ... ».

هنا بدأ "رفيق" فى الضحك. وبدأ يشرح لهم بالفرنسية أنه كانت له كلمة فى هذا المؤتمر ممثلاً لبلاده، وقال فيها إن أعمال الشاعر تثبت كم هى خاطئة وجهة النظر المسيحية عن المشاعر.

« ولا يسعكم إلا أن تعودوا للمتاحف والأعمال النحتية التى تمت فى العصر المسيحى عن التناسل والتزاوج...».

أخذ "جاك" يصفق بحرارة.

ثم التفت إليها هذا الشاب وقال: هل قرأت ياسيدتى أعمال الشاعر كاملة؟ أعنى كل قصائده وبالأخص تلك التى يتحدث فيها عن العالم اليونانى القديم وعن الفترة المسيحية البيزنطية؟ لأنك لو فعلت ستفهمين أى جانب كان يؤيد "كفافيس"؛ كان يقف دائمًا مع الجانب اليونانى، مع الروح اليونانية، تلك التى كانت هي حلقة الوصل الوحيدة مع الماضى. وكانت الضامن الوحيد للحضارة والثقافة القائمة بل وكانت تساعد المسيحيين والوثنيين أن يناضلوا من أجل البقاء فى بدايات الفترة البيزنطية متمسكين بالأساطير اليونانية...».

كل هذا قاله "رفيق"! وحاز على تصفيق حاد من غالبية الحضور، حتى من جماعة الشعراء المثليين العالمية، هؤلاء المهاويس الذين يقرؤون "كفافيس" ويظنون أنه يسير معهم فى مسيراتهم فى "سان فرانسيسكو".

سعدت "ناتاشا" بسماع هذا، كانت تسمع بانتباه شديد، هذه هى "ناتاشا"، عندما لا تنام مع الرجال، تتسلى مع المثقفين. وعندما سكت الجميع، قامت ورفعت كأسها وقالت:

« لماذا حطمتم تماثيلهم،

لماذا أخرجتموهم من معابدهم،

لم تمت الآلهة،

ليس هكذا تموت الآلهة».

صفق الجميع ثم استرخوا بعد إلقاء المضيفة، بعد ذلك مروا إلى الصالون حيث "الليكير والنرجيلة" التى قد أعدها "أحمد" لهم بالفعل. لم يكف "أحمد" عن ملاحظة المعلمة وصابات، بالطبع لم يتح لهما وقت كى يتحدثا - ولماذا عليهما أن يفعلا؟ حتى إن بلديهما المتجاورين ليس لديهما رصيد جيد فى هذا الشأن...

جلس الغالبية على الأرض، تمددوا على الوسائد، خلعت "ناتاشا" كعبيها العاليين وراحت تهز قدميها فى الهواء، عارضة أظافرها الملونة مثل باقة من اللؤلؤ الأحمر. وضع أحدهم الموسيقى الهادئة وشعرت "ماريانا" بيد تربت بلطف على رقبتها التى أصبحت أكثر استرخاء عن ذى قبل.

تذكرت المشهد مع يد "صابات" وهى تمر على جسدها لكن هذه اليد لم تكن اليد نفسها. بدهشة رأت "أحمد" الذى كان يقف بجوارها ويربت على يدها اليسرى، بينما باليمنى كان يمسك بمبسم النرجيلة ويرشف أنفاسًا. صوت خرير الماء فى القاعدة الزجاجية للنرجيلة يذكرها بتلك الكرات الزجاجية التى عندما تحركها تتحرك فيها حبات الثلج. حبات الثلج نفسها كانت تسقط حولها عندما وصل إلى فمها فم النرجيلة حتى تدخن. مع الرشفة الثانية كانت تدور مع سحب الدخان، رأسها راح يهتز ويرقص... وضعت رأسها على كتف... كتف من؟ وراحت فى النوم للحظات...

... وعندما فتحت عينيها، شعرت بشيء من الخجل، كانت "ناتاشا" تتحدث عن معرض فن تشكيلى جماعى يجهزون له من أجل بعض الأصدقاء.

قال "جاك". يعرف «"تيتو" جيداً أعمال اثنين من الفنانين» « قريبًا سيتحدد المكان، لا تنسَ أننا ننتظر الفنانين أيضًا. لبنان ليست بالضبط بلداً مجاوراً...».

علقت "ناتاشا" بنبرة متأملة به رقة الذكرى الشاحبة: «بل هى بلدة مجاورة».

كان "صابات" يدخن وارتسم على وجهه تعبير غامض.

وقالت "ناتاشا" بشكل مفاجئ: « منَ الآن سيتولى "صابات" أعمالاً أخرى غير الاعتناء بالحديقة. سيكون مسؤولاً عن البيت، سيكون مدير المنزل».

بدا عليه أنه يعرف مهام عمله الجديد، وهو أمر يعنى بدوره أن لن تكون له حاجة أن يحتفظ بالبيت الذى كان يستأجره مع ثلاثة من أصدقائه.

« ما الذى يشغلك يا "ماريانا"؟ ».

« لا شىء، يبدو أنه تأثير النبيذ الأحمر ».

بالطبع لم يعجبها إضافة مهام جديدة لأعمال الفتى الفارسى. كانت تفضل أن تراه فى الدرس مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع وبعدها تعلم أنه فى مكان بعيد عنها. لكن الآن تعرف أن الدروس لن تكون كما كانت من قبل – هذا إذا كانت ستتم – تعلم أن قلقها بخصوص أين سيكون الفارسى ماهو إلا محض إحساس بالغيرة لم تشعر به منذ زمن.

وهذا الإحساس بالغيرة الذى ينمو كاد يصيبها بالإغماء عندما رأت "ناتاشا" الجميع سكارى وعرضت عليهم أن يقضوا الليلة فى البيت. رفضت "ماريانا" بأدب، لم يكن من اللائق أن تبدى تأقلمًا بهذه السرعة فى مكان جديد عليها. أصرت على الرحيل، كان الوقت متأخرًا ليلاً، لكنه لم يكن لديها مانع أن تبقى. حقًا ولمَ لا؟ لكن الآن، حتى وإن غيرت "ماريانا"، رأيها لم يكن أيضًا من اللائق أن تبوح به. وهكذا عندما أوصلوها حتى الباب، كانت تتمنى أن ينفتح الشارع ويبتلعها.

الجزء الثالث

المستشرقون

(١)

أرخى "فاسيليس" كتفيه وترك عينيه تسبحان خارج الشقة، أسفل أسوار الشرفة الحديدية، راح يراقب المنظر الذى فى كل مرة يتطلع إليه يجده اختلف أمام عينيه.

لماذا يصر البعض أن يحرموه من طبيعة المكان؟ عندما اشترى هذه الشقة، كانت عيناه لا تقع إلا على جزء من معبد "الأكروبول"، وعلى المرصد وفى العمق كانت المدينة، كان الأمر مختلفاً. بالأخص فى الناحية الغربية حيث الجبل العارى الذى أصبحت أطراف الأحياء التى بنيت عليه جزءاً من حافته، على حين ناحية البحر لم يكن هناك مايشى بأن فى مكان ما خلف هذه الكتل الإسمنتية توجد ثمة بداية للبحر.

اختنق الأفق من فرط اتساعه أم أنه لم يعد له مكان فى المدينة حيث اختار أن يعيش سنواته الأخيرة؟ ولكن، هنا، أمام القصر القديم الذى لا يعلم كيف نجا من الزلازل، كان يطل على البحر، على الأقل الشرفات الأمامية. ثلاثة طوابق، هكذا يجب أن يكون علو البنايات فى المدينة، ليتسع المجال لتأمل حيف التلال والبحر.

جفـر القلم على ورق اللوحة. جسـد آخر قطع المدخل فى المشـهد. جسد آخر معذب يتحول إلى أشلاء، جسد آخر ينحنى، يركع، يتخذ من الموت موقفًا، ويتخذ من الإهانة فكرة ...

دقـة جرس طويلة قـاطعتـه، عـرف منه أنهـا "رانيـا"، التى كـان بمقدورها أن تصرخ فى الشارع من أجل أن يسمعـها، حتى وإن كان صـوت المذياع على أعلى درجة. قبل أن يفـتح لها الباب لتدخل، ألقى نظرة على اللوحة المغطاة بورق أبيض. لم يحتج أن يشرح لها كثيرًا، لم يكن من خصـاله أن يفسـر أعمـالـه، كمـا أن حـالة "رانيـا" فى الفتـرة الأخيرة لم تحتمل الكثير من التحليل والشروحات. الوقت الذى استغرقته "رانيـا" لتـصـعـد من الدور الأول حـتى الطابق الثـالث كـافـيًا كى تلتـقط أنفاسها متطلعة نحـو البيت المقابل المهجور والشجـرة التى نمت داخله بشكل اخترق سقفه. فى الداخل عبر إحـدى شـرفات المنزل رأت بعض الأكراد يصنعـون الطعام على موقـد مرتجل نصبوه فى الشـرفـة. أخفت منظاره المكبر.

دخلت "رانيـا" بعد أن وضـعت قبلة سريعـة على فمـه: « آه ياربى، بصقتُ دمـاء حتى أصل إلى هنا، أرهقونا فى التصـوير. استيقظت فى الثامنة صباحًا، وهل تعلم متى وصلت إلى موقع التصوير؟ فى التاسعة والنصف، لقد فـاض بى من هذه المنطقـة النائية، ألم يجـدوا مكانًا آخـر يقيمون فيه الأستوديو هؤلاء الملاعين... ثلاثة طوابق تحت الأرض، وكأنه

متر، وتسقط الأضواء عليك لتحرق رأسك في النهاية... قل هل هناك جديد، آه يا إلهي...».

. بالتأكيد لن يقول لها "فاسيليس" أي خبر جديد، لن يبوح لها بما يدور في رأسه من أفكار. جلسا على الأريكة، أشعل سيجارة، أطفأها نادماً ونظر لها برزانة علّها تهدأ.

« اسمع الآن الأسوأ يا"فاسيلي"، هؤلاء المدمنون الذين حدثتك عنهم وجدتهم أمام المنزل، كنت أريد أن أدخل من باب البناية ولم يتحركوا من على المصطبة، كانوا متكئين على بعضهم ككومة من الصعاليك، لكن كيف تركل كائنات على شفا الموت ليرحلوا من أمامك؟ صرخت، لكنهم لم يسمعوا، من يدري ماذا يجري في رؤوسهم بحق الجحيم، ثم عدت إلى محل الخردوات وقلت للبائع، هل بإمكانك أن تأتي معي لتساعدني أدخل بيتي. جاء معي مشكوراً هذا الفتى الطيب الأجنبي، ووقف أمامهم كدرع واقٍ حتى أدخل البيت، أرسلت له قبلة في الهواء شاكرة إياه، نعم امرأة في عمري فعلت هذا مع فتى في العشرين، وحينها تذكرت أن ابني كاد أن يصل لهذه السن، دخلت المصعد وبكيت من أجل ولدي. هل أتحدث كثيراً يا "فاسيلي"، قل، كيف حالك؟، مر زمن ولم نتقابل، ماذا ترسم الآن؟».

قاطعها: « ما رأيك أن نذهب لنشرب كوباً من البيرة؟».

أراد أن يخرج من صندوقه قليلاً، لكنها فكرت أن تتصل بصديقتها "ناتاشا" التى تسكن بالقرب من هنا. لم ترها منذ وقت طويل، لم تعد علاقتهما كما كانت فى السابق، كانت "رانيا" قادرة دائمًا أن تعطى سببًا عندما لا تستطيع أن تقابل أحدًا. لكنها كانت تبحث عنها منذ أيام...

« لابد أنها عادت إلى هنا. فى هذا الوقت من السنة غالبًا ما تعود إلى بيتها. انتظر...».

طلبت رقمًا من هاتف "فاسيليس" الأرضى.

« أريد أن أتحدث إلى "ناتاشا"، هل تعطينى إياها من فضلك؟».

قالت بعصبية وهى تنتظر على سماعة الهاتف. عندما ردت صديقتها من الطرف الآخر للهاتف، ردت الحياة فيها. « تخيلت أنك هنا يا "ناتاشا"، نعم، أنا بخير، فى دوامتى الحياتية... أنا هنا عند أحد أصدقائى فى الحى نفسه الذى تسكنين فيه ».

شرحت "ناتاشا" لفاسيليس أنه يسكن بعدها بشارعين. لكنهما اتفقتا أن تتقابلا فى المقهى المصرى.

« إلى أن تصل حتى سماعة الهاتف، كان علىّ أن أتحدث مع كل أجناس المسلمين ! يالها من امرأة، يا ربى ! أخيراً ستتعرف على الشخص الذى غيّر حياتى تماماً» قالت "رانيا" لفاسيليس وأكدت بنبرة ساخرة على كلمة «غيّر».

« لم تكملى لى أبداً قصتها...».

« هذه القصص ليست للرجال، رغم أن المئات منهم متورطون فى هذه القصص...».

« كما تشائين يا رانيا...».

قالت له، وهى تعدل شعرها: « شىء غريب بك» فى كل مرة تشرع فى الخروج كانت تأخذ وضع امرأة خارجة على منصة عرض الأزياء وكانت تقول وتعنى ماتقول أنه لا يعقل لامرأة تحترم نفسها أن تسير مثل بنت صغيرة فى السوبر ماركت، ثم تشرح أن الاهتزاز أو الحركة فى أثناء السير يمكن أن يكونا بسبب عدم استواء الشارع أو أن الشارع به الكثير من الحفر.

ابتاعا سجائر من محل الخردوات فى شارع "سيرون".

مرا من أمام مسرح سينما "البورنو" (سابقًا) والذى اشترته مطربة شهيرة لتفتتحه صالة موسيقى علقت "رانيا:" (« ليست بالصوت العظيم»). تذكر "فاسيليس" الأفيشات الإباحية الملونة التى كانت تلصق على مدخل السينما، وكيف كان ينبهر كل مرة عندما يبدلونها قبل كل عرض جديد. كان يتابع عملية هدم السينما، فمنذ شهرين تحولت الجدران إلى أطلال راح يصور كل مراحل الهدم. انتهى. استوى المبنى بالأرض، وتحول المكان إلى بوتقة تخفى أطلال المدينة القديمة.

صـــانـع الأطر كـــان على حق فى أن يبكى على الحى سنين طفولته.المنطقة تتحول إلى مدينة ملاهى، كل اصطبل أو مخزن قديم تحول إلى ملهى ليلى رخيص أو بار. فى النهاية كل من نزحوا إلى هنا جاؤوا للسبب نفسه، فى البداية جاؤوا لأن الأراضى والبيوت القديمة كانت رخيصة الثمن، وبعد قليل بدأت الأسعار فى الارتفاع، ساعد على هذا مشاريع البنية الأساسية التى قصرت المسافات، وأيضًا الموضة التى أرادت للحى أن يتحول شيئًا فشيئًا إلي مكان للمرح.

أشعل "فاسيليس" أخيرًا سيجارة، فازت متلازمة الحرمان وهو يشاهد مخلفات البناء والإحلال والتجديد.

سألت "رانيا": «هل مازلت تنظر إليها؟» فقال: « إن هذا فقط ما يجب أن يشاهد فى المدينة، وبالأخص هنا حيث يبدو المكان كأنه نواة الأرض،فهو يغلى بالتغيير. بشكل أسرع من التفاتى بعينى نحو أى اتجاه...».

يا إلهى: « هل عرفت ما حدث لذورا؟ آه، هل تسمعنى؟ ».

بالطبع كان يسمعها، لكن كل مرة تفتح فمها تظن أن لا أحد يسمعها سوى المحلل النفسى. تم اتهامها مرات عديدة بأنها لا تستمع للآخرين، وهو أمر قريب من الحقيقة، لأن الناس يريدون أن يتكلموا دون أن يسمعوا، إلا إذا كانوا يسمعون مديحًا وأخبارًا سارة. حسنًا لكن هل

لها أن تكمل حديثها؟ اتجهت "ذورا" بالأمس نحو شمال اليونان، لإجراء مقابلة اختيار ممثلين، طلبها بعض المنتجين.

« أى منتجين ، تحدثى ولو مرة فى حياتك بتسلسل منطقى! ».

« أى منتجين، منتجين الطماطم طلبوا"ذورا"؟ منتجين سينما ، تخيل "ذورا" جالسة على مكتب ويدق الهاتف، ويقول لها الصوت نتصل من مكتب تشغيل ممثلين يعمل لأجل منتج من "هوليوود"... علمت هذا بالأمس فى أثناء التصوير».

كان المساء قد حل عندما دخلوا المقهى المصرى ولم يمتلئ بعدُ بالزبائن. كان الشارع فى الخارج مزدحمًا بالناس، الحافلات تمر فى طريقها لوسط المدينة، وكان وقت انتهاء الدراسة بالمدرسة الابتدائية القريبة وأصوات الأطفال ملأت المكان ضجيجًا ، أصوات من جنسيات مختلفة، حيث إن الأطفال مهما لعبوا ومرحوا باليونانية، عندما يتشاجرون ويغضبون، كل يغضب بلغته الأم.

طلب "فاسيليس" بيرة، للحظة فكر أن الوقت مبكر كى يطلب النرجيلة.رائحة القهوة دغدغت حاسة الشم لديه. كان يحب هذا المقهى فكان حيويًا جدًا رغم كونه مكانًا عاديًا ، به شىء يشبه المقاهى القديمة فى "ثيسالونيكى"، الناس صوتهم خفيض، مهذبون، كانوا يسعدون عندما تفضل أن تشاركهم طاولاتهم.

استرخت "رانيا" وصمتت عن الكلام.

شردت وهى تراقب الناس فى الخارج، زوجة المصرى التى كانت تعمل فى المطبخ، وسال لعابها من التفكير أن تطلب طبقًا من الفلافل التى يشتهر بها المكان.

صرخت "رانيا" فجأة: « ناتاشا! ».

لم تكن "ناتاشا" وحدها، كانت معها فتاة ورجلان.

« رانيا، حبيبتى رانيا!».

أخذا يتعانقان ويتبادلان القُبَل فى تأثر شديد.

بالغا قليلاً عندما ذرفتا حبات من الدموع. على حين بدأت البقية فى الضحك دون توقف، ودون أن ينتظروا من المرأتين أن يقوموا بالتعارف، بدؤوا بتعريف أنفسهم.

« أنا "ماريانا"، من هنا "جاك" ورَفيق ».

« وأنا "فاسيليس". فرصة سعيدة».

« هل يجلسون جميعًا على طاولة واحدة؟».

«هناك متسع دائمًا للطيبين».

قالت "رانيا" التى لم تفارق "ناتاشا" ولا لحظة من جوارها: « إذن لنجلس على طاولتين». « أفكر بك منذ الأمس، جاءنى شعور قوى أنك هنا، لن تهربى منى أبدًا... ثم اتصلت بكِ...».

« جئت منذ أيام فقط. مازلت أرتب أمورى بالمنزل. قدر ما تستطيع امرأة أن تفعل، تعلمين عندما لا تقيمين فى البيت بشكل دائم...».

« أتخيل يا"ناتاشا"، لديك ضيوف».

« الأمور كما تعلمين. الناس للناس...».

نظرت "ناتاشا" إلى بقية الصحبة.« كنت أحكى لماريانا عن رحلاتنا. أعرفك على "ماريانا" هى المعلمة فى بيتنا».

قالت "رانيا": « أدب وأديب».

« لم تنس العلم...».

«... الذى تعلمته معك...».

ثم ضحكا.

سألتها: « أين تعملين الآن يا "رانيا"؟».

«أعمل فى بعض المسلسلات البائسة، أدواراً ثالثة فى مسلسلات سيئة. لم يكن لدى اختيار. لم تتعرفى على "فاسيليس"؟ أنتم جيران. قالت "رانيا" وانحنت لتمنحه قبلة قوية: "فاسيليس" يعمل بالإخراج من أجل العيش، ويعمل بالرسم من أجل روحه. أليس كذلك؟».

« ثيسالونيكى. تنحدر جذوره من القسطنطينية. لديه روح زكية».

قال "فاسيليس" عندما رأى أنها بدأت فى الثرثرة من جديد : «اهدئى يارانيا» . كان لديه إحساس أنه رأى "ناتاشا" من قبل فى مكان ما أو أنهما تقابلا قبل ذلك، ربما فهما جيران.

تبادلا معلومات عن البيوت والحى وعن حالة البناء والإحلال والتجديد فى المنطقة.

قالت "ناتاشا" بعصبية: « يطلبون منى البيت باستمرار، بالطبع لن أبيعه فى حياتى، لكنهم لا يعرفون أن هناك مقبرة هلينستية وجدت بجوار البيت بالضبط». وأكملت:« اليونانيون المعاصرون، ياللخسارة، كم من الفرص أضاعوا ...».

كان "رفيق" يتحدث مع "جاك". كانت "ماريانا" تشعر أنها خارج بيئتها، تجاوزت حدودها وواجباتها .كلما حاولت أن تدخل فى الحوار كان يعيقها شىء، إما أن دورها كان قد حُجم، وإما أنهم كانوا يغيرون دومًا لغة النقاش، وكان هذا مرهقًا جداً. لأن "جاك" كان يتحدث العربية، وكان يفضل أن يمارس هذه اللغة بدلاً من أن يترك مساحة لمحاوريه أن يمارسوا لغته.

وقف "رفيق" فجأة واتجه نحو عمق المكان بجوار البار عند التلفاز. كان بعض الشباب يتابعون نشرة الأخبار التى كانت تصف هجومًا وانفجارات أخرى فى العراق... دخان، صافرات إنذار، وجوه تصرخ من المأساة.

عاد قلقًا إلى صحبته وبدأ يشرب الشاى. سألته "ناتاشا" عمّا يحدث. حاولت أن تهدئ من روعه: « سنشاهد كل شىء على الفضائيات فى المساء».

هدأت الأجواء قليلاً. عبأ الدخان المقهى، صوت "أم كلثوم" يصدح منذ فترة، مقدمة موسيقية لمدة عشر دقائق ولم تبدأ بعدُ فى الغناء. حتى تشبع الآذن من الطرب.

سألت "ناتاشا" "فاسيليس" باهتمام عمّا يرسم فأجابها بمرح: « الكثير والكثير من الموضوعات، أعمالى السابقة كانت قراءة فى "جان جينيه" و"كافكا". أما الأخيرة...». تردد، فهى لم تنتهِ بعد، فكيف يتحدث عنها.

صرخت "رانيا": « ولا يظهرها لأى أحد!»

« أنت مخطئ يا "فاسيلى"، لماذا؟».

« أعرضها على أصدقائى، لكنها ليست لوحات للجاليرى والأوساط الفنية».

«لمَ لا تدعنا نراها يا "فاسيليس"؟».

« من الممكن خلال ثلاثة أسابيع، عندما تكتمل الحلقة الجديدة من اللوحات، حينها يمكن أن أعرضها عليكم...».

« بإمكان "تيتو" أن...».

سألت "رانيا" بقلق: « هل "تيتو" هنا؟».

أجابت "ناتاشا" بتردد. « نعم....، إنه منهك كثيراً فى الفترة الأخيرة. يقيم فى فندق فى "بيريا" بالقرب من الميناء والجمارك يحاول أن يرتاح قليلاً. يقول إن صحبتى ترهقه أحيانًا. وإننى أصل به إلى آخر حدود احتماله...».

هزت "رانيا" رأسها وبدأت تحك طلاء أظافرها.

قالت "رانيا": « حبيبتى العزى...» ولاحظت رؤوسًا تلتفت نحوها متسائلة: « أنت فريدة من نوعك ومتخصصة فى إنهاك من حولك...».

« رانيا... لسنا وحدنا».

« أصدقاؤك وعشاقك. وأنت تأخذين القوة من إجهادهم...».

تبادل كل من "ماريانا وفاسيليس نظرة سريعة دون قصد، من تلك النظرات التى تدل على التواصل الجيد بين شخصين منذ اللحظة الأول للقائهما. لم يزعجهما أنهما محوطان بأشخاص بينهم ذكريات كثيرة مشتركة، كما أن بين هذه الصحبة هناك من هم أكثر شبابًا، مثل "رفيق"، وأن إحساسًا ما عميقًا يوحى بأن هناك أشياء كثيرة سوف تأتى في طريقهما لتقرب بينهما.

فى هذه اللحظة، مثل طيف عابر، نظرت "ماريانا" إلى "رفيق" مرة أخرى على حين كانت تنظر لرواسب شراب السحلب. ثمة شىء معتم فى أفق توقعاتها فيما يتعلق بهذا الإنسان. ربما غروره، أو أسلوبه الانعزالى بعض الشىء، لهذا قررت هى على الفور أن تتجاوزه.

(٢)

لم يستطع أن يشرح له، كان يريده عاريًا فى أوضاع مختلفة، ملقى على الأرض ومقيد بسلاسل وحبال تخيلية، مهين تمامًا. أعطاه سلكًا رقيقًا وتوسل إليه أن يدعه يربطه بكل شكل وتشكيل ممكن. كيف يمكن أن يشرح له أن الموضوع من المفترض أن يكون فى معسكر حربى، فى زنزانة موت، حيث الرجال، الذكور يتجمعون ويدفعون ثمن التخيلات المريضة للقوى العظمى.

كان الموضوع فتًى قويًا، ليس طويلاً بالضرورة، لكنه مجروح ومخدوش بشكل وحشى. كان يقابله يوميًا أمام المنزل المهدوم، بناية تتبع الطراز الكلاسيكى الجديد لكنها فى حالة رثة فليس بها أى شىء كلاسيكى ولا جديد. كان يراه كيف يتسلل داخله، حاملاً زجاجة مياه كبيرة، كيف يمكن أن ينام هؤلاء الناس فى هذا المكان، شباب صغار بين الجدران المهدمة، يقضون الليل بلا كهرباء ولا نوافذ، وزادهم الوحيد أجسادهم وأرواحهم.

يدخلون ويخرجون مثل قطط الشوارع المتوحشة، ينتابهم الرعب فى كل مرة تمر سيارة الشرطة، أو عندما يتوقف بعض المارة فى الخارج يتحدثون.

اقترب منه "فاسيليس" ذات يوم، قال له إن لديه عملاً، كان يعرف أنهم يذهبون ويقفون منتظرين على نواصى الطرق فى مناطق متفرقة من المدينة ينتظرون أى عمل أو أجرة يوم، جالسين على ركب مثنية، ربما هذا الوضع كان يريحهم كثيراً، فلم يكن لديهم أى فائض من الدهون يمنعهم من أن يبقوا هكذا لفترة طويلة. وإذا مر أى رئيس عمال بشاحنة كانوا يتزاحمون وينحشرون على سطح الشاحنة، مختبئين تحت مظلة متهرئة، ويذهب بهم إلى أحياء فى "أثينا" من أجل أجر يومى.

قَبِل "دوران". فى البداية جعله ينظف التراس، يلقى بالنباتات التى تلفت من سقوط الندى المثلج فى الشتاء الماضي.كان "دوران" يرفع الأصص الضخمة الثقيلة كما لو كانت حجارة فى الشارع ويلقى بها بجوار موقع لبناء يحاول فيه بعض المعماريين أن يساهموا فى تجديد إصلاح عمارة المنطقة حتى إنهم يحاولون هنا أن يرفعوا مبنى ذا ثلاثة طوابق كأنه فى فيلم من العالم الثالث.

صرخ أحدهم : « لا تلقها هنا...» واستخدم لفظا خارجًا، إلا أن "دوران" كان معتاداً على اللغة القاسية، كان يصعب عليه أن يفهم الكلمات المهذبة وطيبة الناس.

يحاول "فاسيليس" الآن أن يشرح له الأوضاع، ربما كانت هذه الأوضاع تصعب على شاب فى العشرين كثير الحركة سار مئات الأميال ليل نهار، من الصعب أن تطلب منه طلبًا مثل «أريدك ثابتًا بلا حركة لبضع ساعات» كان هذا اختبارًا حقيقيًا. لكن، إذا خرج شيء من العذاب من هذا سيجسده "فاسيليس" فى اختباره الإبداعى – لن يدعه يظهر كأنه طريقة للثبات أو للشلل.

من الواضح أن "دوران" لم يكن لديه الوعى أن يفهم ماذا يجسد بالضبط.كان ينحنى أحيانًا، وأحيانًا أخرى يجلس على ركبتيه، يرتدى حزامًا رياضيًا واقيًا أعطاه إياه "فاسيليس" (كيف شعر بالحر عندما دخل إلى هذا المتجر الذى يبيع ملابس داخلية حديثة وغريبة) وكان ينتظر بثبات. بين الرسم والتصاميم سيسأله "فاسيليس" أشياء عن بلاده – أى وطن؟ هذا الشتات، وطن مجزأ بين أربعة بلاد لا تريده؟ هل كان هذا الوطن شيئًا ثمينًا لهذه الدرجة حتى ينقسم بين أربعة شعوب؟.

لم يكن باستطاعته أن يعطى صورة كاملة أو تعبيرًا واضحًا لكلمة «وطن». كان شعب قد قُسم على أربع، حيث كل منهم كان يتحدث لغته فى حياته الخاصة ويجبرونهم أن يتقاتلوا فيما بينهم حتى لا يتحدوا أبدًا. رغم كل هذا، الأكراد بقوا دائمًا شعبًا عزيزًا، بدائيون لكن صامدون.

فى هذه اللحظة كان "دوران" مستلقيًا على الأرض، فى وضع معقد ومهين قد أخرجه "فاسيليس" الذى كان يأخذ الإلهام ليس فقط من هذا

الوضع لكن من الأذى الذى ارتوى به جسد "دوران". فى أعماله السابقة التى كان موضوعها مستقى من أبطال "جان جينيه"، لجأ إلى ذاكرة الجسد وقوة الكلمة عند الكاتب. لكن ماذا عن هذه الحالة؟.

« قرية... العراق... أمى، ثلاث بنات صغار، أخوات... جاء عمى وقال لى... اهربوا... من هنا... جاء الجيش بالبلدوزرات... تعرف ماهى البلدوزرات؟. جريت... تعالى يا أمى... أخذت معى بنتا واحدة... الحر... القيظ...

الحر قاسٍ فى العراق... أمى لم ترحل... أبى مات... بام... صدام حسين... قتل أبى...

فى الليل، نمنا أنا وأختى ... بعيداً. جاءت البلدوزارات إلى القرية... كل القرية... تراب... تراب. القرية... أمى... البنات... أختى... كل شىء صار ترابًا... لم يبق شىء...

فى الصباح، تعالى يا أختى الصغيرة، هيا بنا! لم تكن هناك... اختفت... لترى أمى... ذهبت أنا... على الأقدام... حتى تركيا... كل تركيا... أقدام... بحر، أقدام.... اليونان... مركب... أقدام... »

توقف ليصنعا القهوة التركية، وحاول أن يجد مجلد أطلس الجغرافى، ربما يستطيع أن يجد القرية التى تحدث عنها "دوران". لو كان قد تزوج فى سن "دوران" لـ كان من الممكن أن يكون لديه ولد فى عمر دوران. كان سيكون لديه عائلة، سيترك شيئًا خلفه. راح يتساءل، ما

الذى بقى من عائلته فى "ثيسالونيكى"، أخت متزوجة وليس لديها أولاد، والداه المسنان اقتلعا من مدينتهما الأم (استانبول) قبل سنوات طويلة حتى إنهما نسياها تمامًا. "دوران" فقد عائلته كاملة، تُرى ماذا سيترك خلفه؟.

اقترح أن يشربا القهوة وتطوع "دوران" أن يمسك بالإبريق فوق الشعلة. البن كان من مطحن لزوج من السوريين أمام صانع إطارات اللوحات الذى يتعامل معه "فاسيليس". بن لبنانى ثقيل، لايذوب فى الماء بسهولة فكان يخلف رواسب كثيفة.

كان "دوران" يدخن كثيراً. فى الاستراحة كان يرتدى قميصًا فضفاضًا ووقف فى الشرفة ينظر إلى البيوت فى الحى، وبالطبع على الناصية كان بيته. الآن من أعلى يستطيع أن يرى الفتحة الكبيرة فى السقف التى كأنها أثر سقوط قنبلة قبل سنوات، والعوارض المتعفنة المشتبكة مع فروع الشجرة.

« هناك أنام... أنا ... أنت ترانى ؟».

« نعم أراك، أراكم... إذا كنت تشعر بالبرد هناك، يمكنك أن تأتى وتقيم لدى... لدى غرفة صغيرة فى الخلف ».

« لا، شكرًا... أنا أريد صديق... فى البيت ثلاثة أصدقاء كلنا معًا... أحمد، عراقى... ذهب إلى بيت امرأة...».

سأل "فاسيليس" بفضول: « أى امرأة؟».

« امرأة ثرية جداً... يعمل...».

خرج إلى الشرفة ليشير له نحو اتجاه منزل "ناتاشا"؛ الآن يعلم لمن تكون هذه البوابة الجميلة، ومن تكون هذه المرأة الجذابة التى كانت تتحرك دائمًا بمرافقة، من أين كانت تأتى تلك الروائح المسكرة فى كل مرة يذهب عند ناصية ذلك الشارع. لو انتبه قليلاً، لكان قد فهم أن تلك المرأة التى تتجول مع الشباب... لكان لم يسئ فهمها، لكنها بأدائها وسلوكها كانت تعطى إيحاءات يُساء فهمها بسهولة.

حدثته "رانيا" عن كل هذا قبل زمن، لكنه عندما تعرف على "ناتاشا" عن قرب استطاع أن يصل الأمور ببعضها بشكل صحيح، أن يكمل المعلومات التى كان يعطيها له صانع إطارات اللوحات، عن سيدة محبة للفنون تأتى كل شتاء لبضعة أشهر فى بيتها ولديها علاقة ما بالجاليرى، وأصحاب "الجاليري"؛ كان يعرفهم من سنوات السيد "لامبروس"، كان لا يعرف فقط السيد "تيتو"، الذى كانوا يقولون عنه إنه كان يستطيع أن يرفع من شأن أى فنان والعكس.

هذا السيد "تيتو" الذى كان ينتظره "فاسيليس" كى يرى أعماله بعد ضغوط من "رانيا".

« هل تعرف أنت هذه السيدة؟».

قال له "دوران" بلغته اليونانية الضعيفة: إنه قابلها مرة أو مرتين فى الشارع، كان "أحمد" معها وشخص آخر، ربما كان عراقياً أيضاً. تحدثت معه بشكل لطيف ودعته إلى البيت، لكنه لم يشأ أن يذهب إلى هناك...

قال له "فاسيليس" وهو يتكئ على عوارض الشرفة الحديدية: « لماذا؟ إنه بيت جميل، هكذا سمعت».

كانت لغة "دوران" فقيرة بشكل محبط، لكن بعض الكلمات مع إشارات كثيرة فهم منها "فاسيليس" أنه لا يريد أن يعيش اليوم كله في بيت مغلق، مثل عبد من عبيد الحرم... قالها بتهكم.

(٣)

عندما غادر "دوران" بعد أن وضع أجرة يومه البسيطة فى جيبه ورافضًا أن يبقى أو يسكن عنده، لأنه كان يفضل أن يبقى مع أصدقائه (هؤلاء الذين كان يراهم "فاسيليس" بمنظاره المكبر)، خرج "فاسيليس" فى جولة فى الحى لينشط جسده قليلاً إذ كان منحنيًا طوال اليوم فوق لوحاته.

لم يكد ينحرف عند ناصية الشارع الضيق حتى رأى "ماريانا" تأتى نحوه مذعورة. كان يبدو عليها كأنها خرجت لتوها من مشاجرة، لم تكن منتبهة حتى إن سيارة تاكسى كادت تصدمها بعد أن مرت بجوارها تكاد تلمسها.

نادى عليها متحليًا بشجاعة تلك المرة التى تعارفا فيها: «ماريانا!».

أجابت باندهاش ولكن بارتياح فور أن رأته أمامها: «فاسيليس...».

قالت له إنها انتهت لتوها من الدرس مع تلميذها الفارسى، "صابات". شرحت له من يكون "صابات" وأن... شيئًا حدث... كان يصعب عليها شرحه. من جهة لم يكن عند "فاسيليس" أى رغبة ملحة أن تحكى له

عن حياتها الشخصية، لكن من جهة أخرى كان يرى أن ليس لديها أى أحد فى هذه اللحظة كى تنفجر وتنفس عن نفسها.

تذكر مشاجرته العنيفة مع "جوليا"، عندما كان يعيش فى "تيسالونيكى"، وجلس وحكى كل شىء لأول شخص وجده أمامه وكان يعرفه قليلاً جداً، مخرجة تدعى "صوفيا"، قابلها مرة وحيدة فى أحد العروض، حكى لها كل شىء بكل تفاصيله؛ جلسا سوياً ثلاث ساعات، وفى النهاية بكى فى حضنها فى أحد المقاهى الساحلية. بعد عشرة أشهر تقريباً سيعمد فى الكنيسة ابن صوفيا عندما طلقت من زوجها واستضافها هو فى "أثينا" حيث جاءت ومكثت ثلاثة أشهر فى بيته القديم فى منطقة "بلاكا"، وجلس هو ليسمع منها.

قالت "ماريان" بعد أن تأبطت ذراعه، مثل رجلين من الأصدقاء كما تصف الروايات الأوربية فى القرن التاسع عشر بشكل دقيق: « أين سنذهب؟». هدأت قليلاً« قالت بامتعاض إلى أى مكان، يكفى ألا يكون مقهى عربياً ...».

علق "فاسيليس" قائلاً: « هذا أمر صعب فى هذا المكان، لكن أظن أن لدى فكرة جيدة».

تذكر مقهى داخل مجمع "جازى"، كان يفتح أبوابه فى الصباح حيث إن هناك معرضاً كبيراً مازال موجوداً هناك ـ لكن لم يعد يتذكر

موضوعه. كان يزور "الجاليرى" فى هذا المكان الذى انتشرت حتى حوله ورش السيارات القديمة فى أى مكان شاغر وخرب.

هدأت "ماريانا" تماماً، لم يكن ثمة شىء جاد، موضوع عاطفى كما توقع. كانت الفتاة تغلى من الغضب، فوران نفسى شديد. كان المكان هادئًا فى وقت الظهيرة، المدخنة العالية ألقت بظلالها على المكان، المقهى كان خاويًا تقريبًا. راحت "ماريانا" تنظر إلى لوحات المعرض بعدم اكتراث، حيث إنها كانت تشعر أن حياتها هى ما يعرض الآن.

أشارت إلى مهامها الرئيسية فى قصر "ماريانا" وكيف بدأت مع "صابات".

« لم يكن لدى أى فضول أن أنام مع رجل مسلم» وفسرت « فأنا أعلم كيف يتعاملون مع النساء، لكن فى هذه الحالة، وعندما تراه فى بيئة....».

أضاف "فاسيليس". «... معدلة...».

« كما قلت. رأيته فى إطار حياتى أنا، ربما بعيون غربية، أعلم أن لكل منا جذوره، وهى أمر مغروس ومختف داخلنا، ثم قل لى، ماذا حدث لنا فى السنوات الأخيرة وأصابنا جميعًا الحنين للشرق؟. ولم أقل لك كيف أعانى فى عملى كمراجعة روايات عجيبة تحكى عن اليونانيات عندما كن يرتدين غطاء الوجه محبوسات فى قصور الحريم! ربما تكون موضة وسيمر وقتها، قالت... وها أنذا وقعت داخل واحد من تلك القصور...».

« ماريانا، لا تحاولى تنظير مشاعرك. أنت يعجبك "صابات" كرجل؟».

« نعم، لكن لأننى تعرفت عليه داخل هذا المكان».

أشعل "فاسيليس" سيجارة، ثم قال، لابد أن نتعرف على الآخرين فى مكان ما، وهذا جزء من جاذبية الأمر برمته.

قالت بعناد: «أغار».

«هذا أمر طبيعى يا "ماريانا"».

«لأن "صابات" صديق "ناتاشا" أيضًا».

« كل الذكور داخل هذا البيت هم أصدقاء "ناتاشا"، كلهم لها، فهى تأخذ من تريد... كيف أن هذا ممكن يا "فاسيليس"؟ ».

فكر فى الأمر قليلاً. وبدأ يتكلم عن الثقافات المختلفة.

« كما قالت لى "رانيا" إن "ناتاشا" نصف جذورها عربية... ».

« من الصعب علىّ أن أقبل أن أناقشها فى الأمر، دعك من أننى أشك أن تتسلى بالأمر كله؛ فكيف يكون ممكنًا ألا تغار، ألا تشعر بالتنافس وتصارع من أجله؟ لقد انتهت علاقتى مع "سبيروس" منذ فترة حتى الآن لم أتجاوز الأمر...».

« لا أدرى أى نموذج للمرأة أختار منكما...».

« لا يهم يا"فاسيليس"، ستختار "ناتاشا"... وفوق هذا ستحصر أعدادهم أيضاً».

لم تشأ أن تخوض فى أمر إحصاء العشاق، شعرت أنها سوف تتجاوز حدودها. لكنها شرحت أنها تتقاضى أجراً كى تكتب من أجل ناتاشا.

« أرى أن ما تقومين به من عمل مع "ناتاشا" شىء أكثر من شيق...».

« فى الواقع، أنا من يكتب، أما هى فتتصفح بعض المخطوطات والمدونات، تزوم وتهمهم مثل "بيثيا" عرافة "أبوللو"، ثم تدعنى أعمل على ما تقول، أن أطوره...».

« رائع. هذه هى الكتابة الحية. ومن أجل هذا فقط أدفع حياتى لأكون بينكما. إذن فأنت تكتبين...».

« كنت أكره مذكرات النساء...».

« هل هناك احتمال أن نقرأ معاً جزءاً منها يوماً ما؟».

رجته ألا يضعها أمام هذا الإغراء، لأنه من الممكن أن يكلفها عملها. غير أن الأمر كان أقرب للمستحيل أن يخرج ما يكتب خارج هذا المكان. كيف؟ هل تقوم بنسخها؟ وإذا رأتها "ناتاشا"؟ فى كل مرة تكتب فيها كانت "ناتاشا" تنتظر وتترقب مثل "سيربيروس" بجوارها حتى تغلق الكمبيوتر. بالطبع، كانت هناك استراحات، إذا أرادت...

« لا أريد أن أضغط عليكِ، لم يكن لائقًا فى الأساس أن أقترح عليكِ أمرًا كهذا ...».

شربا زجاجتين من البيرة. راحت "ماريانا" تفكر فى الأمر وتحسبه: دخل "صابات" غرفة نوم "ناتاشا" فى اللحظة التى غادرت هى فيه. لف جسمه بقطعة من القماش أو شىء كهذا . عارٍ ويرتدى صندلاً فى قدميه، « كمشهد من جدارية» (وهنا ضحك "فاسيليس" بنشوة فى داخله على حين كان يسمع "ماريانا")، ثم داخل غرفة "ناتاشا"... تحاشت أن تكمل التفاصيل.

« كم هو صعب أن تتشارك فى الناس يا "فاسيليس"...».

« لكنه فى الوقت نفسه أمر إنسانى جدًا، تصوري...».

ولحسن الحظ انفجرا ضاحكين.

(٤)

"رانيا" مرة أخرى: « وجدتهم ثانية أمام الباب، هيا، هيا يا أولاد، اللعنة، تشجعت وقلت لهم، لمَ لا تذهبون إلى أى حديقة عامة لتحقنوا أنفسكم، هنا تخرجون شرايينكم لتشم الهواء؟ أنا امرأة وحيدة، حرة، أى حرية... فى نظر القانون أنا لست جيدة بالشكل الكافى كى أحتفظ بابنى، اللعنة عليهم. هذه المرة تحرك أحدهم كى يجعلنى أمرٌ، أما الآخر فلم يتحرك شبراً واحداً. صعدت إلى شقتى غاضبة ووجدت "أناستاسيا" تنظف البيت مثل كل ثلاثاء، تقوم بالأعمال الثقيلة. حتى فى الفترات التى كنت فيها عاطلة عن العمل ولم يكن لدى مال، لم تكن لدى طاقة أن أقوم بأعمال النظافة فى البيت، الأرضيات والحمام. أغسل الأطباق فقط عندما تكون قليلة. أنا كبرت فى المحلات والمرح، لم أكن أبداً امرأة بيتوتية...

قلت لها سأتصل بالشرطة يا "أناستاسيا"، كفى إلى هذا الحد، طيلة حياتى وأنا أدعم حقوق الآخرين، لكن جاءت اللحظة التى أطالب فيها بحقوقى، رفعت السماعة لأتصل بقسم الشرطة. سمعت صوتًا رجاليًا يسألنى ماذا أريد، ثم مباشرة قال "انتظرى لحظة"، فانتظرت، سمعت

همهمة ثم سألته مرة أخرى " هل لديك وقت؟" فرد علىّ الأبله قائلاً " عفواً ياسَيدتى، فأنا متزوج". حينها قلت له بعصبية " عفواً أيها الــ.... " لم أتصل بك لنخرج فى موعد..." ثم بدأت أشرح له مشكلتى، على حين كنت أسمع صوت ضحكات مَن فى قسم الشرطة كله...».

ارتاحت "رانيا" وخرجت إلى الشرفة فور أن انتهت من المونولوج. بدأت تغنى بصوت خفيض، على حين كان "فاسيليس" فى الداخل يضع آخر الرتوش على الأجساد المعذبة. اللوحات المرسومة تخطى طولها خمسة أمتار، رائع، نفترض أنك تستطيع أن تعرض هذا فى مكان ما، وأنك قبلت فى مدينة محافظة وعفنة أن تعرض أعمالك. من سيعطيك المكان المناسب، من لديه التجهيزات اللازمة لعمل كهذا؟.

فى حقبة الثمانينيات، إذا اشترى أحد منزلاً قديماً لتعيد إصلاحه فى "كيراميكو" و"ميتاكسورغيو"، كان شيئًا أشبه بالأضحوكة. اثنان من الوسط الفنى فعلاً هذا وقيل عنهم فلسفات عجيبة: مخرج تجريبى ومصممة رقص يحولان المخازن إلى ورش فنية، يعملان جنبًا إلى جنب مع الورش والمصانع البدائية - أغلبها كانت أماكن للتخزين. بعد ذلك امتلأت المنطقة بالمطاعم والبارات، بل وبدأت الموضة فى التمدد أيضًا حتى الجانب الغربى من شارع "بيريوس".

عندما قرر أن يبحث عن منزل فى المنطقة، كان السبب الرئيسى السعر الرخيص للمبانى. وأيضًا لعب دوراً أن "كيراميكو" تحولت إلى منطقة للمسرح البديل، حيث كل عام يتم افتتاح مسرح صغير. لكن شقة

مساحتها مئة متر، بالكاد كان يملك ثمنها واقترض الباقى، لم يكن بمقدوره أن يعثر على شقة فى أى حى آخر فى المدينة، فهى قريبة من وسط المدينة ومن مكان عمله. بذل جهداً كبيراً حتى يعيد تشكيل الشقة، وكأنه كان يبنى أحد المشاهد. كل أصدقائه ومعارفه الذين عملوا معه فى المسرح دعموه وساعدوه بلا مقابل، وهكذا استطاع أن يحول هذه الشقة الرديئة التى تعود إلى حقبة السبعينيات إلى شقة أنيقة ومكان فنى. بعد خمس سنوات من سكنه هناك فى "كيراميكو"، بدأت أعمال البناء فى المنطقة بشكل جنونى، مستغلين مساحاتها الواسعة.

الناس فى المدن ينتمون إلى النوع المقلد.

كما كان يمتلئ مسرح "الإيروذيون" الأثرى المفتوح، وكذلك مسرح "تل الليكافيتوس" المكشوف بمشاهدين يصيبهم الضجر من نوعية العروض هناك، لكنهم كانوا يذهبون لأن هذا كان من الموضة، كذلك امتلأت منطقة "كيراميكو" – ازدحمت بالمدعين وأصبحت مكاناً لأنصاف المثقفين. بعض الناس كان يهجرون ازدحام "أثينا" حيث إن كل جيل له خصوصياته وتوجهاته. عاش "فاسيليس" سنوات فى العاصمة، لكن كون جذوره لا تنحدر من هنا لكن من "تيسالونيكى" كان يعطيه مساحة ليختبر وينتقد التغيرات. بغض النظر عن تنقلاته بين البيوت، لم يعش أبداً بعيداً عن أحياء "أثينا" القديمة. إما فى "إكسارخيا" أو "بلاكا" والآن فى "كيراميكو"، كان وسط المدينة الشعبى يحتفظ بلمعة جاذبية خاصة. باقى أجزاء العاصمة التى أضيفت للمدينة مع بعض ملايين من البشر لم تكن تعنى له شيئاً

ولهذا لم يشعر أبداً بالرغبة فى أن يسكن فى أحياء أخرى تم إضافتها لمدينة بلا حدود.

سألت "رانيا": « والآن، هل سيأتى نقاد الفن التشكيلى؟ ».

« لا توترينى يا "رانيا"، لا أدرى إذا كان يجب أن أدعوهم...».

« أخشى ألا ينصفوك؟ هل تعلم من هو "تيتو سافالى"؟ ياعزيزى، لقد اقتربت من الأربعين لديك صندرة مكتظة بالأعمال الفنية ثم تقول لى لا أدرى ماذا .... لمن ترسم؟ لنفسك؟ لروحك؟ هل هناك رسم للذات والروح؟ ألا ترى كيف آلت بى الأمور؟ هل يُعقل أن أمثل فى مسلسلات لأننى ألعب دور المجنونة التى تصرخ دوماً؟ ضع نفسك فى مكانى وفى سنى...».

ربما تكون محقة، فى السنوات الأخيرة كل الأعمال والاتفاقيات تحدث فى المحلات والبارات الشهيرة، بين المعارف والتعارفات والمشروبات. لا أحد يتحدث عن الفن ـ إذا سُمع أن فتاة أتت من أحد الورش أوالمعاهد فى نيويورك، هرول الجميع إليها واختطفوها للعمل. الأسماء نفسها تجدها لموسمين على التوالى على أفيشات العروض. هذا يحدث فى كل المجالات وليس فى مجال الإخراج فقط. حتى على المسارح التجريبية يعرضون نصوصاً لكتاب دراما لم تحتملهم بلادهم لسبب غير معلوم، من أجل نزوة مخرجة شابة، يهزون المشهد الفنى

لمدينة بأكملها – عروض مسرحية تقام فى مسارح مظلمة بلا مخارج للخطر، بلا تجهيزات وبلا جمهور فى النهاية.

« لقد سئمت منهم جميعًا، حتى عملى نفسه سئمته...لهذا سأعرض أعمالى على ذائع الصيت "تيتو"...».

اقتربت "رانيا" بحرص. يمكن أن تكون ثرثارة وصاحبة صوت مزعج أشبه بالصراخ، لكنها كانت تملك خصلة فريدة عندما تخفض من حدة صوتها الداخلى وتستمع بإنسانية. حينها تصبح صبورة، تشعر بما يشغل أصدقاءها وبأكثر آلامهم خصوصية.

« هناك شىء آخر يحدث ولا تقوله لى ».

« نعم... هو شىء غريب، خليط من الإشكاليات الفنية الإنسانية والجسية معًا...».

« دعك من الكلام الفضفاض وقل ماذا بك...».

« مللت من رسم معسكرات التعذيب وآلام الآخرين من بعيد. أشعر أنى أستغلهم...».

« حسنًا توقعت أن الأمر له علاقة بالمعتوهين الأكراد...».

ألقى بقلمه على الطاولة.

نادرًا ماكان يغضب "فاسيليس"، وعندما يحدث، كان لابد أن يكون غضبًا حقيقيًا. وهذه الوقحة الثرثارة لمَ قالت هذا ؟... حسنًا لم تكن

تحب المهاجرين، لا لم تكن عنصرية... لم تكن تحب طباعهم، لكن لديها خبرة سيئة. عندما فهمت أنها أساءت صنعًا، خرجت إلى الشرفة وانتظرت حتى يهدأ.

شردت فى البيوت القديمة والجديدة. وقعت عيناها على السقف المتهدم وفهمت من أين أتى غضب صديقها. ثلاثة فتيان كانوا يتجولون بين الأطلال يحاولون أن يشووا اللحم على شواية مرتجلة فى الفناء المليء بالنفايات. وولد صغير كان يلهو ويحتضن توأم كلاب الحى. كانت تتألم لبؤس الآخرين، لكن لم يكن بوسعها أن تفعل شيئًا لتصحح أو تحسن الأوضاع.

رأت « المعتوهين » يحاولون أن يطبخوا فوق نار باهتة، أحدهم أتى يحمل مياهًا فى دلو من الخارج، رأتهم ودودين هادئين، تخيلت بيوتهم المهدومة فى مكان ما عند بلاد مابين النهرين الثرية، أمهاتهم، إخوانهم، رأت فى لحظات مأساة منطقة جغرافية كاملة تبدأ من هنا وتذهب موجة موجة وتصل حتى الفرات. ماذا بوسعها أن تفعل لتخفف آلام الآخرين؟.

هى محظوظة لأنها تعيش فى كيبسيلى، فى شقة تركها لها "أكليس" عندما انفصلا، وأخذ منها الولد، الملعون... فتى ربما يكون فى عمر ابنها، التفت ونظر إليها، بدا لها وكأنه خجل من حالته البائسة إذ إنه أحنى رأسه مباشرة.

بدأت تبكى فى الشرفة، قليل من الشوق، وربما لأنها وجدت نفسها فى موقف الدفاع بعد أن أهانت صديقها، صار بكاؤها ندبا وصراخا، فخرج الجيران من الشرفات المجاورة يدمدمون « ماذا أصاب المرأة المسكينة؟».

جذبها "فاسيليس" إلى الداخل وقبل جبينها، على حين كانت تقول: « أريد ولدى »، وكانت تعنى ماتقوله، حيث إن "أنتونى" الصغير كان يعيش لسنوات مع أبيه بعيداً عنها فى "لندن"، « أريد ولدي» وجاء فى ذهنها عنوان فيلم درامى يونانى قديم فبدأت فى الضحك، وبدأت فى الصراخ ضاحكة كالمجانين، هدأت ـ لحسن الحظ ـ عندما دق جرس الباب فى هذه اللحظة وفى هذا البيت المتواضع فى "كيراميكو" دخلت « ربة نجم الصباح والمساء »، العزى.

(٥)

دخلت "ناتاشا" أولاً إلى الشقة وقبلت "فاسيليس" بود لكن بجرعة من المودة. بجوارها كان "تيتو" الطويل النحيل: قامت بالتعريف. تبعهم "جاك ورفيق". قامت "رانيا" بكل مايجب عمله عندما توجد صحبة تحاول أن تجد نقاطًا للتواصل فى مكان مغلق. فى الوقت نفسه كان "فاسيليس" علق أعماله فى غرفتين. فى الغرفة الخلفية وضع أعماله الأولى عن "جاك جينيه وكافكا"، على حين علق فى الشرفة أعماله الأخيرة.

احتشدوا فى الغرفة الخلفية، على حين راح "فاسيليس" يعرض عليهم تصميماته ورسوماته والأشكال التى فسر بها النصوص المميزة للقرن الماضى.

قال بتواضع وأدب: التلميذ الذى يسلم واجباته للمعلمة « أفضل ألاّ أعلق ماذا تعنى كل لوحة...» .

كان يشاهدون بعناية، لم تفهم بالضبط إذا كانوا منبهرين بالرسوم أم بالشخص الذى لم يحاول أبدًا أن يعرض أعماله.

ثم خرجوا جميعًا إلى الشرفة، على العارضة التى وضع عليها لوحاته الجديدة. هنا حل الصمت. بعد قليل انسحبت "ناتاشا" إلى جانب الشرفة تطل محاولة أن ترى الحى من زاوية أخرى. بينما راح الآخرون يحللون الأعمال الفنية، راحت تتحدث مع "رانيا". الطريقة التى كانت تتحدث بها المرأتان تشى بأنه كانت تربطهما صداقة قوية لكنهما افترقتا فى لحظة وحدث شرخ بينهما لم يرمم حتى الآن.

سألتها "رانيا" فى محاولة منها أن تروض القلق الذى تملك جسدها منذ قليل، قلق يأتى معاكسًا تمامًا لحالة اللامبالاة التى تقصدها دائمًا "ناتاشا": « هل ستغادرين مرة أخرى؟».

قالت لها وهى تلتفت نحو باقى الصحبة.« دائرة رحلاتى اكتملت يا"رانيا" » « لقد قاربت على الخمسين...».

الإشارة إلى السن كانت تصيب "رانيا" بالرعب، ليس فقط لأنها سوف تلحق بها وإن كان الفرق العمرى بينهما سنوات قليلة – لكن لأنها أدركت أن البشر بالفعل لهم حدود وطاقة وقدرة على الاحتمال محدودة أيًا كان، وأن البعض يكملون دوائرهم، على حين آخرين يتركون قصصًا مفتوحة، ويعيشون دون أن يحققوا أقل رغباتهم.

سألت "رانيا"، فى محاولة منها للتهرب وتغيير الموضوع: « أين معلمتنا اليوم؟» .

ضحكت "ناتاشا". « معلمتنا تبدو ضائعة...».

« وأنت لست أسهل صاحبة عمل ياعزيزتى ».

« رانيا، لنتكلم بجدية، لكل شخص قوة احتمال. أنا طلبت معلمة. إذا كانت هى تسعى لتحصل على التلميذ، لتحل مشكلتها بنفسها، من ناحية أخرى، لم أحرمها من فرصة أن تحقق نزوات خيالها الجامح...».

« أعلم شيئًا عن هذا...».

« تعلمين، كلكم تعلمون... تقضون معى أوقاتًا ممتعة لكن فى لحظة ما لا تحتملون...».

قالت "رانيا" فى نفسها، وكانت على وشك أن تنفجر صارخة فى وجه "ناتاشا": لا نحتملك.

«... لا أحد يحب أن تُوضع له حدود، والتى هى فى واقع الأمر لا توجد. هل رأيت يا"رانيا" نساء كثيرات فى هذا العالم يتقاسمن رجالهن؟».

« نصف نساء العالم...».

« أتحدث عن حالتى الخاصة».

« هل تسمينها حالة خاصة يا "ناتاشا"؟ بالفعل هذا أمر لا يحتمل، لكن يبدو لى أن هؤلاء يريدون ذلك...».

« هى مسألة ثقافة. أنا أحاول أن أعكس المعطيات...».

« بإنهاك الآخرين» دمدمت "رانيا"، وراحت تدندن. جاءتها ذكرى عابرة، قبل عشرين عامًا، حين كانت تتقاسم العالم مع "ناتاشا" بالفعل... عندما اضطرت أن تتركها وتنسحب. قد تعبت جسديًا من كثرة الرحلات ونفسيًا أيضًا، وكانت الذروة عندما كان تغنى فى ذلك المحل المغربى...

علي أية حال، كل إنسان هو أسير جيناته الوراثية. كانت "رانيا" امرأة لم يكن لديها سبب أن تجرب مع أجناس أخرى وبالأخص رجال أنانيون ومجروحون من أنظمة إشكالية. لم يكن لديها أى مشكلة أن تقع على رجل غربى أبيض مسيحى، بكل عيوبه ومشاكله. فالآخرون ليسوا أفضل، كانت تشعر بالأسف على المسكينة "ماريانا"، فقد كانت ترى مصيرها، لكن لم تكن تعرف حالتها بالضبط. وفى عمق عقلها المعذب صوت الضابط المرح شحن بطارياتها الفارغة.

عادت "ناتاشا" إلى الصحبة، كان "تيتو" يفكر بعمق. "جاك" منبهر، يتحاور مع "فاسيليس". يتصفح "رفيق" المكتبة غير المرتبة ويفكر بطريقة غريبة فى المعلمة التى تركوها فى المنزل. غابت "ماريانا" عن الصحبة بسبب الدرس مع "صابات"، وعندما اقترحت عليها "ناتاشا" التأجيل، رفضت بحجة أنهما متأخران فى دروسهما بالفعل.

الجزء الرابع

أدب

أتمت "ماريانا" الدرس مع "صابات"، دَرْسٌ بدأ بمزاج عكر واستمر لثلاثين دقيقة بشكل متواصل، كما لو أنها أرادت ألا يبقى بينهما أى وقت فراغ إلى أن قاطعهما رنين هاتف "صابات" الجوال الذى كان لايتركه بجواره أبداً.

خطف الهاتف بلهفة وبدأ فى الحديث بلغته، بالتأكيد كان يتحدث مع امرأة. كان يضحك باستمرار فعبس وجهها لضياع وقت الدرس، لم تخدع نفسها كثيراً بهذا العذر السخيف. فجأة بينما كان "صابات" يتحدث بلا توقف، جاء بجوارها وراح يملس خلف رقبتها ثم وضع يده داخل صدرها. حاولت "ماريانا" أن تتفاعل، لكنها لم تشأ أن تصده بالكلام، حيث كان لايزال يتحدث على الهاتف.

قال لها فجأة «ماذا بك؟ أتكلم مع أمي» ثم وضع لها سماعة الهاتف على أذنها.

صدمت، ثم بدأت تحيى المرأة على الطرف الآخر من الهاتف باليونانية، على حين أخذ الصوت الآخر يصب سيلاً من العواطف، دعوات وكلمات طيبة كانت تستشعر من جملها المتواصلة. أعطت له الهاتف.

بعد ذلك، غاص برأسه بين فخذيها. بدأت "ماريانا" ترتعش، كانت حركات يديه مرنة وخيالية. جرها إلى الأريكة المنخفضة وتمددا عكس بعضهما. اضطرت هى الأخرى أن تستخدم أصابعها، « يا إلهى، لمَ ثانيةً؟».

راحت تتفحص عضوه الذكرى فور أن رأته مختونًا. بعد قليل ذهبت إلى الحمام لتغتسل، كفاها مفتوحتان وتحملان كائنات حية، شىء أشبه بالعوالق، مما ذكرها بـ....(ذلك المنام الذي رأت نفسها تحتضن جنينًا، وكان هذا الجنين هو أخاها الذى راح يصغر ويصغر حتى صار كرية لزجة).

ولكن، رائحة منىّ الرجال متشابهة بغض النظر عن الديانة أو الجنسية. يمكن أن تختلف رائحة الجسد، أن يغمق لون البشرة، لكن المنىّ يحتفظ برائحة البدائية، رائحة عضوية، خلوية.

جاء بعدها "صابات" ليغتسل هو الآخر. تساءلت "ماريانا" إذا كان يفعل نفس الشىء مع "ناتاشا"، وكأنه تنبأ بما يجول فى خاطرها، فهمس فى أذنها « أنا أمارس الحب مع "ناتاشا"!».

شعرت بدوخة. طبقًا لكلامه، لم يكن يقذف بداخلها لأنه يحترمها ويعتبرها فتاته. هل تعرف "ناتاشا" ياتُرى؟.

« لا، "ناتاشا" لا تعرف، أنتِ فتاتى».

قالت "ماريانا" بداخلها: يبدو أن الاحترام يبدأ بمنىّ فى كف اليد كان يبدو راضيًا، قبلها على خدها وفرك كف يدها برقة حتى جففه. عندما رأته فى حالة انتصاب مرة أخرى، انسحبت وهرعت إلى الغرفة حيث بدأت تجمع أوراقها. خرجا إلى الحديقة فراح يشرح لها عن الأشجار وكيف يعتنى بها. أزهار نبات "الدفلى والغاردينيا والتوليب والياسمين" كانت السائدة؛ نخلتان كانتا تتسابقان فى العلو حتى سقف المنزل. النوافذ المشغولة كانت تحتاج إلى أيادٍ خاصة، كان يعرف هو كيف يتعامل معها بحكم موطنه الأصلي. هناك بجوار النافورة، شجرة سنط غريبة ووحيدة. لمست "ماريانا" جذعها بحساسية مفرطة، شعرت تحت قشرتها أن أوردة الشجرة تنبض ببطء شديد وانتظام.

دخلت إلى المنزل تبحث عن حقيبتها، فى النهاية وجدها وأحضرها "صابات" لها. هو سيبقى، فهنا وجدته على أية حال. سينتظر الأخرى؟ جن جنونها. شعرت بالغيرة عندما وصلت إلى الباب الخارجى، « ياربى » استشاطت غضبًا. لحقها "أحمد" القليل الكلام. انتبهت له هذه المرة بشكل أدق: هو فعلا طويل، يتجاوز طوله المئة والثمانين، نحيف مثل غزال. ملامح متناسقة وعيون جميلة بشكل لا يصدق.كان يرتدي خاتمًا غليظًا فى سبابته. هل من الممكن طبقًا لمنطق "صابات"، كان يمكنها أن يكون لها صديق آخر على التوازى مع «علاقتها»؟.

لم يكن "أحمد" فى مخططاتها، كان ينتظر إشارة، كلمة سر تشى بشىء هكذا من ناحيتها. كم هو مخدوع! كانت ترعبها فكرة أن ينتهى بها الأمر إلى الشارع الضيق حيث تسكن.

حاولت أن تهدئ من نفسها وخرجت إلى الشارع الرئيسى. ذعرت واصطدمت بكل الكتل الأسمنتية فى "كومندوروا وبسيرى". من حسن الحظ لديها "مارثا"، طبعا لم تسأل عنها منذ فترة، لكن هكذا الأصدقاء. هم لكل الأوقات.

« أنت على مايرام يا "ماريانا"؟».

كيف كانت تفهمها... كانت "مارثا" تهرول بين الطاولات مرتدية مريلة العمل، غطاء استبدادى لجسد كان يتعرى فى أى فرصة. بالطبع الجزء العلوى من جسدها الذى لا يغطيه زى العمل، كان يظهر أكثر مما يخفى مقارنة بالجزء السفلي. بتعبير آخر، كان ثدياها مكشوفتين حتى خدود الحلمتين، فمارثا كان لديها هوس بحلمتيها.

جلست "ماريانا" على طرف البار، بشكل يتيح لصديقتها فى كل مرة تلتقط أنفاسها أن تلقى لها بكلمة. ابتسم لها "يورغيوس" ـ كان يهدى لها المشروبات، كان وسيماً جداً، وكان جماله لعنته، إذ ارتسم هذا الشىء فى عينيه مع نرجسية مفرطة بشكل يؤدى للنفور منه إجبارياً من العيون التى تقع عليه. تستطيع الآن "ماريانا" أن تستخدم مصطلحاً غريباً لرجل لديه الوعى بأنه مرغوب من النساء.

لا، لم تستشعر هذا فى الأولاد فى "كيراميكو"، ولا حتى مدام "ناتاشا" كانت المناسبة لتقر بأمر كهذا، فتلك المرأة تستعمل الرجال، تصنفهم، ترتب درجاتهم. على عكس الشرقيين لم يكن لديهم أى تقييد، كانوا يشعرون بالقوة نفسها أمام النساء وأمام المرآة. يعجز المحللون النفسيون أمام الصحارى الشرقية، فلا تتسع خيامها ولا غرفهم الضيقة لكل هذه الأسرة.

عندما لاحظت أن "مارثا" لا تود إلا الحديث من النقطة التى توقف عندها حديثهم السابق، شعرت أنها من هذه اللحظة لن تستطيع أن تلجأ إلى صديقتها الحميمة، لن تستطيع أن تحكى لها كل التفاصيل، ولا أن تشرح لها بوعى ولا بعمق عن رغباتها الحقيقية ولا عن دوافع الآخرين. لقد تغيرت حياتها، بتدرج لكن بحزم، وشيء آخر. عرض الحياة الجديدة أيًا كان طول مدتها، ستكون شيئًا يخص وضعها الخاص: رغم أنها قُدمت لها، إلا أنها نجحت بمجهودها. من ناحية أخرى، كانت تشعر بعدم استقرار رهيب، كونها أصبحت لعبة فى يد "ناتاشا"، مثلها مثل الآخرين، كانت تعيش هذه الحالة تحت مدة وأجل محدد. لكن إذا أضافت إلى كل هذا الشق المادى، حينها سيعلى هذا من قدرها درجة على قدرهم.

وصل فى هذه الأثناء مجموعة من أصدقائهم وجلسوا بجوار "ماريانا". كانت "فيكى وماكسيمو" (دائمًا ما تربط بينهما وبين اليوم الذى قرأت فيه هذا الإعلان المبوب فى تلك الكافيتريا – ها هى كل الأشياء

تتغير مواقعها طبقًا للوضع الجديد) ومعهما فتاة أخرى كانت تعمل فى قسم للإنتاج.

خف الازدحام فى البار، حدثتهم "مارثا"عن صديقها الجديد الذى كانت تذهب معه إلى محلات تسهر إلى أوقات مابعد دوامها فى العمل ولهذا كانت تنقصها دومًا ساعات للنوم إذ إنه فى الصباح لديها بروفات.

لم يكن "ماكسيموس" راضيًا عن العمل الذى عرض عليه – كانوا يبحثون عن كومبارس للعمل، لذلك تركوهم وجاؤوا إلى هنا ليكملوا العمل على الطعام. كانوا يعدون كاستينج للمشاركة فى إنتاج دولىّ وكان عليهم أن يبحثوا عن جيش من الناس من اليونان ! همست له "مارثا" فى أذنه شيئًا وهى تشير إلى "ماريانا".

سألت "ماريانا": « ماذا تقولون هناك؟»، على حين كان عقلها يهيم فى العالم الخارجى.

ثبت "ماكسيموس" نظارته الطبية من النوع الذى يرتديه المثقفون وقال :

« عفوًا "ماريانا"، فمارثا تقول لى إنك تعرفين بعض الفارسيين فى "أثينا"».

تجمدت "ماريانا" من جرأة "مارثا"ووقاحتها وقالت بشكل قاطع وجاف إنهم ليسوا أصدقاءها، بل تصادف أن تتعرف عليهم.

« نحتاج الكثير من الكومبارس من أجل إنتاج أجنبى، سينتجون فيلمًا عن معركة "الثيرموبيلون". فكرنا أن تكون ملامح الجيش الفارسى واقعية وإن أمكن أصلية...».

عينا "ماكسيموس" وكذا زجاج نظارته فى كل مقابلة كانت تتلون بلون إطار النظارة نفسه التى يرتديها.

قالت له بمرارة: « أه يا"ماكسيموس"، كنت أتمنى أن أستطيع مساعدتك لكن هذا الوحيد الذى أعرفه ليس فى دائرة اختصاصى ».

قال وهو يعطيه إياها: على الأقل احتفظى ببطاقتى المهنية.

قالت بداخلها: «هل يُعقل» « أن آخذ اللقمة من فم "ناتاشا" بهذه الطريقة! ».

تركت البار وخرجت وهى تشعر بالدوار إلى الشارع؛ كان لديها إحساس أنها معزولة عن الكل وأنها طوال هذه السنوات لم تستطع أن تبنى محيطًا شخصيًا تستطيع من خلاله أن تعبر عن ذاتها مهنيًا وعاطفيًا. لا عملها بدور النشر ولا "سبيروس" كانا من مخططاتها. عندما فكرت فى "سبيروس"، شعرت بغضب إضافى، لم تشأ ولا حتى أن تضايق نفسها بالتفكير به.

هطل مطر مفاجئ على المدينة، مطر خريفى رتيب مصحوب ببعض الرياح والرطوبة. ابتلت الحديقة، راح الندى يتساقط من أوراق الشجر،

أصوات تسمع من مضيفة الرجال، كان هناك صحبة يمرحون، ربما كانوا يشاهدون مباراة لكرة القدم، من يعرف... كانت الساعة حوالى السادسة أو السابعة ـ فكانوا يستمتعون بحريتهم كاملة بلا أى التزامات. كانت أيضًا الساعة التى يُسمح لهم فيها باصطحاب أصدقاء إلى المنزل، لكن هذا كان يحدث فقط بعد موافقة "ناتاشا".

ولأن التساؤلات تزداد فى رأس المعلمة، اضطرت "ناتاشا" أن تشرح لها أن الفتية أنفسهم لم تكن لديهم رغبة فى أن يُحضروا أحداً إلى المنزل، لكنها كانت تصر على أنهم يجب أن يحتفظوا بعلاقات وصلات مع من ينتمون إلى عرقهم وإلى مرحلتهم العمرية. وهكذا كانوا يصبحون أكثر مودة وحميمية وأكثر... تنافسية...

فتحت "ناتاشا" الصندوق لترى كيف يتقدم العمل. بالفعل، أيًا كان عدد الساعات التى يعملونها، لن يفرغ هذا الصندوق بسهولة. وصلت "ماريانا" إلى مرحلة القلق والترقب، حيث كانت تخشى أنه مع انتهاء العمل سيعنى هذا أن ترحل تمامًا عن البيت، بالطريقة نفسها التى لم تعد بها "رانيا" الصديقة الحميمة لناتاشا.

سمعتها "ماريانا" تقول: « أنت مستعدة؟ ».

كانت تلاحظ فى الأيام الأخيرة وتدرك تمامًا مغامرات "ماريانا" داخل البيت. كانت تستمتع بهذا، وخلف عيونها التى تتصنع عدم الرؤية وعدم المعرفة كانت تلاحظ كل تغير فى سلوك وأسلوب "ماريانا"، حتى

الطريقة التى كانت تكتب بأصابعها على لوحة مفاتيح الكتابة، أو تسأل شيئًا حيث كانت "ماريانا" تضطر أن تسأل كثيراً مؤخراً متأثرة بما يشغل تفكيرها.

« هنا تنتهى الرحلات باليخت. سيتركونه فى ملجأ لفصل الشتاء مع اثنين من المغربيين يحرسانه. غادروا مع "جاك" بالطائرة إلى مراكش حيث كان "جاك" سيلقى محاضرة فى مؤتمر عن ألف ليلة وليلة. هناك سيهاجمه العرب المثقفون قائلين إن الغربيين يستخدمون ألف ليلة وليلة من أجل إشباع رغباتهم الشاذة. جن جنون "جاك" واتهمهم بأنهم من وقت لآخر يعلنون اكتشاف مخطوط نادر يُكمل الروايات القديمة وبهذا الشكل لا تنتهى هذه الليالى الأبدية...».

* * *

عقد مؤتمر The Arabian Nights فى المغرب. وهذه المرة كان الموضوع الرئيسى هو العلاقات الجنسية كما وردت ووصفت فى ألف ليلة وليلة. المشتركون المستشرقون غربيون وعرب كان لديهم الكثير ليقولوه فى موضوع «الخيال فى الجنس»، مع وضع فى الاعتبار أنه مع مرور الزمن قصص كثيرة ما زالت فيها تلك التفاصيل أو حذفت رقابياً على حسب الظروف والبلد. لكن الكل أجمع على أن الليالى لم تكن ذات فائدة تعليمية وغابت عنها روح المغامرة فى هذا الصدد.

قدم "جاك" شهادة خاصة على الفصل السادس لألف ليلة وليلة، حيث يتحدث الكتاب عن بعض العلاقات المثلية، هذا أدى إلى غضب الكثير من الباحثين من مصر وسورية. وأجابهم "جاك" بأنه أثبت أن فى بلادهم فى القرن الثالث عشر كانت المثلية منتشرة وبخاصة فى الأوساط الأدبية.

فى المساء، وبمناسبة المؤتمر، عرض فى دار سينما قديمة فيلم بازولينى الشهير ألف ليلة وليلة. حضر عرض الفيلم فتيان وفتاة من الذين شاركوا فى الفيلم بعض المشاهد الساخنة، قبل سنوات بالطبع. فى الحوار الذى دار بعد عرض الفيلم، قالت الفتاة إنها تعرضت لخطر السجن لأنها ظهرت فى هذا الفيلم مما اضطرها للهروب ـ بصعوبة ـ إلى إيطاليا، حيث تعيش وتعمل مصممة فى أحد دور الأزياء وتأتيها طلبات من نساء عربيات ثريات. أما الفتيان فلم يكن حظهما أفضل. أحدهم قال لجاك بعد ذلك على العشاء الذى تلى الأمسية، إنه يعمل كمرافق للسائحين، على حين الآخر توج... وكان أجملهم. جلس بجوار "ناتاشا" بناء على دعوتها لها.

بعد العشاء دعاهم "جاك" لبيت أحد أصدقائه، ناشر فرنسى، كان قد غادر البلاد وأعطى مفتاح بيته لجاك. وصلوا جميعًا إلى الأزقة المظلمة للمدينة، ليس بعيدًا عن Place Jama el Fna. امرأة بسيطة كانت تعتنى بالبيت فى النهار وتغادر فى المساء. امرأة فى الخمسين من عمرها كانت تنتظرهم بعد أن أعدت لهم أشهى الأطعمة والمقبلات. لم تنزع من عليها أبدًا مريولها الأحمر.

أكلوا فى الحديقة الرائعة التى كانت تفيض بالبوغانفيليا والخبازى وزهور البنفسج.

كل الأسطح كانت مغطاة برخام بدرجات اللون الأزرق الباهت والأزرق الداكن. كانتالتصاميم المرسومة عليها تشع على حين تشكل نجومًا فيما بينها إذ تلتصق على خلفية زمردية أو أوراق شجر.شبك حديدى غير مرئى كان يغطى كل الفتحات. الورود الكبيرة كانت فى كل مكان، أوراقها ملقاة فى كل مكان، ألوان مشعة غلب عليها اللون الأصفر والأحمر والأحمر الداكن. كل الديكورات والزينة كانت من خامات وتصاميم البلد نفسه، وهذا يعود أيضًا إلى الاحترام الزائد الذى يكنه من ابتاعوا هذه المنازل لتراث وفنون البلاد.

أكد "جاك" أنه صار من الصعب أن يشترى أحد منزلاً فى المدينة القديمة، لم يعد هناك أى مصمم أوربى لم يشتر منزلاً قديمًا ويحوله إلى مخبأ فائق الجمال. لكن البعض كان يفضل أن يبقى كل شىء على حالته القديمة...

كان "جاك" يعرف أحد الكتاب الإسبانيين الذى رفض الحياة الغربية وقرر أن يعيش فى بادية الرياض، يأكل التمر والحساء ويستخدم الحمامات العامة، ويختلط مع المحليين...

عندما انتهوا من العشاء وغادرت مولايد، بدؤوا يدخنون النرجيلة ويلفون السجائر. تمددت الفتاة على الأريكة المنخفضة وبجوارها "جاك" والشابان المغربيان.

فضلت "ناتاشا" فى البداية أن تستمتع بطقس الوليمة الجنسية هذا عبر المشاهدة والتدخين وبعد قليل نزعت ملابسها هى الأخرى. اتجه نحوها الشابان وبدأ يمسدان جسدها الرقيق المعطر. بعدها ابتعد أحدهم وذهب إلى الفتاة الأخرى. راحت "ناتاشا" تتأوه بعمق على حين كان لسان الشاب يتمدد ويذهب نحو كل جزء عميق فى جسدها. بعد وقت طويل، حل مكان لسانه المتعب عنصر آخر من جسده كان مشتاق وفى جاهزية. هذا الاختراق الموجع سيحفر فى ذاكرتها لفترة بعد ذلك ثم بعد ذلك سيبقى فى دفتر صغير...

* * *

« ناتاشا، من فضلك، لنكتفى بهذا القدر اليوم...».

« لقد أتعبتكِ...».

« أشعر ببعض الألم فى يدى، شىء أشبه بالتهاب الأوتار...».

قالت "ناتاشا" وهى ترشف الدخان بعمق: « كما ترغبين». كانت عيناها قد اغرورقتا قليلاً وتبرقان بشكل غريب، على حين راحت "ماريانا" تدلك أصابع يدها بارتباك واضح، فى محاولة منها أن تخفى ارتباكها خلف ألمها.

وقفت "ناتاشا" وراحت تصلح من وضع الحجاب الفضى الذى تعلقه فى عنقها وتبحث عن "الليكير"، لكنها لم تجد المنضدة المنخفضة فنادت على "صابات" بصوت عالٍ.سُمع صوت هرولة سريعة. تحدثت معه بالعربية فذهب وعاد من الغرفة يحمل زجاجة فى يده. رشفت ثلاث رشفات الواحدة تلو الأخرى.

قالت له وجذبته وهى فى حالة دوار لذيذة: « لابد أن تُعاقب».

بُهت وفقد تركيزه لوهلة حيث إن معلمته على مقربة منهما. راحت تحفظ النص فى الكمبيوتر بسرعة وكانت على وشك أن تمحوه من ارتباكها. نهضت لتغادر بسرعة، لكنهما كانا يتقلبان فوق السجادة اليدوية. كان "صابات" مستلقيًا على ظهره ويرى السقف كأنه سجادة أخرى لكنها وضعت بالعكس، والمعلمة تسير من فوقه. استمرت "ناتاشا" فى العقاب، ثم قالت لها « إذا أردت يمكنك أن تبقى معنا».

« لا، من الأفضل أن أغادر».

كادت "ماريانا" تتعثر فى آخر درجة من السلم. أى نوع من النساء هى تلك المرأة، أى رغبات لا نهائية تخفى داخلها؟ هل يجب أن يعود لفظ « الهوس الجنسى » إلى قاموسها؟ قفزت إلى ذهنها فكرة شريرة أن تعود وتقطع هذه السجادة الباهظة الثمن.

إلى أين أذهب ياربى؟ كانت منزعجة والعرق يتصبب منها، لديها رغبة فى الصراخ، فى البكاء، فى العشق، فى أن تُحب، كانت تريد كل

شيء. لكن بالأخص كانت ترغب فى الرحيل، لا تريد أن تخون نفسها، ولم تعد تتحمل أن يلهو الآخرون بمشاعرها.

خرجت إلى الحديقة وأخذت أنفاساً عميقة. كان صوت التلفاز يأتى من المضيفة. كان "أحمد" ممدداً على الأريكة ينتظرها بابتسامة وهو يشاهد قناة أغانٍ عربية. مغنية لبنانية ذات مظهر متكلف شعرها المنفوش يكاد أن يخرج من الكادر تحتضن حبيبها الأسمر ذا الشوارب، مشاهد فى قصور فارهة وسيارات ضخمة، هى تتصنع الحزن والبكاء وهو الأمير المتعجرف.

ظنت "ماريانا" أنها ستجد هنا ملاذاً، جرف أمامها وخلفها هوّة. رغبتها مختلطة بخوف، بداخلها اشتياق يأكل أحشاءها، "أحمد" الذى هو على علم بكل مايتم ويحدث فى البيت، اقترب منها وراح يربت على شعرها برقة. جلست وذهنها فى طوابق أخرى، فى أروقة عشق أخرى، تركته يتمدد بجوارها على الأريكة فقبلها على شعرها ووجنتها.

جلست مرتبكة لا تدرى ماذا تفعل، فكرت فى أن تهرب، عندما دفع أحد الباب ودخل. كان "صابات" يرتدى بنطاله فقط، أمسك بأحمد ودفعه بقوة للخلف؛ تعرقل بدوره وارتد للخلف، كان عصبيًا بشكل واضح.

قال له "صابات" مهدداً مشيراً له نحو الباب الرئيسى للمنزل:

«ارحل يا أحمق».

احتضن "ماريانا" برقة.

« "ناتاشا" فهم أنا لا أمارس حب كامل معك... وأن أنا أحبك... قالت نمارس حب الآن... إذا لم أمارس حب معك الأن، قالت أنا أرحل من منزل. أنا أرحل، لا أنتِ».

قالت "ماريانا" وقفزت واقفة: « إذن، سأرحل أنا ».

« إذا غادرتِ، فسأغادر أنا... لو مارست الحب معك، أنا لا أغادر... هكذا قالت "ناتاشا"...».

وكأنها استيقظت محمومة من حلم ما. كل هذا التعايش السهل مع "ناتاشا" اتضح أنه ليس إلا لعبة ذكية تلعبها بدهاء بل وتهدد أيضًا إذ إن كل هذا لا يكلفها شيء، حتى وإن بدلت مساعدتها فى الكتابة.

كان بإمكانها أن تقترح على "صابات" أن يرحلوا معًا، بشكل ميلودرامى مثل كليبات الأغانى. لكن لم تكن لديها شجاعة القرار أن تحمله معها فى بيتها الصغير، أن تجرب أن تعيش معه. الصوت القديم لماريانا العنيدة قاوم بشدة. كان "صابات" مثل بعض الشخصيات الروائية التى إذا أخرجتها خارج الرواية تُنسَى فى الحال...

وقفت، ضبطت هندامها وراحت تبحث عن "ناتاشا". دخلت إلى البيت وصعدت الدرج الخشبى ولم تجدها فى أى مكان. قلقت وبدأت تناديها بهيستيرية. صعدت فى النهاية إلى الصندرة التى تحوى أكوام الكتب وتراث أبيها.

منظر الكتب هدأ من روعها، بدأت تراها عن قرب، وانحنت حتى تقرأ العناوين كما هى مرصوصة على الأرفف. كونها كانت خلف ألواح الزجاج على شكل نوافذ منعها من لمسها، ورغم هذا كانت رائحة الكتب تفوح من كل ثغرة. كتب قديمة، أغلفتها منقوش عليها بالذهب، مليئة بالتصاميم الكثيفة، مكتوب عليها بلغات مجهولة بالنسبة لها. الكتب العربية كانت تحوز على المساحة الأكبر من الأرفف ذات النوافذ الزجاجية المغلقة.

سمعت صوتًا فجأة يأتى من خلفها: « كنت تبحثين عنى؟ ».

ارتعبت.

« أبحث عنك لنتحدث يا ناتاشا».

«كان لابد أن نتحدث عنك منذ وقت».

« عنى أنا فقط؟».

« إذا أردت أن نتحدث بأمانة يا "ماريانا"، لقد تخطيت الحدود. فأنت شغوفة بصابات، ستعطينه نفسك تمامًا بكامل الرضا – دعينا نضع الأمر بشاعرية –، لكن هو لا يريد أن يستمر. فى الوقت نفسه هو معجب بك ويريدك. كلاكما خارج إطار اللعبة. لكن هناك حلول».

كانت "ماريانا" تسمعها وهى على حافة الصندرة، تحتها حوالى متر ونصف من الارتفاع كان يبدو لها هوة سحيقة، صخرة وعرة وهى على

قمتها، هي في خطر. في مهب الريح وكأنها في مشهد من فيلم ما، لكن أي فيلم؟.

« إما أن ترحلا معًا وإما أن تبقيا هنا بشروطي.

سأحزن بالطبع جدًا إذا خسرتكما، لكن لا أستطيع أن أغير قناعاتي في يوم وليلة.هكذا خسرت صديقات أخريات. لمَ لا تسألين "رانيا"؟».

مررت "ناتاشا" إصبعها على التراب الخفيف الذي التصق على الزجاج. في كل إصبع كانت تضع خاتمًا مختلفًا، كيف لم ترتدها هذا المساء...

« كل إنسان يبني عالمًا حوله يا "ماريانا"، حتى وإن كان هذا العالم ليس له وجود للآخرين...».

« ربما بالنسبة لك يا "ناتاشا"، توقف قبل بضعة قرون؟ ».

« كنت أود أن أقول لك إنه مستمر لقرون الآن. ربما تسمين هذا أمرًا خياليًا أو ضربًا من الهوس، لديك كم من المصطلحات الأدق، وأنا لدي حياتي، وهذه الحياة اخترتها، وهذه الحياة تتغذى على الجذور والثقافات التي قابلتها في حياتي. حتى هذه الأشياء هنا، هذه الكتب الثمينة تمثل صكًا لكل معتقداتي. ما رأيك، يمكنك أن تتفقي معي دون أن تكوني متحجرة وعقلانية إلى هذا الحد؟، من أين فاضت كل هذه الثوابت والمعوقات حتى تحمليها بين ضلوعك ياصغيرتي؟ ».

أصاب "ماريانا" الدوار وهى تسمعها.

« لا أستطيع أن أتبعك حتى النهاية يا "ناتاشا". الآن أفهم إلى أين تذهبين، وأين ذهبت حتى الآن. سأفضل أن أعمل معك فقط، مهما كلفنى الأمر. هكذا، سأثبت لك أن ما يعنينى وما أهتم به هو شخصك فقط أكثر من مرح عابر مع بعض الرجال».

يبدو أن "ناتاشا" سعدت بهذا الحل الوسط. لم تجرؤ "ماريانا" على الابتعاد، ما دفعها للبقاء لم يكن ظروف العمل الجيدة فقط، هذا لم تصدقه المرأة الخبيرة، ولو للحظة.

سألتها "ماريانا" إذا كانت تريد أن يستأنفا العمل وأجابت "ناتاشا" أنها ستخرج مع "جاك" ورفيق اللذين يقيمان معًا فى شقة "جاك"، كما قالت مؤكدة على كلمة «معًا».

« معًا ؟ ».

قالت "ناتاشا": « وهناك آخرون معهم »، « عالم الرجال بستان يجب عليك أن تعلمين كيف تزرعينه. ماذا تقطعين، ماذا تتركين، مع من تذهبين وأى زهور ستشمين».

دعت "ماريانا" معها. ترددت "ماريانا" قليلاً. « "صابات" سيبقى هنا، سنأخذ "أحمد" معنا...».

لاذعة، متعجرفة، انتقامية: ظلت كما هى. طلبت "ماريانا" أن تذهب إلى منزلها لتبدل ثيابها وسألت أين ستلقاهم.

سيتناولون العشاء أولاً فى مطعم "جاليرى" جديد على شارع "بيريوس"، ثم بعد ذلك ربما يذهبون إلى بار فى مكان آخر. وفضلت أن تذهب لتلقاهم هناك مباشرة بعد ساعتين.

عادت إلى المنزل سيراً على الأقدام. حل المساء، أفرغت ما فى صدرها. شعرت أنها انتقلت إلى شقة أخرى، وكأنها كانت تحاول الاعتياد على المكان وترتيب أغراضها. بعض الأشياء لم يكن لها مكان، والبعض الآخر كان تترك له بعض الأماكن دون استعمال.

دخلت إلى الحمام وملأت الحوض كاملاً. غاصت فى الماء وحبست أنفاسها. وعندما خرجت لتستنشق الأكسجين رأت أمامها بعض الزيوت والأملاح قد نسيتها تماماً على طبق من الخوص، كانت هدية "مارثا" فى عيد ميلادها فى العام الماضى. فتحت الزجاجات وأفرغتها فى الماء.

الاضطراب الذى كان يفيض من داخلها كان مردوده بعض الصور التى كانت تأتيها لرجال يقتربون من محيطها ويضعون أيديهم على جسدها. كانت تترك نفسها، لكن شيئاً لم يكن يكتمل. أجساد جديدة، جلد جديد، روائح وعطور. بلل، رطوبة. فاض الماء من الحوض، خرجت وتجففت بعناية حتى لا يضيع ملمس الزيوت المخملى.

كان أمامها الكثير من الوقت لتلحق بصحبتها في الخروجة المسائية. كان اسم «العزى» يأكل عقلها. كيف لم يخطر ببالها حتى الآن؟ ملخص الحكمة البشرية توصل - بل ويلجأ إلى شبكة الإنترنت، حتى إن الكلمات التافهة تجد لها شروحات كثيرة، كيف لم تفكر في هذا، أن تبحث في مكتبات طويلة لا نهائية وبلا نوافذ زجاجية؟ - يالها من غبية!.

فتحت جهاز الكمبيوتر وهي لا تزال مبتلة وانتظرت أن يتم الاتصال مثل التلميذ الذي ينتظر بقلق نتائج الامتحان، كتبت كلمة « العزى » باليونانية. النتيجة: صفر.

عادت للكتابة باللغة اللاتينية وتخيلت كيف يمكن أن تترجم الكلمة إذ إنها كلمة عربية في الأساس. « الـ » التعريف أمر مؤكد، لكن هل تكتب « عزى » فقط بالحروف اللاتينية، قامت بعشر محاولات بحروف وطرق مختلفة إلى أن طلب منها الجهاز أن تقوم بسؤال منطقي.

« al- Uzza ». ها نحن هنا. آلاف من التدوينات التي لها وليست لها علاقة، لكن هذا الرابط في البداية يبدو أنه ملائم. ضغطت على السهم فقادها لموقع إليكتروني بعنوان « Etude d'archeologie orientale».

هذه الصفحة كان الكاتب الرئيسي بها شخص يدعى T. Fahd، ودراسته كانت بعنوان «Le pantheon de l'Arabie central a la veille de l' Hegire»، وصدرت عن المركز الفرنسي للدراسات القديمة ببيروت.

ألقت نظرة سريعة، النص كثيف، ليس سهلاً، لكن قراءته ليست مستحيلة. تلى هذا الرابط مئات الروابط والصفحات كانت كافية لفصلها عن العالم والمعرفة، وعن الأشياء المجهولة الكثيرة بالنسبة لها التى لا تعرف عنها شيئًا فيما يتعلق بالشعوب وثقافتهم، مما جعلها تشعر بأنها صغيرة لكن مهمة فى الوقت نفسه. كادت أن تعيد النظر فى كل ما تعرفه وأنجزته حتى الآن. لم تكن موفقة فى اختيار تخصصها فى الجامعة. كان الأحرى بها أن تدرس فى قسم الآثار فقد كان هذا يجعلها أكثر استعدادًا لمواجهة المشاكل الحقيقية فى حياتها الجديدة.

بعد وقت طويل، أرسلت رسالة إليكترونية إلى أخيها. طلبت منه معلومات عن الاسم. لم يترك "أنتونى" أبدًا تساؤلاتها بلا إجابة، حتى وهو هناك فى بلاد الهند البعيدة سيتلقى تساؤلاً من أخته سيفاجئه بالفعل.

لكن كانت سعيدة بالدروب التى تسلكها. راحت تكلم حالها، كم هى سعيدة بكل ما استوعبته حتى الآن، وحزينة على الناس الذين يتركون هذا العالم دون أن يدركوا القدر الكافى من المعرفة. كانت تسير فى مكان مظلم، لكن الأمر كان يستحق أن تضيع فى المتاهة. كانت تواجة معضلة والآن بدأت لتوها تتحسس لتسير على أول طريقها.

فى الواقع كانت تسير بعرض شارع "بريوس". مرت بمبنى شركة الاتصالات القومية المصمت وألقت نظرة شاردة على المسارح الجديدة –

بجوارها كانت هناك بعض مصانع الأثاث.شعرت بغبطة عندما وقعت عيناها على متحف الفن المعاصر بلونه القرميدي، سارت حتى شارع "خاموسنترناس" وفجأة أصابها الذعر حيث أدركت أنه عليها أن تسير كيلومترا آخر على الأقل في الليل. في محطات الحافلات في هذه الساعة كنت ترى فقط العمال الأجانب الذين كانوا ينتظرون الحافلات الليلية كي يعودوا إلى منازلهم في الأحياء الغربية. جلست تحت إحدى مظلات الموقف وشردت في إعلان يحمل صورة فتاة جميلة تتغير حياتها بهاتف جوال جديد. الفتاة الموديل، لها وجه مشرق، تتحدث على هاتف صغير الحجم. ندمت لأنها لم تستقل سيارة تاكسى، رفعت يدها تشير إلى سيارة تاكسى وهى ترجو ألا يأتى حظها مع سائق يسبها نظراً لقصر المسافة التى تريد أن تقطعها.

لكنها لم تحتج هذا. سيارة الجيب التى توقفت على عجل بجوارها حملت لها مفاجأة سارة. كانت السيارة مليئة بأصدقائها الجدد: فى الأمام كانت "ماريانا" و"أحمد" يجلس فى الخلف. وتيتو على عجلة القيادة.خطفوها ووضعوها داخل السيارة. فى سيارة أخرى كان "رفيق" و"جاك" يتبعونهم،وقد مروا بالفعل وأخذوا معهم "فاسيليس". وتلك كانت مفاجأة أخرى، ليس من أجل عمله الذى كان خارج نطاق معاييرها الجمالية، بقدر ماكان لإصراره وتفانيه.

جلست فى الخلف بجوار "أحمد"، الذى كان شارداً وقلقًا. بدا لها غريبًا وهى تراه خارج منزل "ناتاشا". فى محيط المنزل كان بإمكانها أن

تستوعب أى حضور غير مألوف، لكن عن أى محيط وبيئة تتحدث؟ فهل تمثل "ناتاشا" عصرها على الإطلاق؟ هل كانت تعبر عن حياة البشر فى هذه المدينة؟ لكن "ماريانا" نفسها كم من النوعيات البشرية شاهدت وتستطيع أن تعدد وتحدد فى سنوات عمرها؟.

لم تكن "ناتاشا" من كوكب آخر. تعيش فى منزل ورثته، فى مدينة تتبدل حيث كانت تخطط أن تقضى بقية حياتها. نظرت إليها وهى تجلس فى المقعد الأمامى وقد تدلت أقراطها على كتفيها مثل قطرات الذهب وتساءلت كيف تواجه مشاكلها اليومية الصغيرة،هل كانت تقدم إقرارًا ضريبيًا أم لا، كيف كانت تدفع الفواتير، هل لديها تأمين للمنزل؟، من يحرس المنزل فى فترة غيابها...؟

انعطفت السيارة فى شارع ضيق خلف كلية الفنون الجميلة، حيث كانت هناك مساحة شاسعة مليئة بمواقع البناء القديمة والحديثة، توضح عشوائية المكان: منطقة حرفية وصناعية فى الوقت نفسه فى قلب إقليم "إتيكى"، بين "أثينا" و"بيريا" مهجورة تقريبًا، حتى إن العمال الذين يعملون فى النهار فى مواقع البناء وفى الورش فى المساء كانوا يسكنون بعيداً عن هذا المكان فى مناطق مكدسة بالسكان لكنها مأهولة على الأقل، محشورون فى بيوتهم الصغيرة فى بنايات ضيقة دون أن يحملوا معهم رائحة عملهم اليومي.

منطقة غير مخططة، حول غابة "إليونا"، مئات من مبانى الورش الحرفية، كان بها بعض المناظر الطبيعية لم يعد لها مكان فى المدينة

الأسـمنتـيـة. كـان بإمكانك أن ترى أنه مـازالت هـناك بعض البـسـاتين والينابيع البعيدة، أشجار عتيقة منسية على أطراف المساحة الشاسعة، شـوارع ضـيقة تقودك فجأة إلى مكان مسدود، دروب بين مـواقع البناء. أكثر الأماكن خصوبة فى الإقليم تم تصنيفه بأنه غير مؤهل للسكنى، وليكن بين شارع رئيسى مثل شارع "بيريوس" ونهر "كيفيسو"، أى بين الشارع والنهر.

المبنى ذو الطابقين كان يبرق بفضل التعديلات التى حلت عليه. سيارات كثيرة تقف خارجه، يخرج منه صوت موسيقى صالات، وبينما كانوا يسيرون نبحت عليهم الكلاب الشاردة، وحدَّوا أصوات نباحهم، تلك الكلاب التى تحرس المخازن المتفرقة فى هذه المنطقة المترامية الأطراف.

محل من اللا شىء وفى اللا مكان؟.

قـالت "ناتاشـا" وهى تدخل إلى الدور الأرضى: « كـان مـخـزنًا قديمًا» تعرف الحارس عليها وهو ينحنى لها. لمحت فتاة تتصفح دفترًا للحجوزات. البهو الرئيسى كان أنيقًا وشاسعًا، طاولات خشبية بينها مسافات متساوية.دور علوى يبدأ من فوق رؤوسهم، كان يغطى نصف البهو الأرضى. الطابق الثانى كان به معرض للفن التشكيلى.

جلسوا على أكبر طاولة. جاء "تيتو" بعدهم بلحظات، كان معه "فاسيليس" مرتبكا، راح ينظر إلى المكان الشاسع بإعجاب وبعد قليل قال أنه يتمنى أن يعيش فى مكان به تلك المساحات الشاسعة، به قطع قليلة من الأثاث وجدران عارية يستطيع أن يعلق أعماله عليها.

قال "تيتو" وهو يتنهد بعمق – لسبب غيرمعروف –: « مالك المكان » « هو أحد أهم جامعى الأعمال الفنية يعيش فى "برلين" منذ سنوات طويلة، يدير سلسلة من المطاعم – الجاليرى مثل هذا. الميزة الأساسية لمحلاته أنها متعددة وسهلة الاستخدام. لهذا فأهم جزء فى المكان وهو – المطبخ – يمكن نقله بحيث لا يستهلك وقتًا طويلاً فى بناء المكان الجديد ».

سألت "ماريانا" بسذاجة: « هل هو يونانى؟ » .

أجاب "تيتو": « لا، هو لبنانى ».

« كان فى وصاية عمى "قسطنطين لينوات" فى "برلين" » أكملت "ناتاشا" وهى تشرب مشروبها .والتفتت نحو "فاسيليس":

« هذا هو المكان الذى ستعرض فيه. إنه لنا حتى الربيع. لابد أن تكون مستعداً... أنت ونحن... وبالطبع نحن مهتمون بأعمالك الأخيرة...».

« الجحيم ».

قالت "ناتاشا": « هكذا اسمه» : « إذا سارت الأمور على مايرام، سيستمر المعرض فى الخارج...».

قال "تيتو": « المهم فى الأمر » وكأنه أراد أن يعود إلى الموضوع الذى تركوه سابقًا، « أنه، بينما أنك تُعمم موضوع التعذيب إلا أن

إشاراتك محددة. هناك نقطة مهمة فى توثيق الموديلات. هذا يجعل العمل والمعرض أكثر أهمية.، أريد أن أقول، كان يمكن أن تستعين بأى موديل، لا أحد يستطيع أن يثبت أنه لاجئ سياسى على سبيل المثال، لكن الإشارة إلى هذا فى حد ذاته تعطى للأمر رمزية ما...».

قال "فاسيليس": « مضاعفة لحبس أجسادهم» « كموديلات للرسم الآن، يجعلهم يعيدون تمثيل معاناتهم. لقد فكرت فى هذا الأمر، لا أعلم إذا كان من العدل أن أقوم بهذا الشيء... ».

عبس وجه "فاسيليس" وبدا مكتئبًا. كان "دوران" كان يفترش بطانيتين على الأرض لينام، أعطاه "فاسيليس" لحافًا. لم يرغب "دوران" أن يقتنى أشياء كثيرة حتى يستطيع التنقل بسهولة ومرونة بين الأماكن.

قال "جاك" وهو يملأ كؤوس الآخرين بلا توقف: « لكن هكذا هو الفن، أمر مُعذب. على أى حال، نحن نأكل ونشرب نخوبهم ».

قال "تيتو" معترضًا: « الفن يحارب بأسلحته، لا نستطيع أن نكون جميعًا كاميكازى وليس لدينا القدرة على فعل هذا...».

كان "تيتو" شاحبًا ومتعبًا بشكل عام، ولهذا كانت "ناتاشا" تشد على يده من وقت لآخر. كانت تحبه حبًا شديدًا كصديق، وكانت تعبر عن هذا بطريقتها.

« كيف تسير كتابتك ؟».

قالت "ناتاشا": « كتاباتنا...».

قال "تيتو": « من المفترض» لابد أن تكتبوا نسخة شعرية. فثقافتك ليس لها تراث فى القصة والرواية».

« عزيزى "تيتو"، نحن لا نكتب قصة، هذا غير أن الشعر يكمن فى الأفعال وليس فى القافية... أتدرى أين وصلنا؟ ».

توقفت "ماريانا" عن الحوار الذى فتحته مع "رفيق"، حوار لغوى مرتبك، وكانت تتنصت كى تسمع مايقوله الآخرون.

نظر "تيتو" إلى "ماريانا".

« أين وصلتم يا "ماريانا"؟».

« أظن أننا انتهينا من الرحلات البحرية...».

قالت "ناتاشا": « سنبدأ بالصحراء الآن».

« أنا لست متعجلة للوصول. أظن أننى أفرغ أحمالاً فى كل مرة أحكى شيئًا...».

« هل وصلتم إلى "مصر"؟».

« نعم، لا تنس أننى أتيت إلى "مصر" مرات عديدة من أجلك...».

« لكن هناك، حددتى موقع الجذور...».

تبادل كل من "فاسيليس" و"ناتاشا" نظرة خاصة فيما بينهما. فهمت "ماريانا" أن هناك عملاً متواصلاً ينتظرها فى الأيام القادمة. لكن الآن، لديها هى أيضًا مصادرها، وهكذا لن تسير معهم مثل رفيق سفر لا يعرف الطريق. لن يتأخر الكشف عن «جذور» "ناتاشا"، ليس هذا معناه أنها كانت تخفيها تحت الأرض، لكنها لم تكن على استعداد أن تترك أى أحد يحفر ليخرجها.

الجزء الخامس

مدن حجرية

فى تلك الفترة حدث تغيير كبير فى روحها وعقلها، وبدأت فى عد القرون ولى الرجال فقط. وكلما استمرت، كان جسدها يغير شكلا ويأخذ آلاف الأشكال، حتى يصل إلى تكوين وحيد وفريد. ذلك التكوين الذى لم يكن له شكل ولا صورة، إذ إنه لم ينحت بعد على صخرة برية.

الرحلة إلى "مصر" لم تكن البداية الأولى. كان الدافع والمناسبة أيضا حدثًا ثقافيًا.

نظم وللمرة الأولى فى الإسكندرية مؤتمر عن "كفافيس" وتمت دعوة "جاك" بشكل رسمى إلى المؤتمر من قبل أحد المفكرين اليونانين كان آنذاك يعمل ملحقًا ثقافيًا ويبحث فى الثقافة العربية. كانت "ناتاشا" تتابع الفاعليات جالسة فى آخر مقعد فى آخر صف فى القاعة حتى يتسنى لها أن تخرج بسهولة من المبنى، لكنها شعرت بالملل فى لحظة حيث يتم تكرار الكلام نفسه منذ سنوات، أحيانًا كان هذا فى صالح الشاعر وأحيانًا أخرى كان يضره، ثم خرجت إلى الشارع فى صحبة "رانيا" كالعادة التى كان الأمر كله يشعرها بالضجر والملل.

قـررت المـرأتان أن تخـاطـرا وتخـرجـا للسـيـر على كـورنيش الشـاطئ الضيق للمدينة، الرطوبة نخرت عظامـهـمـا، لكن مـلابسـهـمـا المناسبة حـمتـهـمـا جيدًا، لم يكن الغـروب ولا البـحـر الدافئ ولا عـيون الرجال تعنيهما.

كانت أول مرة تتحدث فيها "ناتاشا" إلى "رانيا" بشكل اعترافي. قـالت لهـا إنهـا ملت من الرحـلات التي كـان هدفـهـا إشـبـاع رغـبـاتهـا الجسدية، تعبت من عد الرجال كما لو كانت مضطرة لدفع فاتورة ما. كان لديها إحساس أن وقت الرحلات في البحر المتوسط كان كافيًا عند هذا الحد، وأنه يجب أن تبدأ في السفر إلى هناك حيث بدأت جذورها في الاختفاء: نحو المصدر البعيد، نحو الجزيرة العربية.

كانت قد نذرت هذا لأمها ووعدتها؛ كان أبوها الذي لقي حتفه بطريقة غير عادلة على يد بشر، قد وهب حياته للحفريات والبحث في تاريخ مدن بائدة، حضارات مدفونة تحت الرمال، عوالم وثقافات اندثرت ضاعت آثارها للأبد.

كيف استطاع شخص له ديانة أخرى أن يحمل كل هذا الحماس في البحث في تلك الحضارات؟.

قالت "ناتاشا"، وهي تشرب الشاي بالنعناع في ذلك المقهى المزدحم بالرجال: « كان دائمًا يقول لي إنه هو شخصيًا لا يؤمن بأي ديانة، وأنه يحب أن ينتمي إلى بلاد لها حدود معروفة ومحددة.لكنه كان يتكئ

على الجانب الشرقى من العالم، على حين كان يقنعنى أن أقول إن جذورى عربية. كان يبحث فى جذور وأصول أمى بالضبط فى المكان نفسه الذى كان يستحيل فيه البحث وبالأخص فى ظل هذه الظروف المعاصرة».

كانت "رانيا" تسمع وتبتسم. كانت هذه المرأة تدهشها كل مرة بمعرفتها الواسعة وبكم المعلومات التى تستطيع أن تستوعبها، بالمخاوف التى تتقاسمها مع الآخرين. لأن "ناتاشا" كانت تجيد السمع، بل تتلصص وتسترق عندما يظن الآخرون أنهم فقط يغمغمون.

كانت "ناتاشا" تشعر بالضجر فى أوربا، ملت من الرحلات المتكررة والسنوات التى قضتها مسافرة فى تلك المدن مثل "برلين" و "مدريد" و "روما" وبالطبع "أثينا". حتى فى "كاليفورنيا" البعيدة عاشت هناك بضعة شهور مع والدها فى الفترة التى كان يعمل فيها من أجل شركة أمريكية للتنقيب عن الآثار.

بدؤوا لأول مرة التنقيب فى الأردن، عادوا إلى هناك بعد سنوات عندما أصبحت "ناتاشا" فتاة كبيرة. وقعت "ناتاشا" فى أسر الصحراء تمامًا، وفى الفترة التى قابلت أمها "أنجلو" وأخذها هو تحت حمايته.

فى فترة الهروب نحو الغرب كانت على وشك أن تنخدع بطريقة الحياة الغربية اليومية، وفتنة الثراء واللهاث خلف الوقت، وهيستيرية الموضة. عندما انتهت من الدراسة فى "أثينا"، درست تاريخ الفن فى "برلين"، بجوار عمها قسطنطين، عندما عاد والدها لعمله فى الحفريات

معبأ بالأفكار: كان يحاول أن يربط بين الحضارة اليونانية القديمة والعالم العربى قبل النبوة وربما بعدها بقليل... وأن يتتبع آثارها بعد ذلك فى الحضارة الإسلامية...

* * *

« وبالطبع، إن الشعب الذى يمثل جسراً بين هاتين الحضارتين الكبيرتين، هم النبطيون! ».

قفزت "ناتاشا" واقفة. « جئتينى قارئة ومطلعة ياجميلتى...».

« لقد أجبرتينى بعد كل هذه الأيام أن أبحث فى المكتبات والإنترنت...».

« كيف بدأت؟ ».

« بدأت من اسمك، اسمك المستعار أعنى، عندما سمعت "رانيا" تناديك العزى!».

« أنت مذهلة. لكن "رانيا" أيضًا سُجرت مما مررنا به فى الفترات الأخيرة...».

« العُزى مع إلهين آخرين يشكلون ثالوثًا إلهيًا فى التاريخ المبكر للعرب قبل الإسلام. أى فى شبة الجزيرة الوثنية...».

قامت "ناتاشا" بارتياح من على مقعدها، وفكرت فى أنه لابد أن يحتفلا بمناسبة الوجهة الجديدة التى اتخذتها علاقتهما. شعرت أنها تخلصت من حمل ثقيل من الأسرار، وأن علاقتها بماريانا من الآن فصاعداً ستقوم على أساس جديد. قالت وأكدت أنها كانت باحتياج لهذا التأكيد لأن الحكى من الآن لن يكون عن العشق والرجال، ولكن سيكون محاولة مستمرة لإحياء كل عناصر تلك الحضارة التى اختفت مع رسالة النبى وانتشار الإسلام.

« أنا لست مسلمة، كما فهمتِ. لقد عمدونى فى بيروت فى كنيسة أرثوذكسية، وهذا كان كل شيء. الآن لا أعتنق أى ديانة. الديانات الكبرى لم تجلب سوى الخراب والدمار. ولا أعتقد أو أعتنق أى ديانة لآلهة قديمة، أنا لست مع أحد. لكن كان "أنجلو" يقول لى، بعد "هيراكليتو" كان يجب أن نتخلص من كل أشكال الإلهية المتعددة والمشخصنة. لم أصدقه فى البداية... كان يجب علىَّ أن أسافر كثيراً حتى أتقبل الفكرة. لكن الآن أنا مع العرب، مع بشر الصحراء، مع كل الشعوب التى دمرت وفتتت، مع هؤلاء الذين سلبت منهم هويتهم وتراثهم. أنا مع كل هؤلاء الذين شردوا وأبيدوا، مع كل هؤلاء الذين انسجموا مع صحراء وقلاع الشرق لآلاف السنين ».

« النبطيون كانوا أكثر الحالات غموضًا بينهم».

« ليس هم فقط يا "ماريانا" .. ثلاثة قرون بعد الميلاد اختفت لهجتهم. مثل لهجة "تدمر" ولهجات أقوام رحل كثيرين...».

« حسنا فى الإسكندرية، مالذى حدث بالضبط فى الإسكندرية؟ ».

فكرت "ناتاشا" قليلاً فى صمت. قامت من مكانها وراحت تنظر إلى زجاج المكتبة الذى انعكست عليه صورتها. فتحت إحدى النوافذ وأخرجت كتاباً نادراً كان عنوانه الجامع لأقاليم البلاد، وشرحت أن من كتبه هو "فارذيسانيس" أقدم كاتب مسيحى سورى، الذى تأثر كثيراً باليونانيين.

« كان يتحاور معهم بأسلوب خاص، هكذا قال لى والدى. يتحاور... يالها من كلمة جميلة...».

والدها، "أنجلوس يانوبولوس"، كان لديه اهتمام خاص بعلم الفلك وكان يدرس الأجناس العربية البدوية وسكان مدينة حران. كان هناك معبد لعبادة القمر. درس "فارذيسانيس" أيضاً اللغة الكلدانية ولكن مع دراسته لعلم الفلك والنجوم قرأه باللغة اليونانية.

« هذا الكتاب الذى ورثته كان كتاباً نادراً وثميناً. ملىء بالمعرفة المجهولة الضائعة. لكن هذا ليس كتاباً...».

جذبت "ناتاشا" كتاباً من الجلد، اتضح فيما بعد أنه مجرد غلاف.

أخرجت منه قطعة حلى من حجر "اليشب" ووضعتها فى ورع على راحة يدها.

سأل الرجل العجوز المحنى تحت مظلة محتميًا من شدة الشمس: « بكم تبيعه؟ » زخم من الناس متعدد الألوان، طاولات مليئة بالخيرات، أكواخ أيلة للسقوط، سوق يبدو وكأنه مهرجان للتسوق.

رفع العجوز رأسه ونظر إليها بنصف عين مفتوحة. كان يتكلم بصعوبة، « هذه القطعة من الحلى ليست لامرأة عادية».

قال العجوز فإذا بالمرأة تخطف قطعة الحلى وتنظر إلى شكل المرأة المنقوش ببراعة على قطعة الحجر. شردت "رانيا" داخل الكوخ وركزت تمامًا فى مشهد المساومة السخيف. فتحت قميصها من شدة الحرارة حيث بدا صدرها الثري. ثلاثة رجال فى الجوار راحوا يراقبون المرأتين، الحرية التى كن يتحركن بها كانت تذكرهم بنساء منطقتهم لكن فى الوقت نفسه لم تبديا أى تحفظ مثل النساء المحليات.

صاحت "ناتاشا"عندما خرجت وهى تعلق قطعة الحلى فى يدها: « العزى! » .

كان العجوز مازال يعد كومة من الأوراق النقدية التى وضعتها بين كفيه هذه المرأة الغريبة، مال كثير، وعندما أخفى المال جيدًا داخل ثوبه، تسطح لينام خلف بضاعته فوق حصيرة من الخوص. حاول أن ينذرها وهى تغادر من القوة التى تخفيها قطعة الحلى الثمينة لكنها رفضت أن تشتبك فى حوارات أخرى.

راحت "ناتاشا" تناجي نفسها: «أبي! خسارة أنه ليس على قيد الحياة ليسعد بما وجدته..

الآن فقط أعرف ماهو هدف رحلتي وإلى أين يجب أن أتوجه وإلى ماذا يجب أن أكرسه...».

» قالت "رانيا": « ولماذا لا تحملينه؟.

« لأن الإلهة لابد أن تعود إلى أرضها، ولا يجب أن تكون خلف زجاج المتاحف، كان أبي يقول ليس هناك أى أيقونة لهذه الإلهة، إلا فى معبد فى الصحراء. لكن هاهنا قد وجدت واحدة. هل تعرفين ماهو الاسم المقابل للعزى باليونانية؟ أفروديتي! ».

« اللات ومناة؛ كانا أكثر غموضًا ».

« والأخريان؟ ».

« اللات ومناة؛ هذه كانت أكثر غموضًا ».

« بمعنى؟ ».

« رغم أن هناك شواهد على عبادتها، لم يكن هناك أى دليل أو أثر لها. ولا تنظرى لهذه القطعة المربعة الشكل، هذا لأنها صناعة رومانية. بالتأكيد الذى صنعها فنان ونشر فنه هذا عندما تفرق النبطيون فى أنحاء حوض المتوسط.

وجدت قطعة مماثلة فى جزيرة "ذيلوس". العرب كانوا يعطون أشكالاً لأوثانهم لكن دون صورة للوجه. كانت الأوثان عبارة عن حجارة وشكلهايشبه التكوين الهرمى...».

« تمامًا يا إلهتى... لنذهب الآن إلى الفندق فأنا أشعر بالدوار من الجوع والحر ».

كان الرجلان اللذان يرتديان الثياب الفضفاضة يتبعانهما تقريبًا حتى مدخل فندق « سيسل ». فلم يستطيعا الدخول هناك. كانا قد شاهدا مشهد السوق ودفع المال وكذلك جمال الفتاتين ولم يرحلا. أكثرهما مكرًا اقترب منهما وعرض عليهما أن يأخذهما لمكان قديم وساحر فى المساء، مكانٍ أقدم من المدينة. ابتسمت له "ناتاشا" فرد لها الابتسامة فكشف عن أسنانه الناصعة البياض التى برقت تحت الشمس القاسية، تغيب عن أسنانه سنة ولكن لا تغيب عنه الشجاعة.

* * *

سألتها "ناتاشا": « هل ستبقين هنا لنأكل سويًا؟»، كانت تستعد للاستحمام، كان الحمام مبنيًا على شكل قبة يُذكر بالحمام التركى.

« كانت فى "أثينا" حمامات عمومية تركية كما كان يقول لى أبى، لكن لم يبق شىء من هذا العصر. فعلوا كل مايستطيعون حتى يمحوا

كل أثر شرقى حل على البلاد، وانظرى إلى قبح المدن هذه الأيام.هل رأيت جمال إسبانيا، أنقذوا بعضها، لأنهم بعد فترة ما، كانوا يخافون هذا الإرث العربي. هل تعلمين أن هناك أوجه شبه بين "أثينا" و"دمشق"، لهذا فما زلت أحتملها... جو "أثينا" يذهب بى دومًا إلى فوضى المدن الشرقية فى حوض المتوسط. الماضى ينتقم يا"ماريانا"....».

« هل لهذا "ياناتاشا" تحاولين أن تعوضى أو تسددى شيئًا من هذا الماضى؟ ».

« لو تحليتِ بشىء من الصبر، فستعلمين. صدقينى، ليس فى نيتى أن أضايقك. قولى لى بصراحة، هل مازلت تتحملينني؟ ».

ابتسمت "ماريانا". دخل "حكم" مبتسمًا" هو الآخر. قال وهو يسير بمرح: « شكرًا ياناتاشا».

طلبت منه أن يقترب ودلكت قدمه من الناحية التى كان يعرج منها. « كيف الحال الآن؟».

« على مايرام ياناتاشا، شكرًا. الحمام جاهز».

لاحظت "ماريانا" أن الشاب الفلسطينى بالفعل يسير بشكل أفضل، لقد أوفت "ناتاشا" بوعدها. العلاج الطبيعى بالإضافة إلى القدم الخشبية جعلته يسير بلا أى مضايقات أو أصوات.

أحضر «حكم»، مناشف للمعلمة أيضًا. ستدخلين الحمام معى ».

لم تستطع الرفض. تبعتها نحو الحمام، مكان واسع يبرز فيه حوض دائرى رخامى. القبة كانت مفتوحة على شكل نوافذ زجاجية مربعة ليدخل الضوء خافتاً. قطع من السماء الصافية. بعد قليل سيغطى البخار الزجاج والمكان كله على حين ستقفز المرأتان فى حوض الماء الساخن الذى سيفيض منه الماء للخارج. كان أشبه بجاكوزى عصرى، بهذا الاسم فقط كان يمكن أن تسميه "ماريانا"، لكن فيمَ يهم هذا...

بعد قليل فُتح الباب ودخل "أحمد" بمنشفة كبيرة على وسطه. أخذ قطعة من الإسفنج واقترب من الحوض وبدأ يدلك "ناتاشا" ثم "ماريانا" التى استرخت فيما بعد تماماً. جعل المرأتين تطفوان على سطح الماء حتى يتسنى له أن يدلكهما بسهولة فى الوقت نفسه وعلى التبادل. كان يبدو مكتمل الرجولة، كان يخفى تحت الملابس الفضفاضة جسداً رياضياً جميلاً شكلته الحياة والمتاعب، خطوط أجساد مثل هذه لا تكون فى صالات الجيم الفاخرة.

للحظة يداه الماهرتان غاصتا فى الماء الساخن فلم تستطعا أن تكتما بتنهيداتهما كان. "أحمد" جاهزاً غاص فى الماء هو الآخروسبح فوق جسديهما. فى البداية شعرت "ماريانا" به يطفو على الماء ثم شعرت بثقل مضاعف فوق جسدها. حبس أنفاسه بصعوبة وغاص بين قدمى "ناتاشا". كان يحرص أن ينظم أنفاسه حتى يدلك المرأتين. راحت "ناتاشا" لا شعورياً تمسح حول ثديها المنتشى. بعد ذلك شعرت وكأن قطيعاً من الأسماك يمر عبر جسدها.

شعرت "ماريانا" بعد أن خرجت من الحمام أن قدميها قد ذابتا، لكن في الوقت نفسه كانت تشعر بخفة شديدة لم تشعر بها إلا بلمسات يد "صابات"، قد مرت أسابيع منذ آخر مرة شعرت فيها بانتشاء كامل. لكنها قد شعرت بالانتشاء على أية حال دون أن تكون في حالة جماع كامل. لكن إذا فكرنا في ما تحمله من إفرازات في ظل وجودها في هذا البيت مع هذا الكم من الرجال...

نظرت إلى نفسها في المرآة وهي تجفف شعرها وتساءلت إلى متى ستعيش في هذه الأسطورة. ولكن مع الأسف، تعبأت المرآة بغيوم البخار قبل أن تصلها الإجابة.

ارتدت فستاناً وجدته معلقاً على مشجب في خزانة ملابس غرفتها، فستان أنيق قديم التصميم ومحتفظ برونقه تماماً. كانت "ماريانا" قد قالت لها أن تختار ما يعجبها. الغرفة كانت ذات طابع قديم يعود ربما للحرب العالمية، كل الأشياء فيها تقول هذا، السجاد، الستائر التي أعطت روح عصر قديم.

سمعت أصوات من الصالون. كانت "ناتاشا" تعتاد أن تدعو أشخاصاً ليس لهم سابق معرفة ببعضهم، كانت تقوم هي بالتعارف ثم يصبحون بعد ذلك أصدقاء.

على الطاولة كان بالفعل يجلس "تيتو" مع صديقين له في الثلاثينيات. "جاك" و"رفيق" يجلسان بجوارهم. و"صابات"... بين المدعوين! وكان "أحمد"

يشرف على شابين يحملان الأطباق. راحت "ناتاشا" تشرف على المطبخ، فكل ما تم طهيه كان تحت إشرافها وإمرتها.

من البداية كان الحديث يدور حول مكان المعرض في الربيع وترتيباته، وكذلك طريقة عرض الأعمال. "فاسيليس" سيكون مستعداً، غاب اليوم عن المأدبة، لأنه كان لابد أن يذهب على عجل لزيارة أمه المريضة في "ثيسالونيكي".

وصل صديقا "تيتو" الأجنبيان صباح اليوم وسيمكثان ليلتين فقط في "أثينا"، "ألمانيا" هي محطتهما النهائية حيث سيشاركان في معرض كبير للوثائق. رغم هذا استطاعا أن يستثمرا الوقت وتحدثا مع "تيتو" عن بعض التفاصيل بالمعرض. تحدث إليهما "تيتو" عن أعمال "فاسيليس" وشرح لهما الطريقة التي سيعرض بها "الجحيم"، على حين بدا عليهما الانبهار من الطريقة التي وظف بها "فاسيليس" الموديلات البشرية.

درس ربيع المسرح في الجامعة اللبنانية في بيروت، كان "بلال" يلعب بعض الأدوار في المسرحيات التي كان ينفذها على فترات. كان يكتب في مجلة ثقافية أسبوعية تسمى "الملحق" حيث كان عضواً بأسرة التحرير.

أحضرا فيديو لأحد عروضهما القديمة التي عرضت في بيروت ثم بعد ذلك في مهرجانات مختلفة في "القاهرة وباريس وفينيا وعمان وتونس" أيضاً.

قــال "بلال": «يمكن أن نريكم فـيـديو كنمـوذج» كـانا يتــحــدثان الفرنسية والعربية عندما يوجهان الكلام إلى "ناتاشا" و"تيتو".

تم سـحب أطباق السلاطات العـمـيقـة من على الطاولة. أحضـروا أطبـاقًا جـديدة، فـلافل وسـلاطات رطبة بالنعنا ع والبـرغل، لحم مشـوى وطبق الحلو كان جيلى شيكولاتة بالنعنا ع والذى لقى الكثـير من الثناء مما جعل "ناتاشا" تفتخر لأنها صنعتها بنفسها. لكن "حكم" ساعد كثيراً فى الطهى .. أكدت "ناتاشا"، وقالت إن الصـغير تعلم الطهى حيث كان يرتجل بمقادير بسيطة فى البداية.

بدا "صـابات" كالمعاقب بجوار "ناتاشا" وأمـام "ماريانا" التى كان يتحاشى النظر إليها. بالتأكيد قد عرف عمًّا حدث فى الحمام، فدخل فى اللعبة نفسها هو الآخر، قد صارت البداية، على أية حال الآن لم يعد هو الوحيد الذى لمسها. لكن هل سيقتنع أو يقبل أن "ماريانا" لم تنم مع أيّ رجل حتى الآن فى هذا المنزل؟.

كان واضحًا على "صابات" أيضًا أنه غير معنىّ بما يحدث حوله، كان ملتفتًا أكثر لطاقم العمل فى البيت أكثر من اهتمامه بكونه يجلس معهم رأسًا برأس على الطاولة نفسها كأحد المدعوين. لكن لماذا وضعته "ناتاشا" بينهم؟ لماذا تجعله يجلس مع أصدقائها من المثقفين؟.

ليكير، روزيه، نبيذ وقهوة. والوقت يمر. توسلت "ناتاشا" إلى "رفيق" أن يقرأ قصيدة والتقطت بسرعة كتابًا صغيراً، من ضمن كتب أخرى موضوعة على خزانة الأطباق اتضح فيما بعد أن أغلبها كتب زينة.

قال "جاك" ناظراً إليهم بإيماءة: « إنه يلقى بشكل رائع...».

بدا أن الجميع يعرف الشاعر السورى "كمال أبو ديب" ومرثاته « فى بابل الأصوات ».

فى لحظة ما سُمعت أصوات عالية بلغات كثيرة وحينها أجبرت "ناتاشا" كل مدعو أن يكرر اللازمة بلغته...

وهكذا، وبهذا الشكل سُمعت كل اللغات الموجودة: اليونانية والفارسية والتركية بالإضافة إلى الإنجليزية والفرنسية.

عندما انتهت القراءة، كان لجاج بعض الاعتراضات على الوزن إذ إن لغته كانت تسمع غريبة ونشازاً، واتفق الجميع على أن الأمر يختلف عندما يتحول الشعر الشرقى إلى لغة غربية. المزاج الشرقى لليلة والمناهض للغربى استمر مع السجائر والسيجار والسجائر الملفوفة بأنواعها.

« أنا أى لغة أتحدث الآن؟» هواجس "ماريانا" المستمرة ظهرت على حين كانت فى طريقها إلى المطبخ لتملأ إبريق الماء. شعرت بذنب عابر تطور إلى صرخات مؤلمة: أبناء عموماتها فى كونيكتكت، أصابهم الرعب عندما سمعوا عن جنسية الرجال الذين تتعامل معهم مؤخراً. سمعت صرخات عمتها "دوريتاس" وهى تقول إنها كانت على وشك أن تذهب إلى مكان الضربة الإرهابية لولا أن شعرت بألم فى أسنانها فى هذا اليوم المصيرى...

ربما أصابها الدوار من النبيذ، إذ إنهم شربوا ثلاث زجاجات حتى الآن. كان كل من "أحمد وحكم" فى المطبخ يشربان شيئًا يخصهما، غير مشاركَيْن فى الاحتفالية الجارية فى الخارج.

تطوع «حكم» لمساعدتها. كان طيبًا ومتواضعًا طويل الشعر ممسد بالجيل، ولد لم تسعفه الحياة أن يعيش طفولته، لكنها أسعفته أن يدوس الأرض الخطأ.

قال: « غدًا سأذهب إلى بيتى » سأتكلم مع صديق، قالت "ناتاشا": سيأتى صديق آخر،

« ليأخذ مكان مَنْ؟ »، سألته "ماريانا" وهى تقترب منه بشكل وديع: ألا تريد أن تبقى هنا يا "حكم"؟. يمكن القول إنها كانت تتحدث مع "حكم" أكثر حتى تتخطى ارتباكها من رؤية ووجود "أحمد" بهذه السرعة وعلى هذه المقربة منها؛ وكى تتخطى ضوضاء اضطراب مشهد الحمام فى ذهنها.

« أنا؟ لا أدرى. أنا أريد أوراقًا، باسبور، أريد عملاً، لا اختباء...» حاول أن يشرح لها ليذهب إلى الصالون كى يأتى بأطباق أخرى.

كان "أحمد" غارقًا فى التفكير يدخن. كان وسيمًا بالفعل وواثقًا من نفسه تمامًا، لكن هذا هو كل شىء. ماذا يمكن أن يكون؟.

ضحك لها بمرارة. كما لو كان كومبارس فى قصة بالكاد تعنيه. "ماريانا" التى كانت تفهم الرجال – على الأقل الذين عرفتهم – حتى من

طريقتهم فى قص أظافرهم، كانت تشعر أنها مسلوبة الأسلحة أمام هؤلاء «الأجانب». حتى لو كانت محملة بكل الحيل والشفرات، كانت كلها تفقد مفعولها.لهذا آثرت الصمت، صمت مرير، تماماً مثلما تسمع نكتة بلغة أجنبية ولا تستطيع أن تشارك الآخرين فى الضحك.كلما أدركت وتأكدت من هذه المسافة، أصابها الخوف الذى يكاد يتحول إلى رعب، مثل الأزمة الوجودية التى أصابتها فى جنازة أمها. لم يكن سوى "رفيق" من كل الحاضرين الذى استطاع أن يلاحظ هذا الخوف، لكنه تعامل بهدوء شديد، كما لو أن الشأن لا يخصه.

From: antonios@yahoo.in

To: marian@helnet.gr

Subject: Gods Navatean

أختى الصغيرة الحبيبة، جميل أن تذكرينى من وقت لآخر. ماذا أصابك وتبحثين عن النبطيين المنسيين وآلهتهم؟ كانت هناك حضارة مهمة فى جنوب سيناء فى ٦٠٠ قبل الميلاد تقريباً. كانوا رعاة غنم رحل وتجار قوافل، كانوا يكسبون من التجارة فى غذاء الخيل. سكنوا فى مكان غنى كان حتى وقتها غير مأهول بالسكان بالقرب من البطرة «مدينة حمراء كالوردة، قديمة قدم الزمن».

فى عصر المسيح كان للنبطيين مملكة مستقلة، وصل نفوذهم حتى دمشق. رغم العداء والعلاقات الحادة مع الرومان، واستمروا فى كونهم قوة عربية مؤثرة حتى جاء النبى محمد.

«اللاتو» عند السومريين، تعنى الإلهة، وهو لقب "لإيرسكيجال"، إلهة العالم السفلى. "الـ" هى أداة تعريف مثلما فى كلمة « الله» بفتح الألف أو

بكسرها وهى كلمة تعنى "الرب أو الإله"، الـ لات « الإلهة» تضاهى كينونات إلهية عديدة، فاللات بالفعل هى حالة تتطابق والإلهتين "أثينا" و"أفروديتى" معًا.

يقال إن ربة النبطيين (بنى نبط) كانت العزى "القوية"، وأنها ظهرت أو نتجت عن كينونة إلهية أخرى خارقة القوى لحضارة كانت تنتشر بشكل مستمر. يوجد نقش لها فى جزيرة "كو" فى اليونان. توجد أيضًا "العزى" فى مدينة "حران". كان هناك اعتقاد بقدراتها.

"العزى" كانت ربة ينابيع المياه والخصوبة، أيقوناتها منقوشة فى معبد فى البطرة. كما أنه يشار إليها فى نقش فى "البصرة" على أنها كانت إلهة المدينة، وأن عبادتها استمرت فى "مكة" إلى أن جاء الإسلام. لكن هناك دلائل لعبادة "إيزيس" وجدت على نقوش النبطيين فى مصر. وهذا يدل إلى أين كان يصل النبطيون التجار برحلاتهم وكيف أن عناصر من الإلهة "إيزيس" قد نقلت إلى إلهتهم "العزى".

ماذا أيضًا؟ كانت إلهة الخصوبة والأرض والعالم السفلى. تظهر فى دائرة الأبراج الفلكية للنبطيين، تظهر كربة السماء فى مخطوطات أثرية كثيرة. فى البطرة يوجد عدد مهم من الآثار التى توضح أهميتها كإلهة وأهمية عبادتها. بعض هذه الآثار عبارة عن: خاتم – ختم منقوش عليه الإلهة عارية، إلهة ترتدى التاج تمثل الأنوثة فوق دلفين، دلافين منقوشة على أفارين، أصداف منقوشة مهداة إلى "أفروديتى".

عموما، كانت النساء تلعب دوراً مهماً فى مجتمع النبطيين. كانت لهم ثروات وكانت شجرة العائلة تنسب إليهم.

هل تريدين معلومات أخرى؟ خبرينى عم تبحثين بالضبط؟ هل مازلت وحيدة؟ "ميشيل" ترسل إليك قبلات وتتساءل متى ستأتين؟. تعالى، ألم تملِّين من القطر اليونانى الصغير؟.

قبلات،

أنتونى

تخلصت من كل فتيان البيت ليوم كامل؛ كانوا يحتاجون لالتقاط أنفاسهم وهى أيضًا؛ أخذت "ماريانا" فى ذلك اليوم من يدها وخرجا لتمشية فى الحى (نتحدث عن "ناتاشا" التى لا نتفق معها أو نتبناها إلا مرات قليلة، بعض الأحداث من الممكن أن توصف فى نطاق وجهة نظر الراوى العليم، التى لم نرفضها تمامًا).

•

مبكرًا فى المساء، الشوارع مزدحمة، سيل من السيارات، على حين هما تدخلا من شارع "كافالاس"، متجهتين يمينًا نحو شارع "تيرمبيلون" ليخرجا إلى شارع "بيريوس". كانت "ناتاشا" ترتدى نظارة شمسية دكناء على الرغم من السحب التى عبأت سماء المدينة، كان يبدو عليها الرضا من كل ماحدث فى الأيام الأخيرة.بالطبع حقيبة يدHermes مناسبة لهذا الوقت كانت تزين يدها الحرة بشكل طبيعى، كما لو كانت امتدادًا طبيعيًا لذراعها. امرأتان تتأبط الواحدة ذراع الأخرى تتمشيان فى شوارع الحى فى وسط المدينة، هذا المنظر غير معتاد: لا أحد يسير بهدوء فى الشوارع، الكل يسير بإيقاع سريع.

امتلأت الشوارع بالمحلات الصغيرة فى الفترة الأخيرة، متجر للحلويات تم افتتاحه قبل أيام قليلة، متجر آخر يبيع أدوات الزينة، على حين كان هناك بيت للمتعة عليه مصباح أحمر مضىء فى الخارج، فى الدور الأرضى من بناية ذات طابقين، متروك للزمن وللدعارة. عبرت السيدتان بجوار النافذة المنخفضة للمبنى، سمعتا صرخة مدوية طويلة. صوت صرير فراش حديدى. توقفتا للحظة فى مكانهما، مخاطرتين بأن يساء فهمهما من المارة. ولكن، كانت الصرخات تأتى من خلف هذه النافذة؛ من خلال فتحة ضيقة بين درفتى النافذة الخشبية كان يُرى ضوء خافت فى الداخل.

قالت ناتاشا: « مهنة صعبة ».

« كم أود أن أرى كيف تكون امرأة كهذه...».

قالت "ناتاشا": « تساءلت إن كانت تعد زبائنها » استمرت فى السير بصعوبة فى الشارع الضيق.

المقهى المصرى كان نصف ممتلئ. جلستا من ناحية الشارع، شردتا فى حركة الشارع والناس بالخارج؛ مجموعة من السائحين، يسيرون مجتمعين نحو مبنى يعود لعقد السبعينيات، تم ترميمه وتجديده من أجل الألعاب الأوليمبية. مر السائحون منحنين متململين، كان هناك أحد يوجههم، رحلة مليئة بالتوجيهات. تعثروا فى سقالات البنايات القديمة التى تحيط بالمنازل القديمة، يحاولون مضطرين لسنوات إعادة ترميمها والانتهاء منها.

علقت "ناتاشا" وهى تشاهد امرأة من السائحين تحك رأسها: « لا يوجد شىء أسوأ من السياحة. محض معاناة للبشر، لا يفهمون شيئًا، ليس لديهم دافع. الرابح الوحيد المكاتب السياحية، وليس سكان البلد».

اتفقت معها "ماريانا"، تذكرت رحلة مع والدتها ومجموعة كبيرة من النساء ذهبن فى رحلة بحرية إلى جزر "الكيكلاديس". كاد الجنون يصيب "ماريانا" الصغيرة، اشتاقت إلى حجرتها وصديقاتها، فضلاً عن أنها كانت تسمع صراخ وضحكات جمع من النساء طيلة الوقت ولم تكن ولم ترد أن تفهم شيئًا مما يقلنه، نساء يأكلن طيلة الوقت إما فى الموانى أو على متن السفينة، هذا فضلاً عن الأطعمة التى كن يحملنها.

بعد فترة بدأت أمها فى الرحلات التعليمية، كانت تذهب مع جمعية نسائية، رحلات بعيدة... لابد أنهن ذهبن إلى أعماق الشرق، الصحراء، تذكر هذا كذكرى بعيدة من طفولتها، لكنها لم تكن تهتم آنذاك. فقط الرحلة إلى "ثيساليا" كانت تعنى لها الكثير، أيام قلائل فى مزرعة، هذه الرحلة لم تخرج أبداً من ذاكرتها...

قالت "ماريانا"، فى محاولة منها أن تهرب من التفكير فى تلك الذكريات: « القليل يعرفون لماذا يسافرون».

« يعرفون أين يجدون وماذا يطلبون. كل الآخرين يرهقون أنفسهم بلا مغزى... ». أضافت "ناتاشا" وهى تشير إلى صاحب المقهى.

قالت "ماريانا": « أنتِ لا تنتمين إلى هذه النوعية ياناتاشا...» وللحظة أو اثنتين كانت نبرة صوتها متشبعة بشىء من الإعجاب واعتراف بجدارة من تحاوره.

« لا، وأفتخر بهذا، لكن فى سفرى كنت أجمع بين حب الأماكن وحب الناس. فلا يوجد ماهو أفضل من هذا! إذا لم يحتك المرء بسكان الأرض، بالمحليين، فبمن سيتواصل، بالبنوك أم بالتذكارات التى تلقى بها فى القمامة بعد شهر؟ ».

قاطعهما المصري: « مدام "ناتاشا" وآنسة "ماريانا" » قال وهو يترك على الطاولة فنجانين ساخنين من القهوة.

اندهشت "ماريانا" من الرجل الذى تذكر اسمها بهذه السهولة.

سألته "ناتاشا": « متى ستقرأ لنا زوجتك الفنجان؟».

« ليس اليوم، فهى مريضة...».

تحدثا عن رخصة المقهى التى لم تصدر حتى الآن. هناك مطعم لبنانى تم افتتاحه فى شارع "يوربيذيس" وحصل صاحبه على الرخصة بسهولة، أكد لها صاحب المقهى.لماذا؟ اتصلت "ناتاشا" فى التو بالمحامية

وتحدثتا بشىء من الحدة، بدا من نبرة الصوت والحديث أنهما صديقتان لم يتقابلا قط.

« لقد استنزفت "ذاناى" منى أموالاً طائلة، وهى تستحق ذلك، فهى تنهى لى كل أعمالى...».

- ودت "ماريانا" أن تعرف ماهو حجم ثروة صديقتها، كم تنفق،؟ كيف أن هذه الأموال لا تنفد أبدًا...؟.

« ولكن الأموال تنفد...» راحت "ناتاشا" تتحدث وحيدة كأنها التقطت حبل أفكار "ماريانا"، أو أنها(قد خمنت ماتفكر فيه).

« تنفد الأراضى والثروات والميراث، لكنْ أصدقائى لديهم أموال. مازلت أملك البيت بالطبع، هل تعلمين كم عرضوا علىّ ليشتروه؟ ».

ثم ذكرتْ مبلغًا خياليًا.

« لا يمكن أن أبيع هذا البيت تحت أى ظرف، لا أحب أن أعيش فى مكان آخر فى "أثينا": هنا سحر المدينة، هنا نصف جذورى. أشتاق أن أعود إلى النصف الآخر منها...».

« تلجئين كثيرًا إلى الماضى ياناتاشا...».

« كلنا لدينا ماضٍ من رواسب العالم. حتى أنت، وإن كنتِ تظنين أنكِ تنتمين إلى أصغر عائلة فى العالم. ليس الأمر هكذا. كانت أمى تقول إن الجدات يحملن علامات من السابقين القدماء، ينحتنها على

الحجارة، يحملنها معهن كحمل لا يطاق. ماذا تظنين، أليس هو زمن طويل خمس وعشرون جدة فيما سبق. نحن هناك، وإلى هناك نذهب، ومن هناك ننحدر...»،

« كم هى العلامات والآثار التى تم إنقاذها منذ أن كانت تلك الإلهات تعبد فى الصحراء؟... ».

نظرت "ماريانا" إلى راسب القهوة، تلال سميكة ومظلمة. هل تنبئ ياترى بشيء جيد؟، هل يجب عليها أن تأخذ المنجمات مأخذ الجد، بما فيهن السيدة يورغيا؟ هذه الأيام كانت "ناتاشا" تكشف عن جوانب مختلفة من نفسها.

« أريد أن تكونى مستعدة لكل ماسوف تكتبينه من الآن فصاعداً. تشاركيننى وتقاسميننى كلماتى وتعطيها صبغة أدبية. الكتابة عند العرب كانت أحد أنواع السحر. اللعب بالكلمات يسحرهم. من الآن ستسمعين عن أشياء أكثر أهمية. لهذا أردت أن نكون وحدنا اليوم... هيا بنا؟».

ذهبا. حل المساء على "أثينا" الخريفية الباردة. المسارح الصغيرة كانت تضيء بجوار بيوت المتعة الضيقة التى كانت تستقبل روادها القليلين أيضاً. كأن هناك اتفاقاً غير معلن بين الناس الذين يتجولون فى هذه الساعة. السكان يتجهون لبيوتهم، ضوضاء من مدرسة إعدادية مسائية حيث كان الأولاد يفيضون من البوابات الحديدية للمبنى المدرسى، صالة الجمنازيوم كانت تستقبل الرياضيين من الشباب

الصغار، فى محل البقالة والفاكهة كان السوريون يرتبون الفواكه والخضروات فى أشكال هرمية على الأقفاص، كان الرصيف بالكاد يتسع لها، على الناصية محل يبيع ملابس داخلية غالية الثمن يجذب العيون إلى المظاهر المثيرة (مَنْ مِنْ الممكن أن يشترى سراويلات ذات ماركات عالمية وغالية الثمن من هذا الحى؟)،المقهى - البار الجديد لم يمتلئ حتى الآن، ربما كان السبب هو اللون الأدكن للديكورات الخشبية -، صانع البراويز كان يرتب نافذة العرض ويضع لوحات لرسامين مجهولين...

ذهبا، دخلا إلى البيت، أغلقا خلفهما البوابة الجميلة المنحوتة، جمعٌ من الأطفال يلعبون الكرة فى الشارع الضيق، توأم الكلاب ينبح.

دخلا إلى البيت الذى كانت تفوح منه رائحة منسية من الياسمين والبخور المحروق. تلك الرائحة التى كانت تهيمن على الأرواح على حين يُسمع صدى الأنفاس تخرج من كل جانب. شىء غريب، فعلى الرغم من أنه خالٍ من الرجال. فكم هو حقيقى أنها بالفعل كانت تحتاج إليهم، وعلى الأخص، لماذا هؤلاء بالتحديد؟.

* * *

هناك خط من العبادة كان يربط بين "الإسكندرية، قبرص، البطرة، حران" وينتهى بصحراء "نجف" عند القلاع الحجرية. هذا ما كان يزعمه والدها منذ سنوات، وعن هذا العنصر الموصل قضى حياته يبحث عنه.

طقس عبادة البنت العذراء كان يحدث هنا، فى معبد الأنثى، حيث جاء بهما الرجلان عند أطلال على تل رمادى ليلاً، كانت الكلاب الضالة لا تكف عن النباح، والبعوض يهدد كل جزء مكشوف من جسديهما.

بالرغم من أن النوايا الجنسية للرجلين كانت واضحة إلا أنهما كانا يستطيعان خداع أكثر النساء حذرًا، مثل "رانيا وناتاشا" مستغلين الأماكن التى كانت المرأتان تبحثان عنها فى ورع. بدأت "رانيا" تشعر بالتعب، الطقوس لم تكن تهمها كثيرًا، ولا كل مايحدث فى ليالى السهر عند مذبح الإلهة.

تركت نفسها بسهولة بين يدى "يعقوب" الماهرة، الذى اختلى بها خلف أشجار منخفضة، رغم الخوف من الثعابين الليلية استلقيا على الأرض الساخنة وبدأ يقبلها. أغلقت "رانيا" عينيها وتساءلت، لأى سبب استأجرتا غرفتين، ولماذا كان عليهما أن تصلا حتى هذا المكان كى تستسلما بين أحضان مرافقيهما. عندما أغلقت عينيها استرجعت ذكرى رجل لم يبارح غرفتها فى فندق "رونوس". لكن "يعقوب" كان مختلفًا ولتجربته ثقل آخر أثارت اهتمامها فى وضعها الحالى. تألمت كثيرًا وغضبت من نفسها إذ إنها تلذذت بإحساس الألم فى لحظة نشوتها.

كانت "ناتاشا ترتدى عباءة بيضاء، أصرت أن تتفحص المكان - ربت المرشد على القلادة الثمينة التى تتدلى من عنقها، وبدا وكأنه يشتاق إليه أكثر من العنق الذى تزينه. كانت "ناتاشا" قد سمعت من قبل "رانيا"

وهى تتنهد من النشوة فى مرات أخرى وكانت قبل الانتهاء يرتفع صوتها نوتة أعلى من المعتاد. لكن فى هذه المرة وفى هذا المكان، ربما الليل وثمة قوة خفية لشيء ما فى هذا المكان لم تستطع إحداهما أن تحدده دفعهما نحو الإحساس بذروة النشوة. بالفعل، فقد كانت صرخاتهما بمقدورها أن توقظ سكان أبعد المناطق السكنية، وحتى فى المخيمات، والقوافل الرحالة والحمال والقوافل التى نسيت على رمال الزمان. نعم، كان إحساس بأنهما فى أجواء خارج الزمان والمكان. لم يكن الأمر ثمة إيحاء ذاتى أو هوس بالطرف الآخر.

قالت "رانيا" بعد ساعات فى الفندق: « ارتعبت من نفسى»، على حين كانت تعد حقيبتها لمرة أخرى. يومين، بعد هذا اعترفت بأنها تضررت جنسيًا وعاطفيًا.

تحسست "ناتاشا" القلادة على عنقها، شاعرة بشيء من القلق لكنها منقادة تمامًا نحو الواقع الجديد، القوة التى تستقى من هذه القلادة. فى اللحظة التى شعرت أن هذه الحجرة الثمينة على صدرها تشتد حرارتها وتتعكس مع ضوء نجم فى السماء كانت تلك هى اللحظة الفاصلة التى أضاءت فيها كينونتها. وحدة كونية كانت تستوعب كل مكوناتها.

« هل أنت خائفة يا"رانيا"؟»، على حين كانت الأخرى تتأوه وهى تغتسل مرارًا وتكرارًا بالمطهرات.

« أنا مترددة "ياناتاشا"، وأظن أن الرحلات التى تنظمينها تُعنى بمناطق تخصك بشكل شخصى، هذا غير أننى لم أعد أحتمل، لقد زاد وزنى من كثرة الطعام...».

« أنتِ حرة إذا أردتِ، اذهبى إلى بيتك، سنلتقى بعد ثلاثة أشهر مجدداً. يمكننا أن نتركك فى قبرص...».

«وماذا عن جاك؟».

« هناك احتمال ألا يتبعنا هو الآخر...».

قالت "رانيا" وهى تنقض على طبق من الحلويات: « مستحيل يا "ناتاشا"، إذن لن أذهب إلى أى مكان، لا أستطيع أن أتركك وحدك...».

« ربما يكون هذا ما أحتاجه، أن أبقى وحدى لبعض الوقت... سأجد صحبة عندما يحتاج الأمر، لا تقلقى، الذى لا تفهمينه أنت وجاك أننى لست غريبة فى هذه الأماكن التى أنتوى التوجه إليها. لدى مايلزمنى من مؤن وقوى خفية...».

« يعقوب يريد أن أبقى معه ...».

« ولما لا يا رانيا؟».

« لأننى لو بقيت هنا سألعب بشروطه، يقول إنه سيذهب بى إلى بيته حيث يعيش مع أمه وإخوته... هل تتخيليننى امرأة مطيعة فى وضع العشيقة غير اللائق؟ ».

« لا أرغب حتى فى تخيله...».

الرحلة نحو "قبرص" ستستغرق ساعات طويلة، البحر على مايرام، البحر الليبى كان يبدو كسجادة تحمل السفينة. كانت الليالى أكثر من رائعة والقمر يبدو أكبر حجمًا حيث لم تستطع أيٌّ منهما أن تغط فى النوم. كان نجم الإلهة مضيئًا على الدوام، كأنها بوصلة ثابتة فى طريقهما.

كان "جاك" فقط فى القبو السفلى من اليخت فى كابينته ينام عاريًا فى حضن كتب الفلسفة الحداثية الأفلاطونية. البحارة الاثنان كانا يتجولان على سطح المركب مرتديين بنطالات قصيرة، المرأتان كانتا تدخنان باستمرار وتلفان جسديهما بأوشحة شفافة إلى درجة غير مرئية.

« أمى... كم من المصاعب مرت، وكم من الأشياء لم تفعل ! فى الوقت الذى كانوا يجهزونها إلى صالونات الأثرياء، وجدت نفسها وحيدة فى أحياء "بيروت" الفقيرة ثم فى "القاهرة" بعد أن مات أبى. لم أحدثك قط عن موت أبى، لم أشأ أن أستدعى ذكراه... لم يُكشف شىء حتى الآن بعد كل هذه السنوات. عندما أطلقوا عليه الرصاص فى "أثينا" خارج أبواب المدرسة الأمريكية، حيث كان سيلقى محاضرة هناك... تحدث الجميع عن أن الأمر كان خطأ وأن الرصاص كان موجها نحو شخص آخر... كان عام ١٩٧٤م، تمامًا بعد أن سقط حكم العسكر الديكتاتورى

فى اليونان، كنت صغيرة مازلت أذهب إلى المدرسة. أمى المرعوبة أخذتنى ورحلنا عن اليونان. لم أشأ ذلك على الإطلاق حيث كنت أحب العيش فى بيت جدى، كنت قد وجدت نفسى فى دور التلميذة اليونانية – هذا ماكنت أشعر.

« كم كنت مخطئة... فى "بيروت" كل شىء سيتغير. لم تكن الأوضاع جيدة على الإطلاق، لم تكن لأمى رغبة فى أن تلجأ إلى أوربا، كنا نستطيع ذلك بسهولة إذا هى أرادت، أن نذهب إلى "قسطنطين" فى "برلين"، وهو مافعلته أنا فيما بعد.لكننا اتجهنا شرقًا نحو "دمشق". كان لديها صديقات هناك، كانت تعرف أناسًا مثقفين ومتعلمين وكانوا على علاقة بـ "أنجلو"، وسط الأثريين. كانت امرأة تستطيع التكيف مع الآخرين، سواء كانوا بسطاء أو من النخبة. كانت تريدهم حولها، كانت تخشى من شىء، من خطر ما، شيء قدرى. لا، لم يكن الرصاص، كانت تخشى من القدر، الذى كانت تزعم أنها قادرة على قراءته...».

ألقت "ناتاشا" نظرة على نجوم الليل الساطعة.

« أتدرين يا"رانيا"، أنه مثبت علميًا أن هناك نجمًا له اسم العزى؟ هاهو ! ».

وأشارت إليها نحو السماء والأخرى آلمت عنقها من التطلع نحوه كى تراه.

« أنتبعه نحن، أم يتبعنا هو؟ أتساءل من الذى صنع من، هل صنعت النجوم الآلهة أم أن الآلهة هى التى صنعت النجوم؟ ».

كانت "رانيا" تسمع وتفكر فى الرجل الذى تركته خلفها. رغم كل الوعود باللقاء، كان هو مجرد قطرة فى بحر الوجود، مجرد حدث عابر سيمحى ذات يوم بفضل الشطب البيولوجى التلقائى للذاكرة. كانت "رانيا" تتألم من أجل الرجال الذين تتركهم، كانت تنشغل بحياتهم، على عكس صديقتها التى كانت تقضى على وجودهم أولاً بأول، وتحتفظ بهم فقط كتدوينات فى دفاترها السرية.

"رانيا" لم يكن لديها أى تشبث بالماضى، لم تكن لديها رغبة أن تبحث فى العالم القديم حتى تجد تبريرات لتصرفاتها كانت تسعى إلى درب صغير، شق أو نصيب فى أحداث ملايين المخلوقات. حيوات لم يتطلع أحد إلى ترف الكشف عن هويتها. مثل أمها، عمتها "أولينا"، مثل بيتى، ابنة عمها "سافاستيانى" التى همست لها ذات يوم أن بين أحضانها أجمل رجل فى العالم ولم ترد أبدًا أى شىء آخر. بينما هما؟

« نحن، ياناتاشا؟».

« نحن ماذا؟».

« ماذا سيحدث لنا؟».

« هل تودين أن أجيبك الآن بالضبط ياعزيزتى؟».

« لا، يا جميلتى. حدثينى عن "دمشق"... وسأشعر أننى كنت هناك أيضًا».

* * *

قالت "ماريانا" بعد أن تنهدت بقوة : « لو كنت فى مكان "رانيا"، كنت سأستمر، هذا إذا لم تكن لديك رغبة بالفعل أن تبقى وحدك...».

لقد تعبت "رانيا". السفر يحتاج إلى دافع يا "ماريانا". يحتاج أن يكون أحد بانتظارك، أو هدف تم تحديده... "رانيا" كانت واقعية. لم تكن لديه لا الرغبة ولا الشجاعة أن تسمع وتنقذ قصيدتها». (قالت كلمة قصيدة بالعربية).

« قصيدة»، شرحت لها المعنى ثم أضافت. « القصيدة هى الهدف والطريق الروحى للعثور على شعب الصحراء وفهمه. سيصل الشعر فيما بعد للمدن، وموضوع الحب سيتحول بعد ذلك بزمن نحو الشعر الصوفى، وفى الشعر بصفة عامة عند العرب تكون فيه المرأة بمثابة الهواء أو التنفس الذى سيصبح فيما بعد من أجل حب إلهى .

كل هذا الشعر وتصنيفات الحب والشعر الصوفى مابعد الإسلام كان شعرًا شفهيًا، لكن تم إنقاذه من قبل الرواة الذين كانوا بمثابة حارسى اللغة، ثم فيما بعد الباحثون والأدباء الذين راحوا يتتبعون الشعراء وحياتهم، أصدقاءهم وأقاربهم، وكان الرواة يحفظون الأشعار وينقلونها من جيل لآخر. وأحيانًا كان يتحور ويُجوَّد...».

تعبت أصابع "ماريانا"، مر الوقت ومازالتا فى أول الرحلة. كانت تخشى أن تضيع التفاصيل، فربما النتيجة النهائية لا تعجب "ناتاشا"، التى كانت تهدد بأنها ستضع فى النار كل جروحها فى نهاية رحلاتها، بعد العاشق الألف. صرحت "ناتاشا" بين الكلام ذات مرة أنها لم تكن حريصة على أن تبقى قصتها، لكن، عادت تفكر بالأمر بعد أن سمعتها مرة أخرى باختصار، خاصة بعد أن سمعتها تحكى بشكل مختلف.

فى تلك الأثناء دق الهاتف عدة مرات، مما أجبرها على أن ترد.

تحولت ملامحها إلى الجدية.

« "تيتو" ليس على مايرام... ذهبوا به إلى المستشفى...».

قامت مفزوعة، « لابد أن أكون بجواره...».

« ماذا به "تيتو" يا "ناتاشا"؟».

« وجدوه مغشياً عليه فى غرفته فى الفندق...لم يكن عليه أن يبتعد عنى ! أتمنى ألا يكون الأمر سيئًا. لابد أن أذهب الآن !».

أصرت "ناتاشا" أن تذهب وحدها إلى المستشفى ليلاً. استقلت السيارة الجيب وصدر صوت موتورها بقوة. رجت "ماريانا" ألا تغادر البيت،فربما تحتاجها فى أمر مهم.

وجدت "ماريانا" نفسها معلقة أمام الباب الخارجى للبيت لا تدرى ماذا تفعل. فكرت فى أن تذهب فى تمشية قصيرة لعشر دقائق لتفرغ

ذهنها المشحون. في هذا الوقت كانت أغلب الملاهي تغلق أبوابها على امتداد الشارع الرئيسي للملاهي الليلية التي تعج بكل الأسماء اللامعة والبراقة لنجوم الغناء، والذين كانوا يخرجون على المسارح ليغنون بعد منتصف الليل. أين يحدث هذا في أي مكان في العالم، فنان يحترم نفسه وفنه يذهب للغناء بعد منتصف الليل؟ فالأمر يرجع إلى قدرة المطرب نفسه – في كل النوادي الليلية في لندن كانت الحفلات تبدأ في العاشرة مساءً.

ذهبت ذات مرة إلى أحد هذه الملاهي مع "سبيروس"، الذي أراد أن يعيش جزءًا من اللهو اليوناني الليلي. لم تكن لديها ميول لمثل هذه الأشياء. كانت تسمع الروك البريطاني، بعض الموسيقيين اليونانيين، من عصور سابقة لكن صنعوا موسيقى راقية، وهذا كان الأمر كله – آه، ذهبت ذات مرة على مضض لتحضر حفلاً لفريق Franz Ferdinas ! كان ديفيد قد اكتشف هذا الجروب وأحبه بحماس شديد. ذكرى صدى الموسيقى حملتها إلى مذياعها الصغير الذي تضعه في مطبخ شقتها التي نسيتها تمامًا، فقد منحت نفسها كلية للحدائق المعلقة في "كيراميكو".

وقعت في أسر ماتكتبه، وبما آلت الأمور إليه حتى الآن كانت تعتقد أن إكمال خطة الكتابة لن يحدث إلا خلالها. الأخرى كانت تائهة في التطور الجديد للأحداث.

كانت تنظر إلى الصفحات الصغيرة فى التدوينات، ثم تسدل جفنيها فتصبح عيناها نصف مغلقة، تصيغ تعبيرًا حادًا يوجب عليها فيما بعد أوتوماتيكيًا أن تحوله إلى جملة كاملة. كانت "ماريانا" ترى أن تلعب دورًا مزدوجًا: حيث إن ليس لها خبرة فى الكتابة الإبداعية ولكن فى التفكير النقدى، كانت تكتب من خلال كل ماقرأته فى علاقة مع ما تعتقد أنه سيكون كافيًا أن يغطى أفكار وقناعات وهواجس "ناتاشا". بمعنى آخر، كانت "ماريانا" تكتب بنبرة وبأسلوب ليس لها، كما أنها كانت تكتب نوعًا من الأدب. بالطبع فى هذا النص العشوائى كان يغيب بعض التوازن والبناء الصحيح لنص طويل، لكن لن يقول لها أحد (أو من باب أولى ناتاشا) أن النص النهائى سيصل إلى مكتب أحد دور النشر. آه لو يعرف "يراسيموس باندزيكيس" أنها تخفى هذه الورقة بين يديها.

ضبطت نفسها متلبسة بالغيرة، وإن كانت فى نصف عمرها. منذ عشرين عامًا كانت "ناتاشا" تصول وتجول فى الموانى وفى صحراء الشرق، هذا الشرق الذى صار فى السنوات الأخيرة استشراقًا مصطنعًا، بالنسبة لناتاشا كان ببساطة هو عالمها الطبيعى، الذى عاشته دون أى تسامي. قصصها كانت تأتى من أمها، من الأصول العجيبة لجنسها، ومن أفكار وهواجس والدها أيضًا.

قالت : "ناتاشا"« «أمى» كانت من صناعة أبى. طبعًا لا أنكر أنه تعرف عليها بجوار أماكنه الأثرية المفضلة، لكن – فى النهاية – أظن أنه

أجبرها أن تتبنى أفكاره وتتوحد مع قصصه. بهذا الشكل عاد النفع على علم الآثار أكثر مما عاد على أمى».

بالفعل، كان الوجه المزدوج لناتاشا سؤالاً مفتوحًا. فمن ناحية كل هذه القصص والأساطير، ومن ناحية أخرى المواجهة المنطقية العقلانية لها. كيف يمكن أن تجعل امرأة من نفسها أسطورة وفى الوقت نفسه تدحضها؟ هذه الأفكار كانت تجتاح "ماريانا"، أفكار لتنظير جديد للأشياء والأمور. كانت مع "ناتاشا" تتصرف من خلال معايير منسية، تدخل وتخرج فى أعماق هواجسها ومخاوفها المخبأة، تصطدم بكل ماعرفته حتى الآن. بقيت كبنت تعانى من عدم الأمان. كانت تخشى من عدم المقدرة والعجز على مواجهة التحديات المطروحة.

غاصت فى الأريكة، تحسست الوسائد المشغولة المذهبة المتكومة لتتكئ عليها الظهور الكسولة، ومع بزوغ الفجر شعرت برطوبة غادرة ثقيلة تتسلل بمكر من الحديقة وتدخل إلى الصالون فبللت الوسائد. أغلب الوسائد كانت مشغولة بخيوط مذهبة بأبيات من الشعر العربى، كان من الصعب عليها أن تفصل بين التصاميم والحروف والقوافى. حكت لها "ماريانا" عن شعراء البادية الذين كانوا يتعارفون ويعرفون بعضهم البعض بالشعر والقصائد، بل ويتبارون ويتراهنون مقابل جوائز سخية حتى إن نساءهم كن جزءًا من المراهنات أحيانًا.

غلبها النعاس والحلم : رأت خارج الخيام البعض يعزفون على آلات موسيقية ويشربون النبيذ النقى من قربة، ولكنهم قطروا به عصيرًا

وزعفران. رجلان يغنيان، تعرفت على أحدهما، أما الآخر فقد أدار ظهره. كانت الأغنية عاطفية جميلة، بدأت تغنيها هى الأخرى، لكن البكاء والنحيب أوقفاها، إذ إنها لم تتحمل عذوبة اللحن.

استيقظت لبضع دقائق، ابتسمت من الشكل السينمائى للحلم، لكن اللحن كان لا يزال على شفتيها وحاولت أن تتمتمه بدأب. خسارة، ستنساه فيما بعد، هكذا هى الأحلام، لايتسع اليوم لها لتبقى. لم تأت "ناتاشا" بعدُ. نامت وهى تحتضن الوسادة بقوة. هكذا وجدها أول زائر، انحنى فوقها وغطاها. نظر إليها متسائلاً وعندما فتحت "ماريانا" عينيها سألت، «صابات؟ أين كنت طوال الليل؟».

قبلها قبلة غضة وتحرك بحيوية نحو الحديقة. الأغنية الحالمة استمرت فى الواقع، إذ كانت تسمع "صابات" يصفر نفس اللحن. يبدو أنها خلطت بين الحلم وبين المشهد فى الحديقة. أو ربما لا؟ الحلم سبق... استمر "صابات" فى عمله بالحديقة، كان يعتني بالحديقة وبكل ماهو أخضر فى البيت،كان يصدق أنه يعمل ويجتهد فى عمله مثل مهاجر مقبول فى منفاه. فى الواقع كان يعتني بناتاشا، كان يقع فى نطاق سلطاتها وأملاكها، ستغلق الأبواب فور أن تدخل. حدائق "بابل" كانت محدودة المساحة.

خرجت من الحمام وقد استيقظت تماماً. كانت "ناتاشا" فى المطبخ ورائحة القهوة تفوح فى المكان.

- سألتها: « كيف حال "تيتو"؟ ».

« لا نعرف حتى الآن، لا أريد أن أخسره...» دمدمدت "ناتاشا" بجدية. « كلما تقدم المرء فى العمر يصعب عليه أن يجد أصدقاء جدداً، وبالأخص أصدقاء أوفياء...».

اقترحت "ناتاشا": « لنذهب إلى الحديقة » وخرجا إلى الحديقة بعد أن لفا جسديهما بالأوشحة. جلسا بجوار الخيزران الرطب وشربا قهوتهما. كان "صابات" يرتدى زى العمل، انسحب نحو المضيفة ليمنحهما قليلاً من الخصوصية، من الواضح أن لديه علم بظروف سيدته.

قالت "ناتاشا": « إن "تيتو" قصة لا نهائية » وبدا عليها القلق عندما شعرت أنها بكلامها تؤبنه كأنه رحل بالفعل.

« تجرى فى دمائه نصف أوربا، تنحدر جذور أحد أجداده من صربيا. عائلات ثرية مترامية فى اتجاهات الأفق الأربعة. أبوه كان لديه أموال وفيرة وحرمه من الميراث صغيراً، بعد أن رأى أن ابنه ملحد وعاصٍ، جده الطاعن فى السن والذى كان يحبه كثيراً كتب له نصف ثروته وهكذا تم إنقاذه اقتصاديًا. أقول تم إنقاذه لأنه من صغره آثر الترحال بحثًا عن كل أنواع الثورات – أرى فى هذا شيئًا من الطرافة والأصالة معًا، كأنه عابر سبيل، مر من أمريكا اللاتينية حتى الشرق الأوسط، كان يحاول أن يغسل ذنوب العالم الذى ينتمى إليه ويحمله

بداخله. وعندما رأى أنه لن يستطيع أن يحمل السلاح، اتجه نحو الفن، نحو دعم المضطهدين من خلال الفن...».

« هل يمكن أن يحدث شيء كهذا، هل هذا معقولٌ ناتاشا؟».

« ربمالا يحدث، على الأقل ليس فجأة. الثورات ليست فنونًا تعبيرية. لكنها تعطى الفرصة لبعض الناس الذين لا يستطيعون النضال، أن يعبروا عن دعمهم. لم يكن "تيتو" يساعد الفنانين الذين كانت أعمالهم تنتهى فى الصالونات والمتاحف. وكان يحرص فى أكثر الأحيان ألا توجد مثل هذه الأعمال. لهذا تحمس كثيرًا لأعمال "فاسيليس"، وللفنانين من "بيروت" والآخرين الذين يكون مصدر إلهامهم هو نضال الشعوب المعاصر ».

« مع الآسف المبدعون دائمًا بعيدون عن ساحات القتال والنضال ».

« أو أنهم يبدؤون من هناك. أرى أن هذا الأمر يشغلك بقلق ياماريانا ».

ظهر "صابات" يحمل قَدُومًا معطيًا نهاية لعزلته.

« هذا الشاب الذى أمامك، ليس مجرد مهاجر. لم يحتملهم. خسارة أن تجتز شخصًا كهذا من حضارة بهذه العظمة، وليس هو الوحيد. هناك من رحلوا، بلعتهم الرمال...».

اقترب "صَابات" بنظرة ماكرة وطلب سيجارة. بالأساس كان يطلب صحبتهما، كان يود التحدث. جلس بلا دعوة، وهل يحتاج لدعوة! أرجله المفتوحة كانت تتحرك مثل أكورديون بيد واحدة.

« قالت لى "ماريانا" إنك لا تريد دروسًا أخرى. ماذا يحدث يا "صابات"؟».

« "ناتاشا"»: قال ووجهه ترتسم عليه الجدية بشكل غير طبيعى، « عندى أخبار جيدة من أجلى ».

ثم نظر إليهما بمغزى.

« أنا أغادر السويد ».

قالت له بشكل قاطع: « لتذهب سيساعدك الطقس هناك، فهو طيب للغاية».

« أنا لا يفهم...».

« قلت لتذهب، سترى كم هى بلد رائع... وسترى كم سيكون الإسكندنافيون لطفاء وحميميين معك .

« هناك أوراق جيد فى سويد، السويد تمنح أوراق فى الحال...».

« وماذا ستفعل بالأوراق يا"صابات"؟ ستكون بعيداً عن النور عن البحر المتوسط، عن الشرق ».

« أريد عمل جيد، أوراق... اليونان لا أوراق ».

قـالت له "ناتاشـا" بسخرية. كانت غاضبة: « تزوج من يونانية...» « ولا تحرك أرجلك هكذا، لا يصح، أنت جالس وتتحدث مع نساء».

« مرأة يونانية ولد أجنبى لا تتزوج...».

« أنت يا "ماريانا"، ما رأيك؟ اليونانيات لا يتزوجن من الأجانب؟ بالطبع لا أقصد الأجانب من الدول الأوربية ».

« ماذا أقول؟» قالت "ماريانا" متفاجئة. « هل تعرضين عليّ الزواج من "صابات"؟ هل سيريدنى هو على سبيل المثال؟ أم يرانى فقط كورقة تصريح بالإقامة؟».

« حسناً، لا تغضبى...».

« هذا الأمر لا يؤدى إلى أى شيء يا "ناتاشا". المهاجر أجنبى، مع الأسف. من الصعب أن يندمج فى المجتمع، حتى بالنسبة لنا... ».

« بالنسبة لكِ، حددى وتكلمى عن نفسك ».

« حتى وإن كنت أتحدث عن نفسى...».

استشاط غضب "ماريانا" إذ إنها كشفت نفسها أمام "صابات". ودت لو عادت بالحديث لتقول إن هذا الكلام لا يسرى ولو بنسبة واحد فى المليون، أما الأخرى فحرصت بموقفها أن تمحوه تماماً. ومن ناحية

أخرى أى رجل سيختار امرأة من منزل كهذا؟ إنه... لم تجد لها اسماً، لم تخشَ أن تكمل فكرتها.

سألته "ماريانا": « كم هو سهل عليكَ أن تغادر يا "صابات"؟» سهل جداً. ألف وخمسمئة يورو، من أجل جواز سفر » لمعت عيناه.

قالت "ناتاشا" غاضبة: « ونحن هنا لم تفكر فينا؟».

« أنا أحب أنت، أحب "ماريانا". أن الاصابات فى اليونان، لا شىء، أنا شجرة،لا إنسان، فهمت؟».

ترى من منهن كان يقصد بـ فهمتِ؟.

From: antoniow@yahoo.in

To: marian@helnet>gr

Subject: Mysetious tibe

أختى الصغيرة،

سعيد أننا نتحدث مثل زملاء فى الدراسات العليا! لابأس، فهذا أيضا أمر جيد...

بخصوص ماكنت تسألين عنه: هناك قبيلة كانت الصحراء بواحاتها وبحيراتها وجبالها وحيواناتها ونباتاتها مألوفة جداً لها. كانوا يعرفون كل دروب الصحراء العربية. كانوا معروفين باسم "الصلاعبة"، أو هكذا كان البدو يسمونهم.

لم يضعوا حدوداً للمرأة. لم تكن المرأة على سبيل المثال مضطرة أن تتزوج من شخص لا تريده، ولو أن امرأة لم تكن سعيدة مع زوجها، كان بمقدورها أن تهجره وتطلب منه تعويض عروس.

كانوا مهرة بالطب ومداواة الجروح، كان باستطاعتهم أن يعالجوا كل من يعانى من صعوبات الصحراء. النساء كن يشتهرن بقدراتهن فى الرقص، كن يرقصن فى حفلات الزواج والطهور. كانت قبائل أخرى من البدو تدعوهن ليرقصن فى مناسباتهم ويمتعوا الناس برقصاتهن المميزة، كن يرقصن برؤوسهن مكشوفة. كن أيضاً يشتهرن بقدراتهن فى السحر، كانت لديهن قدرة على التفريق والجمع بين العشاق وعلى إطالة عمر الناس. كن يقرأن النجوم ويقرأن الطالع ويتنبأن بالأقدار.

كثيرات منهن كن يكتبن الشعر، شعر غزل على الأخص. كن يزين وجوههن بالأوشام. كما أنهن اشتهرن بالجمال الفائق، حكت عنهن الكثير من الأساطير أنهن كن نتاج زواج مختلط مع الروم عندما جاؤوا فى الحروب الصليبية ومكثوا فى الصحراء ثم اضطروا بعد ذلك أن يعتنقوا الإسلام. (ميشيل تشكك) فى أن من الممكن أن يكون قد بقى أيّ أثر لهذا الجنس.. قبيلة "الصلاعبة" هذه ربما تكون الوحيدة التى بقيت من سلالة بنى نبط أو النبطيين.

قبلات

أنتونى وميشيل.

أخيراً تمددت على فراشها بعد فراق طويل.

أغضب "ناتاشا" بعد ذلك الموقف ـ بالتأكيد كانت محقة ـ لم يستغرق أكثر من ساعتين، إذ إنها بعد ذلك اتصلت بماريانا وقالت « أنا فى حاجة إليكِ، لا ترحلى عن البيت، سأضاعف لكِ أجرك».

خجلت من أن تستمر علاقتهما من أجل مقابل مادى، لكن هذا كان ضرورياً، أو ربما كان مجرد عذر حتى تتوطد صداقتهما.

ذهبت "ناتاشا" مرة أخرى إلى المستشفى، حرصت أن يكون "تيتو" فى أفضل غرفة رغم أن الأمر لم يكن سهلاً على الإطلاق فإنها نجحت فى هذا.

اعتذرت من الجميع وغادرت فجأة، لكن، كما قالت، لم تحتمل نكران الجميل من "صابات".

« كيف يجرؤ » أن يقول « أنه يشعر بأنه مجرد شجرة فى البيت، بعد كل ما فعلته من أجله؟ ».

« أجمعهم كى يروا العالم الذى لجؤوا إليه بشكل مختلف وهم يحلمون بسيارات فارهة وتهريب ونوادٍ للمافيا مع راقصات عاريات، ثم ينتهى بهم الأمر فى النهاية إلى أسوأ الأقبية ويتحولون إلى عمال عبيد منبوذين من كل الناس ».

كانت ثائرة جداً، فبعد هذا الشجار مع "صابات"، دخل إلى المضيفة وجمع أشياءه. من الناحية الأخرى، لم تستطع "ماريانا" أن تعترض، فكان لابد أن يرحل، لم تستطع أن تتخذ موقفًا: فقد وضعها "صابات" في المقام والمصير مع "ناتاشا"، كانتا سواء بالنسبة له، بالضبط كما عرفهما.

رسائل عديدة من السيد "باندزيكيس" على الهاتف والبريد الإليكتروني؛ هذه الرسائل تحت ظرف آخر كانت كافية لأن تفرض عليها حالة الطوارئ، أما الآن فكانت تستقبلها كما لو لم تكن تعنيها. جزء من حياتها دخل في حياة "ناتاشا" وشوقها للعودة لحكاية "ناتاشا" وأن تبدأ معها الكتابة من جديد كان أشبه بكوب من الماء المثلج بعد يوم حار (في الصحراء؟). السعادة في أن تتقاسم مع "ناتاشا" ليس الماضي فقط ولكن الحاضر أيضاً كان يشعل أحاسيسها ويرهفها، إذ كانت تشعر أنها في احتياج لتلك القصص.

ذهبت إلى البار الذي تعمل به "مارثا" في صحبة رجفة لطيفة، لكن صديقتها لم تكن هناك تلك الليلة، كان يوم عطلتها، هكذا عرفت عندما تحدثت مع السيد "كونستا"، شربت كأسًا من المارجريتا على صوت الموسيقى ثم شرعت في الرحيل، غير مبالية بيورغو ولا بأي "يورغو" الذي كان يقف خلف البار متماسكًا ومتحداً بنرجسيته.

على ناصية شارع "إيرمو وأسوماتون" سمعت صوتًا نسائيًا يناديها. "رانيا"، وكأنها قفزت من الصفحات المحفوظة في الكمبيوتر، نادتها من

بعيد، اقتربتا من بشوق وتحفظ فى الوقت نفسه. كانت "رانيا" فى صحبة شاب جذاب فى الثلاثينيات من عمره بدا معلقًا فى فمها ويضحك مع أى شىء تقوله. حضرا عرضًا مسرحيًا بالقرب من هنا، عرفته "رانيا" على أنه « حارس أمن المنطقة» فانفجر هو ضاحكا.

« كيف الأحوال ياعزيزتى؟»،

« على مايرام يا رانيا، الكثير من العمل، كما تعلمين...»،

« نعم، أعلم... احترسى يا ابنتى، فناتاشا لم تفتح لكِ أوراقها. إنها امرأة مثيرة جداً، لكنها تنصب الفخاخ دائمًا. احترسى منها... بشكل أدق احترسى من أن تصبح حاجة بالنسبة لك... اسمعى ما أقوله لكِ...».

« شكرًا لكِ، كونى بخير ».

« أنا بخير » قالت وانزلقت فى حضن الرجل، « على الأخص الآن حيث إننى امتنعت من أن أتقاسم أفراح الآخرين » ضغطت على كلامها بمغزى، « تفهمين ما أقصد أن أقول...».

انحنت "ماريانا" مرتبكة ونظرت إلى حذاء الرجل، فقط حتى تلقى بنظرها بعيداً عنها، لكن ياللجحيم، كان حذاء "سبيروس" نفسه لكن فى أقدام أخرى ! شعرت بالخجل والارتباك بأن شخصًا آخر يعرف ماذا يحدث بالفعل بينها وبين "ناتاشا". أو ربما يعرف ماذا حدث بالفعل، لكن

لا شيء يشى على الإطلاق أن هذا سوف يستمر. فصابات - منطقيًا؟ يعد أول وآخر تجربة « مشتركة ».

قبّلتها "رانيا" من فمها بقوة، مما جعل "ماريانا" تشعر بالامتعاض، وتمنت لها حظًا سعيدًا مع وعد بلقاء آخر، بالطبع، فسوف ترتب أن تدعوهم على الطعام قريبًا.

قالت "ماريانا" وتبادلا أرقام الهواتف: « أريد أن نتحدث سويًا مرة أخرى».

« متى شئتِ ولا تترددى...»

تأبطت ذراع رجلها "فرضا". احتضنته وغادرا بتفاخر نحو أزقة بسيرى. اللقطة الأخيرة كانا فى وضع احتضان، وهو أمر نادر أن يفعله "سبيروس" فى أماكن خارجية؛ حتى فى الأوقات التى كان فيها رقيقًا معها، كان يعبر عن مشاعره فقط فى الأماكن المغلقة. وهاهى تقع الآن فى الفخ نفسه : أن توجد مع رجال يتحاشون الأماكن العامة، وإن كان لأسباب أخرى هذه المرة. بين "سبيروس" والمهاجرين لم تقطع سوى مسافة شارع "بيريوس"...

تمشت وشعرت بشيء استثنائى فى الأجواء، وإن كان لا يبدو واضحًا للآخرين السبب فى هذا الإحساس بالاستثنائية، لكن كلما اقتربت من الحى الذى تسكنه، كان هذا الإحساس ينكمش متحولاً إلى رد فعل ممنطق.

هكذا، عادت مرة أخرى إلى بيتها الحزين، دخلت فى المصعد الضيق، صعد بها إلى الطابق المظلم أمام الباب ذى اللون الباهت. الشقة ذات الغرفتين، لحسن الحظ أنها صارت أكثر حيوية بسبب ألوان الأثاث الصغيرة من متاجر IKEA.

راحت تبكى للحظة. لم تكن تتألم بشكل خاص من أجل "صابات"، لكن من أجل «الحالة – صابات»: من أجل كل هؤلاء الأشخاص الأجانب الذين يأتون ويهيمون كالظلال فى مدن كثيرة – بشكل غير قانونى فى أغلب الأحوال – لا أحد ينتبه إليهم، لا من هم؟ ولا إلى أين يذهبون؟ ولا ماذا سيحدث لهم؟... كان من الأفضل ألا تكتشفهم.

حل الفجر عليها فى الفراش وكانت عيناها منتفختين. فى حوالى العاشرة، عندما استيقظت مجدداً على صوت رنين هاتفها الخلوى، تعرقلت. اتصال بلا رقم.

بعد عشر دقائق رن الهاتف مرة أخرى.

سألت: « من هناك؟ ».

« أنا، "صابات"».

« أين أنت؟».

«ميدان ذافنى».

« ماذا تفعل هناك؟».

« أنتظر لأذهب للعمل».

قالت له: « انتظرنى!».

ارتدت ملابسها على عجل، دون أى مكياج. حرصت أن تسوى شعرها، اختارت نوعًا قويًا من الجيل ومسدته. بحثت عن نظارتها السوداء رغم أن اليوم لم يكن مشمسًا. استقلت سيارة تاكسى وطلبت من السائق أن يذهب بها إلى ميدان "ذافني". ذهب السائق من طريق تل "فيلوبابو" بعد أن لعن رصف شارع "أجيوس بافلوس" المؤدى إلى هناك وبعد نصف ساعة من الطريق الدائرى وصلوا إلى ميدان "ذافنى"، بجوار محطة المترو.

تعرفت عليه سريعًا من بين كل الأجانب الذين ينتظرون حظهم ربما يمر أحد المقاولين باحثًا عن عمال بالأجر اليومي. بدا أغلبهم مهملين قذرين ومجهدين من قلة النوم.

أمرته: «ادخل» بينما كان سائق التاكسى يراقب المشهد باهتمام.

تردد "صابات". « هل لديك عمل لى؟».

« نعم لدى. هيا ادخل إلى السيارة».

كان متعبًا ويائسًا بعيدًا عن الحديقة.

« إلى أين؟ ».

« إلى منزلى، هناك لك عمل ».

لم يتحدثا لنصف ساعة حتى وصلا إلى بيتها. سائق التاكسى كان يراقب كل تحركاتهما حتى أوصلهما. قالت له أن يتبعها. تردد هو، ثم سألته « لماذا اتصلت بى إذن ؟...».

دخلا المصعد متجنبين أى نظرات فيما بينهما.

فتحت الباب. سألته لماذا اتصل بها، « لماذا؟ ».

جذبها إلى حضنه وقبلها. راح يشم بشرتها. صاحت به أن يتوقف ودفعته نحو الحمام. خلع "صابات" ملابسه وحشر نفسه فى حوض الحمام الصغير فأوقع زجاجات كانت موضوعة على الجانب؛ سقطت فأحدثت موجة من الضجيج. تركته لوقت كافٍ فى الحمام، تمددت هى على الفراش. من المنطقى أنها بعد ثلاث ساعات لابد أن تذهب إلى "ناتاشا" كى تعمل. ماذا ستقول لها؟.

خرج "صابات" من الحمام محاولاً أن يكتشف جغرافية المكان ويحدد اتجاهاته. دخل إلى غرفة النوم وراءها. كانت ممسكة بالريموت كونترول وتغير القنوات بسرعة البرق، كأنها أرادت أن تصنع فيديو كليب خاصًا بها. تمدد بجوارها وخطف الريموت كونترول من يدها. كانت متشنجة مثل بنت عنيدة لحظات قبل اغتصابها؛ وكأن جهازها العضلى أصابه عطل. لماذا لم يخبرها قبل ذلك؟.

« أريدأعمل... أريدنقود ».

« ألم تكن "ناتاشا" تدفع لك؟ ».

« بلى. جواز السفر ..أموال كثيرة ».

سألته بعصبية: « كم مازلت تحتاج من المال؟».

« خمسمئة يورو...».

استمر فى تقبيل عنقها على حين راحت يده تعبث فى أماكن أكثر عمقًا.

« لتحصل على جواز سفر تحتاج لكل هذا المبلغ؟».

« نعم ».

« مزور؟ لترحل، أليس كذلك؟».

« كل شىء مزور، كل العالم مزور ».

قفزت واقفة غاضبة.« سأعطيك المبلغ. لكن سترحل الآن، الآن سترحل».

« سأرسل لك المبلغ من إنجلترا» قال وهو يجز بأسنانه على حلمتها. « أنا لا أقول كذب. أنا فى "طهران" لدى منزل، عمل، مال... أنا صاحب عمل فى إيران...».

نزعت نفسها من الفراش وهبت واقفة. راحت ترتدى ملابسها. جاء بجوارها واحتضنها وكان منتصبًا.

« أحبك. لماذا يغضب؟ ».

مسد على شعرها لكنها قاومت. حتى تصريف الأفعال لم يستطع أن يتعلمه بشكل صحيح طوال هذه الفترة! اتجهت نحو مكتبها وأخرجت علبة جواهرها. لأنها ستتركه بالمنزل؟ ومن أين تعرفه؟ هل تثق به؟ من هو؟ وأين سيذهب؟ ماهذه المخاطرة؟ ألا ترى وتسمع مايجرى؟.

اقتربت منه وهى ترتعش. هذا الغريب لابد أن يخرج من بيتها. رجته أن يرحل دون أن يلمسها، توسلت إليه ألا يؤذيها، إذا لم يرحل ستقع على الأرض، ستتصل بالشرطة، بدا عليها الخوف، « من فضلك، ارحل، خذ النقود، النجدة...».

أغلق فمها بكفه.

« لا تخافى » حاول أن يشرح لها، « أحبكِ، أنتِ فتاتى، لا يصرخ أنتِ ».

كانت تتمزق، كانت فى حالة هيستيرية. خطف النقود وجرى نحو الباب وهو يغلق أزرار بنطاله. أغلق الباب خلفه بقوة.

سقطت هى على الأرض فى بكاء ونحيب ثم قامت بعد ذلك ودخلت إلى الحمام لتتقيأ.

يائسة و مبتلة، رفعت سماعة الهاتف واتصلت بناتاشا.

قالت لها: « لن أستطيع العمل اليوم، لقد أصابتنى نزلة معوية».

« هل ترغبين أن أمر عليك؟ هل أرسل لك طبيباً؟ أرسل لك "أحمد"؟».

قالت صارخة: « لا!» ثم اعتذرت عن صراخها ودخلت إلى فراشها. استحضرت صورة أمها فى ذهنها، وراحت تتحدث معها. هدأها الحوار وهكذا راحت فى النوم.

معلقات

العزى هو اسمك. فى الرياح الرملية ينثنى جسدك.

أسميك الوردة،

تصعد النجوم للسماء وأنت تسيرين

بين القلاع السبع، فى القصور السبع.

أسميك امرأة، جسدك يجن الشعراء، تظللكِ شجرة سنط،

تسعى الدنيا للندى تحتها.

وتعودين إلى المدن الحجرية، إلى اللغات المنسية.

العزى هو اسمك. تعيشين على نبيذ الرجال، من المتع لا تخافى.

لا تهابى الحيات العطشى، تتكئين

على أطراف المحيطات،

على الوديان الصامتة، على الأنهار الضحلة.

أسميك امرأة، لديك ألف فرج، أثداء تقفز من جسدك، نجوم وتلال رملية،

أحلام، أسماك مشبوكة فى رماح، شجيرات من اللؤلؤ ترعى على فخذيك.

العزى هو اسمك، كينونتك وذنبك.

وكل من يلومك.

حياتك هى الفجور.

يستطيعون أن يمنحوك الخلود.

ها هى الأضحية فى مذبحك، لترتوى،

لتريقى نهرًا خفيًا فى الصحراء...

(أبيات مشغولة

على وسائد ناتاشا)

* * *

« تركت خلفى الرجلين اللذين كانا يرافقانى وخلعت حذائى الذى ذاب من السير، نزعت غطاء رأسى، الذى كان يحمينى من الشمس

المتعامدة، ودخلت داخل المعبد. غطانى الظل والرطوبة، رائحة نقية للزمن القديم. هذا المبنى كان ملجأً فى الصحراء للأمراء المتعبين ولقيادات العسكر العليا.

قرن تقريبًا بعد وفاة النبى، القواد المسلمون كانوا يستمتعون هنا بالاسترخاء، محاطين بمشاهد ونقوش لنساء عاريات، حيوانات أليفة ومشاهد من الأساطير اليونانية. استطعت أن أقرأ بعض الأسماء اليونانية التى كانت ترافق بعض الأشكال المرسومة. وقفت تحت القبة تمامًا فى مقابلة الجداريات. اللوحات كانت جريئة ومثيرة وحسية، بالتأكيد لا تناسب ثقافة المنطقة. هنا، ثمة هلينية محلية قد ازدهرت. "ذيونيسوس" العرب، "ذيونيسوس" النبطيين؟.

هذه الجداريات اكتشفها أبى فى القرن الماضى، هنا اكتملت سلسلة من اكتشافاته قد بدأت من "قبرص"، من فسيفساء "ذيونيسوس"، فيما بعد لوحات الفسيفساء فى "فلسطين"، حيث تقرأ عليها مقطوعات كاملة من الأساطير. يالها من مسيرة ناجحة ومنتصرة مثل سكرة خمر معسول.

شعرت بمروره، بآثار يده التى تركها أينما مرت وبحرص وعناية شديدة كان يكشف عن الآلهة. التأثر الذى كان يشعر به عندما كان يخرج من خيمته لينظر لها عن بعد، ثم سيقابل المرأة التى اعتبرها

إشارة أو علامة للتأكيد على الفن والحياة: أمى "فاريس". كائن برى متجول، بنت لم يكن يعرف أحد من أين أتت وإلى أين تذهب.

القصة تؤلمنى، مقابلتهما تزلزل كياني. شعرت أن القلادة فى عنقى تهتز وتسخن. خلعتها وتركتها فى منتصف المذبح، الذى كان لازال يقطر دم الأضحية. لا أدرى كم من الوقت قضيت بالداخل، ولم يكن يهمنى المرافقون ذوو الأجر المرتفع الذين تقوقعوا بصبر على الحشائش مثل زواحف مُخدَرة.

سمعت أصواتًا تنادينى بلغات متعددة، وبلهجات ولغات ميتة ومنسية – وبدأت أتذكر قطعانًا من البشر بدءًا من هنا، وحتى كل أركان الأرض الذهبية. أشكالهم افتقدت الهناء. الحرمان، الاستعباد، المطاردة، قرون من الموت فى سهول قاحلة فى هذه الجبال العارية الكثيفة.

شعرت حينها بشيء لا يوصف، بقوة الإلهة تسرى فى أوصال جسدى وروحى، وتروى روح الصحراء العتيقة، التى سموها عشرات الأسماء بعشرات اللغات.

برقت القلادة، برقت وأضاءت. أمسكتها بفخر بين كفى، امرأة شابة، امرأة جديدة.

خرجت ورأيت ينبوعًا يقطر فى وادى. حصى، صخور تنفتح، لون الأفق الأزرق، طائر شق صفحة السماء الثابتة وسقط أمامى مليئًا بالدماء. نبوءة تسقط.

التضحية. وحينها سمعت الأغنية مرة أخرى.

العزى هو اسمك، كينونتك وذنبك.

ها هى الأضحية فى مذبحك، لترتوى،

لتريقى نهراً خفيًا فى الصحراء...

بدأت فى الرقص، أهز جسدى كله بحركات راقصة، وإن لم يكن الآخرون يسمعون الأغنية. لقد وصلت، لقد أخذت النبوءة، نُصبت وأصبحت هى: الأم، الراقص، الإلهة.

وضعت القلادة فى عنقى مرة أخرى وخرجت دون غطاء الرأس فى ضوء الأبدية المدمر».

الجزء السادس

لام العرب

(لاميات العرب)

(١)

كانت "رانيا" تجر قدميها بصعوبة على الطريق المرتفع الشاق إذ إنها ارتدت حذاء بكعبين عاليين ربما لم ترتد ملابس مناسبة، ربما لم تصلح لهذه الساعة؟ ارتدت ملابس ضيقة وكانت تشعر بالضيق. وجدت "ماريانا" غارقة فى قراءة الجريدة. طلبت منها أن تجلس بعد أن اعتذرت لها أنها اتصلت بها فجأة. للحظة راحت كل منهما تفرز وتدقق فى ملابس الأخرى، راحتا تحسبان أسعارها، وزنت كل منهما الأخرى وقيمتها ثم اتخذتا وضع الحوار.

قالت "رانيا": « لم تفاجئينى يا عزيزتى » « كنت أتوقع اتصالك، بل إننى قلت إنك ربما تأخرتِ قليلا...».

أكدت "ماريانا": « الأمر لا يتعلق بالضبط بناتاشا».

« بالضبط. الأمر يتعلق بالعالم الذى ورطتك فيه يا صغيرتى. الأمر يحتاج إلى قوة ما كى تنجين من هناك. لحسن الحظ أننى غادرت مبكرًا وأنقذت نفسى، والآن أنا فى قمة السعادة...».

ترددت "رانيا" فى إكمال حديثها.

« رانيا، أدرك تمامًا أننا لسنا صديقتين حميمتين، لكن، إذا كان يجب أن تحمينى من شيء، من فضلك افعلى. لا يهمنى إذا جُرحت ».

« سأقول لك بصراحة يا "ماريانا"، لا يصنع المرء أصدقاء بعد الأربعين، لكن، لأنى أرى فى عينيك نفسى قبل عشرين عامًا، أظن أننى يمكن أن أشرح لك بعض الأمور...».

طلبت مشروب الكانبارى الخفيف. كان الموعد فى مقهى فى شارع "سكوفا". كانت "ماريانا" تفتقد المكان بعد فترة غياب، لم يكن ممتلئًا وبدا لها أن قرونًا مرت منذ آخر مرة كانت هنا.

بدأت "رانيا" الحديث وهى تمدد جسدها: «ربما كما تعرفين» ، « وفقًا لكلامها، ذات يوم تركتها وعادت. مللت أن أتقاسم ذات الرجال، ومن شرهها المرضى أن تتعرى وتحصل على أكبر عدد ممكن من الرجال، وكأنها كانت تتغذى على وجودهم - وأقول لك شيئًا آخر...! حتى هؤلاء عندما كانوا يذهبون بعيدًا عنها كانوا يشعرون بالفراغ والضعف، فقد كانت تمتص كل قوتهم من اتصال وحيد. من ناحية أخرى، لقد ساعدتنى كثيرًا فى أمور عديدة. فتحت لى المحل الذى كان يكسب جيدًا، وتقريبًا كل المكسب كان يذهب لى.

لكنها عادت إلى رحلاتها الغامضة، مقتنعة أنها تجسيد لإلهة من العالم القديم، أو على الأقل أنها من سلالتها، صارت تصرفاتها أكثر غرابة فى كل مرة تعود فيها إلى "أثينا" لفترات قصيرة فكانت تنفجر

فينا .لحسن الحظ أنا كنت منهمكة فى عملى ولم أشعر بأن كل هذا يقف بيننا مثل أى إنسان طبيعى. أتفهمين ما أقصده؟ تورطها فى السحر والطقوس والمواكب كان قد شوشها تماماً ...».

ارتجفت "ماريانا" كأن تياراً كهربياً قد أصابها فى مكانها ونظرت للأخرى متسائلة.

« معلمتى الحلوة، هل تعلمين كم من المتاجر توجد فى الخارج تحمل اسم "العزى" وتبيع أعشاب ولوازم السحر والتنبؤ؟».

« لا تقولى ...».

« كما أقول لكِ. اسم "العزى" تحمله سلسلة من المحلات التى تبيع هذه اللوازم ويمكنك أن تشترى من هناك تركيبات سحرية ومثل هذه الأشياء. سخافات، لكن هذه السخافات منتشرة بين النساء البسيطات – وليس فقط – لكن بعض المتعلمين والمثقفين أيضًا يؤمنون بتلك الخزعبلات. أنا لا أزعم أنها كانت لديها أى علاقة بمثل تلك المتاجر، لكن "ناتاشا" تبدو وكأنها خرجت من على إعلانات من هذا النوع. لدى صديقة تعمل فى الضرائب اشترت "أوراق التارو" وبعض الأحجار عبر الإنترنت. لكن "ناتاشا"، منذ تلك اللحظة التى وقعت فى يدها تلك الجوهرة القلادة السحرية، منذ ذلك الحين لم تبدأ فى تغيير حياتها فقط، بل وحياتنا نحن أيضًا ».

« لقد أرعبتنى يارانيا ...».

« أليس هذا ما أردتِ؟ إذن اسمعى، لتتعلمى، كى تحمى نفسك. هل تساءلت لماذا يُكتب هذا الكتاب؟ هل تعرفين أن "العزى" الإلهة شيء منبوذ فى القرآن؟ هل سمعتِ عن الأبيات الشيطانية؟ هذا الثالوث الإلهى كان محمد يحاول أن يمحوه، ويبدل عبادتهم. أنا لم يكن لدى أدنى علم بهذه الأشياء، لكن وجدت هذه الكتب أمامى عندما كانت تعطينى مفاتيح البيت عندما تسافر لأعتنى به. منذ اليوم الذى أمسكت بيدى تلك الكتب، بعد أن فتحت مكتبة أبيها ذات النوافذ الزجاجية – خلسة – وأعترف بهذا ـ لم تسرِ معى الأمور على مايرام على الإطلاق. ساء حال الملهى، لم أستطع أن أبقى على علاقة مع أى رجل. وعندما كان يحبنى رجل مقرب منها كانت تبعده تماماً !.

ماذا تظنين؟ ستقيمين علاقة مع أى رجل وأنت مع "ناتاشا"؟ كلهم تحت ملكيتها. أصدقاؤها من الشواذ المثقفين، يسعون خلف الشباب الصغار وهو أمر يسهل عليهم وهى تذهب معهم فى رحلات، لكنها تساعدهم كثيراً – ثم بعد ذلك تختار بنتًا لأعمال سكرتارية فى حفلاتها الجنسية! بمعنى آخر، هى تختار خادمة !».

« رانيا! ».

« إذا كنتُ أكذب فعليّ اللعنة، ليسقط عليّ نيزك من السماء يحرقنى فى التو واللحظة، كما حُرق المحل... حُرق تمامًا. ولم يُكتشف قط سبب الحريق. لحسن الحظ كان مؤمّنا عليه. لسوء الحظ، كان باسمها».

« تمزحين...»

« لا أمزح على الإطلاق... هل تريدين سماع أشياء أخرى؟».

بالطبع كانت تريد... فتحت "رانيا" حزامها قليلاً لتعطى اتساعًا لتنورتها، أخذت نفسًا عميقًا. كم كانت تكره الملابس الضيقة !.

«رانيا» كان المحل اسمه البار الصغير فى شارع "قسطنطينوبوليوس" بجوار قضبان السكك الحديدية، فى مقابل "مجمع الجازى"، رواد المحل كانوا من نوعية الجمهور الراقى. نادراً ماكان ينشأ محل من هذا النوع فى ذلك المكان، لم يكن غير ملهى للعرى قريباً فى شارع "بيريوس" وقد أغلقته الشرطة حينئذٍ، لأنه كان يقدم عروضا جريئة إلى حد الابتذال.

كانت "رانيا" تظهر بعد منتصف الليل لتغنى أمام جمهور غريب ومختلط. عثرت على فنان مكياج عائد من "برلين وكان" يعمل مع "فاسبيندر و فيندر"، كان يتولى أمر تحويلها فى كل ليلة إلى فاتنة بقصات وماكياج مسرحى مختلف كل ليلة.

اشتهر المكان بين الناس حتى صار يمتلئ كل ليلة. كان الناس يأتون مبكراً ليسمعوا الموسيقى ويحتسوا الشراب فى هدوء ويتعرفوا على جيرانهم فى الطاولات المجاورة. نساء أربعينيات، متزوجات ومطلقات، سحاقيات فى الأصل - فى الخفاء، متعلمات ويائسات، كانوا يسمعون أغانى "رانيا" التى كانت تؤديها باكية، صارخة، ومنهارة.

اشتهرت فى أرجاء المدينة بالطبع، خاصة أن هذا كان فى حقبة الثمانينيات التى شهدت أغرب التقليعات الفنية والموسيقية وأقلها أناقة.

بعد قليل من الوقت صارت "رانيا" تقليعة فنية، ممثلون مشهورون كانوا يأتون للمحل بعد انتهاء عروضهم فى المسرح ليستمتعوا بأدائها، كان الجميع يتحدث عنها وبدأت شركات إنتاج الموسيقى تقدم لها العروض. لكن "رانيا" كانت تعرف أن أى تغيير محتمل لن يكون فى صالحها - فى النهاية كان موقع المكان المعزول بجوار الشاحنات والقطارات هو من أعطى له خصوصية قبل أى شىء، كانت الناس فى احتياج إلى اكتشاف أماكن جديدة للسهر ليبتعدوا عن الأحياء المملة والمعتادة بباراتها وملاهيها المعتادة أيضاً.

جاءت الفترة التى تقضى فيها "ناتاشا" الشتاء فى "كيراميكو". جاءت مع ممثل وسيم تعرفت عليه فى مهرجان سينمائى لسينما البحر المتوسط فى "تونس" وكان يستعد بالفعل لغزو الأستوديوهات والسينما الفرنسية. كان المغربى يأتى إلى المحل كل ليلة قبل انتهاء البرنامج، كان يمسك بالميكروفون ويغنى مع "رانيا" أغانى فرنسية وعربية. الثنائى الجديد حقق نجاحًا غير مسبوق فى المكان، وصار الجميع يتحدث عن عرض "فاسبيندريبل" وطالبوا أن يكون للثنائى "رانيا - ظافر" برنامج جديد مستقل.

خلال ثلاثة أسابيع هذا النجاح الساحق جعل المئات من الفضوليين والمهتمين بهذا المجال والشكل الفنى البديل يحتشدون فى البار

متجاهلين حقيقة أن المغربى كان فى حماية وتحت سلطة "ناتاشا"، حاولوا التقرب له وخطب وده بشتى السبل وعرضوا عليه عروضاً مغرية جداً. كل الوسط الفنى وهواة الفن من: عارضي الأزياء، المسرحيين، المنتجين، مديرى الإنتاج، وكل من هم لديهم الحنين بالإرث اليونانى فى البحر المتوسط.

كانت "ناتاشا" تتابع بحذر كل التطورات فى البار. ثم بدأت تمل منهم جميعاً. هذا الحشد المزيف الذى كان يهرول ليعبر عن إعجابه بالممثل الأجنبى، فقط ليشبعوا فضولهم وأحلامهم الغرائزية.

وذات ليلة أمسكت بالميكروفون وأعلنت للجمهور المحتشد فى المحل أن عليه أن يغادر المكان. وأنه كان عليهم أن يكونوا أكثر احتراماً، اعترض البعض فقالت لهم "ناتاشا" إنهم إذا كانوا يُفتنون بالأجانب فعليهم أن يبحثوا عنهم فى المدينة ويؤازروهم. اعترض رواد المكان بشدة، وصاحوا بأنهم هنا ليسوا فى حفلة لمناهضة العنصرية، وعلى أية حال، كان جمهور المكان يتسم بشىء من الحساسية. شحب وجه "رانيا" إذ إنها شعرت أن هذه هى نهاية « رانيا».

لكن لم تكن "ناتاشا" لتتراجع أبداً، آخر ماسمعت "ناتاشا" تقوله للناس فى الميكروفون « إذا أردتم "لأثينا" أن تصبح "بيروت"، فعليكم أن تصبحوا عرباً».

في النهاية سيذهب المغربى إلى "باريس" (لم يكن الرجل الأول ولا حتى الثمانين الذى يختفى من حياتها)، لم يعرف ماذا صار له فيما بعد. ومنذ ذلك اليوم بدأ انهيار المكان بسرعة وهمية، كأن "رانيا" لم تستطع أن تحمله وحدها. إن جمهور الليل ناكر للجميل. بقت "رانيا" وحدها خلف البار، غادرت "ناتاشا" مرة أخرى دون أن تخبر أو تهتم بأحد، وهذه المرة لم تعط مفاتيح المنزل لرانيا، لكنها وجدت "ذروسولا"، مساعدة منزلية فى منتصف العمر كانت تعمل لديهم قبل أن يموت والدها، وتركت لها أمر العناية بالمنزل.

» قالت "رانيا" وأطلقت زفيراً طويلاً: « من وقتها وصرت عاطلة عن العمل لفترة طويلة « صديقتى الحميمية دمرتنى بطريقتها. حريق غريب أتى ودمر ماتبقى. بعنا المكان لأحد مصممى الرقص الذى كان يعمل فى عروض مسرحية موسيقية فى السبعينيات وأقام به شيئًا يصعب تسميته... الآن هو مكان سيئ السمعة ملىء بالروسيات – منذ ذلك الحين وتغيرت ملكية المكان مابين عشرة أشخاص، ما الذى ضايقها إلى هذا الحد؟ لم تعد لها سيطرة على المغربى؟ ومنذ متى وهى ترتبط برجل معين؟.

لا أعرف ما السبب! هل لم تحب الآخرين أبداً، هل لم تكن قريبة منهم، هل كانت ترفضهم؟ تزعم أنه لا تحتمل الكذب والادعاء، ولكن السؤال هو، هل كان جمهورى فقط هو الغريب؟ على أية حال،مرت شهور حتى تحدثت إليها ثانية، لكن فى كل مرة كانت تأتى إلى "أثينا" لم

أكن أستطيع ألا أراها. لهذا أقول لك، إذا لم تستطيعى أن تغادرى الآن، فى أول خطواتك، إذن، ابقِ بجوارها وكونى مستعدة لكل شىء...».

كانت "ماريانا" تظن أنها تستمع إلى امرأة خرجت من إحدى الروايات التى تقوم بتصحيحها. كانت "رانيا" تتكلم بلا توقف، مرت الآن بقصة زواجها الفاشل وابتها، وحكت عن طلاقها السريع (« أنا أيضًا لا أطاق، أعلم هذا »)، فى سنوات البطالة قمت بعمل عشرة أفلام فيديو رديئة.

سألتها، لتغير الموضوع والمزاج: « كيف حال "فاسيليس"؟».

« هو بخير، يستعد للمعرض، ربما هو من سينصلح حاله كثيراً، لأن تورطه مع "ناتاشا" هو تورط فنى لا أكثر. "ناتاشا" دائمًا تحسن معاملة الفنانين، فهى فعلاً تدعمهم وتشهرهم. وكأنها كانت فى هذه الحالة تخرج عصاها السحرية وتحولهم...».

« لا تقولى لى أن "فاسيليس" سيتأثر فنيًا منها؟ ».

« ممكن، ربما ... فى مجال عمله، كل تواصل فنى، حتى لو كانت جملة عابرة، يمكن أن تخلق صوراً جديدة، أو تكون مصدراً للإلهام، لا أدرى كيف أشرح...».

«رانيا...».

« أعرف ماذا تريدين أن تسألى... ».

« صابات.. الشاب الفارسي... أين يمكن أن يكون إذا كان مازال في أثينا؟»..

« أنصحك بأن تنسيه يا "ماريانا". لن يخرج شيء من هذا...».

« هذا ما أحاول فعله. لكن يجب ألا أعرف ماذا صار له؟».

« هناك أشخاص كثيرون يا "ماريانا"، نقابلهم في حياتنا ثم لا نتذكرهم بعد ذلك أبداً. لمَ لا تسألين "ناتاشا"، التي دائمًا تحرص على ألا تقابل أيّا من عشاقها السابقين؟».

« لأنها تقابلهم بشكل عشوائي، هم فقط يمرون في حياتها بشكل عابر...».

« نعم أتفق معك، لكن هناك العشرات. ماذا حدث لهؤلاء الرجال؟. اختفوا من تلقاء أنفسهم أم هي التي تحرص أن تخفيهم؟».

« ما هذا الذي تقولينه يا رانيا؟ تخفيني...».

« لا تأخذي معنى كلامي حرفيًا... أعني أن هناك وسائل عديدة لتخفي رجلاً. أن تتجاهليه تماماً، أن تختفي أنت من حياته، أن تضيعي آثاره، لا أعني بالضبط أن تتخلصي منه حرفياً».

نهضت "رانيا" منزعجة ونزلت إلى دورة المياه القابعة في البدروم شعرت بالدوار وهي تنزل على الدرج الدائري، وكادت تنزلق في هاوية الجحيم. عندما عادت إلى الطاولة وجدت "ماريانا" تتحدث مع "ماكسيموس

وفيكى". إنه يوم السبت، مثل ذلك اليوم، لم ينس أبدًا "ماكسيموس" عادته فى أن يقابل صديقاته كل سبت فى وسط المدينة على فنجان قهوة.

فى تلك الأثناء غادرت "رانيا" بآلاف القبلات ومثلها من الأمنيات.كان "ماكسيموس" يشرح لفيكى المشكلات التى يواجهها فى عمل الكاستينج من أجل الإنتاج الضخم الذى يتم الإعداد له. سألته "ماريانا" إذا تم إيجاد الكثير من الفارسيين من أجل المعارك فى ذلك الفيلم.

« كيف لم يتم إيجادهم؟ لقد ذهبت إلى أماكن سكنهم... دعينا نسميها هكذا... ووجدت الكثيرين. لا تظنى أنه من السهل أن تقنعى أجنبيًا مهاجرًا أن يظهر فى السينما، كنت على وشك أن أواجه مشاكل كبيرة. فلا أحد يعرف من ماذا أو لماذا يختبئ هؤلاء. غالبيتهم يقولون إنهم عراقيون كى يحصلوا على حق اللجوء السياسى، وآخرون لا يتحدثون قط. فى النهاية وجدت منهم من لديه قابلية على التفاوض ثم بدأت أبحث عن يونانيين فى الصالات الرياضية.قبل الأمس كاد أحدهم يعتدى عليّ ظنًا منه أننى أتحرش به. أخافنى. تعرفين أن البعض فى هذا الوسط يدّعون أنهم يبحثون عن موديلات وممثلين وهم فى الأساس يبحثون عن علاقات».

علقت "فيكى":

« هذا يتوقف على الأفكار والأحكام المسبقة التى يحملها هؤلاء».

« تعلمين يا "فيكى" رأيى فى هذا الأمر. تقريبًا ثمانون بالمئة من اليونانيين يشعرون أنهم موديلات وأنهم جاهزون لبرامج الـ Reality السخيفة. هؤلاء هم اليونانيون الجدد...».

قالت "ماريانا" بمرارة: « صديقتى "ناتاشا" لها نفس الرأى...» ،

« لابد أنها تعرف الكثير! » قال "ماكسيموس" وهو يطلب فنجانا آخر من القهوة.

حكى قصة إعلان كان ينفذه لشركة من "دبى" عن أحد منتجات الحلاقة. استعان فيه بمصرى ليصور الإعلان والذى يأتى عمله بشكل رائع، فى النهاية حصل على أجر لم يحصل عليه طوال فتره عمله مع نقاش يونانى، وغادر إلى "باترا" ومنها إلى "إيطاليا" محشوراً فى صندوق بضائع على شاحنة. وعندما وصل إلى مدينة بارى بإيطاليا لم ينس أن يتصل به ليشكره أنه منحه الفرصة ليحصل على المال ليرحل...

« كيف لم يمت مختنقًا فى هذا الصندوق...» قال "ماكسيموس" متأثراً. « كان شابًا وسيمًا مناسبًا جداً للدور الذى لعبه».

« ماكسيموس» أعادته "ماريانا" إلى الوقع « إذا احتجت فارسيًا، الآن، أين يمكن أن تبحث عنه؟ ».

« فارسى؟ يمكن أن يحمل ملامحه أى شخص من حوض البحر المتوسط وحتى أى شخص أسمر من شمال اليونان يمكن أن يؤدى الغرض بالنسبة لى... هذا يتوقف على الدور الذى سيؤديه...».

أصرت "ماريانا". « أسألك بشكل عملى. فى أى الأحياء والمناطق ستبحث؟ هل لهم أماكن خاصة بهم يرتادونها، إن وجدت؟».

فكر "ماكسيموس" قليلاً.

« أغلبهم يسكن البدرومات حول ميدان "فيكتوريا" و"أهارنون" و"نيوكوزموس"... أما عن الأماكن التى يرتادونها فهناك ملهى يسمى باسمهم " الفارسى "، لكن لأننى أفهم سبب اهتمامك، أتمنى ألا تجدينه يرقص هناك...».

وصف المكان نفسه أصابها بالذعر. توسلت إلى "ماكسيموس" أن يصف لها كيف تذهب إلى هناك.

« من الأفضل ألا تذهبى وحدك، لابد لك من رفقة...».

ورتبا موعداً فى مساء يوم الجمعة.

(٢)

عادت إلى بيتها لقليل من الوقت - إحساس القليل كان يلازمها منذ فترة، كانت تشعر أنها لا تريد العيش فى هذه الشقة، وأن ضوضاء السيارات كانت أقوى من ذى قبل، وأنها حتى لو ظلت تعمل طيلة حياتها لن يكون بمقدورها أبداً أن تحصل على بيت جميل، حتى لو استعانت بقرض من البنك، كما فعلت أمها وظلت تسدده طيلة عمرها الذى لم يسعفها أن تهنأ به.

ظهرت لها السيدة "يورغيا" أمام محل الخردوات المجاور. « أين أنت يا ابنتى؟ ».

تحججت (بماذا ياتُرى؟) بأنها كانت تعمل كثيراً فى الفترة الأخيرة فى حين أن السيدة "يورغيا" راحت تتفحصها بمكر وهى تقرأ لها الفنجان بعد عشر دقائق بحجة دفع رسوم خدمات البناية، عندما دخلت "ماريانا" مسرعة إلى مدخل العمارة نحو شقة السيدة "يورغيا" فى الطابق الأرضى والتى دعتها إلى فنجان من القهوة وهى على ثقة أن "ماريانا" ستقبل متوسلة. إن من يعرف الطالع هو من يقرأ الفنجان وليس من يطلب.

السيدة "يورغيا" التى كانت تعيش لسنوات وحيدة منسية من ابنتيها اللتين تزوجتا فى إقليم "بتوليميذا" من موظفين كبيرين فى شركة الكهرباء الحكومية برواتب كبيرة غارقين فى الإدارة والفساد المحلى – كانت تراهما مرتين فى السنة وتلعب مع حفيديها وتتساءل من يشبهان؟.

« لم يأخذا منَّا أى شىء يا ابنتى، نسختان من والديهما. هذا فضلاً عن أن ثمة قلقًا يأكلنى أنهما تتشاركان زوجيهما. هل تعتقدين يا "ماريانا"، كل شىء جائز فى أيامنا...».

عادت إلى الصالون ووضعت القهوة على الطاولة البامبو حيث كانت إيصالات خدمات البناية المزمع توجيهها للسكان متمددة عليها لكن كانت هناك أوراق كوتشينة. نعم، كانت تقرأ الأوراق أيضًا لكن لنفسها فقط إذ كانت تزعم أنها متمكنة فقط من قراءة القهوة.

ثمة شىء رأته فى الفنجان، تغيير، رجل يرحل (هذا قد رأته على أى حال)، وآخر يأتى (هذا ماسوف تراه...).

« لكنْ هناك شىء يشغل بالك ويستحوذ على عقلك...».

هل كان ظاهرًا عليها لهذا الحد؟ راحت تنصحها بتوخى الحذر، لأنها لم تر أن هناك علاقة سهلة، وبالطبع هناك بينهما شخص ثالث، وكيف لا يوجد شخص ثالث.

كانت "ماريانا" متعلقة بما ينطق لسانها (كانت فى الماضى تسخر من النساء اللاتى يلجأن لمثل هذا)، كانت تسمع مثل المخمورة، لكن فى

لحظة واحدة بدا أنها مقتنعة تماماً بما تسمع عندما قالت لها السيدة "يورغيا": « لقد سحروك يا ابنتى »، لكنها لم تستطع أن ترى فى الفنجان إذا كان هذا بسبب العلاقة أم بسبب شخص آخر أو أنه بسبب تأثيره عليها، كما بدأ عقلها المتشنج الهائج فى الفترة الأخيرة يتشكل بكل حكمة ودأب. كان لديها تفسير لهذا الأمر لكنها كانت ترغب أن تؤكده – كان واضحاً كم تعرضت وتأثرت بقلاقل عاطفية ونفسية حتى تسعى لإيجاد أسباب تحولها الداخلى.

السيدة "يورغيا" – مع الأسف – لم يكن لديها شىء لتقترحه سوى الهدوء والحذر. لأنه لا يوجد رجل يستحق كل هذا العناء إلخ، إلخ، إلخ.. خسارة، عندما تقرأ الفنجان تبدو أكثر مرونة، الآن أصابتها حالة من الكلام العام أشبه بالبرامج التلفزيونية المسائية التى تتبرع مقدماتها الشقراوات أن يعالجن كل مشاكل المجتمع.

فى النهاية تحدثتا عن مشاكل البناء والزحام فى الشوارع وعن الإيصالات غير المدفوعة لتلك الشقة التى يغيب سكانها على الدوام ويلاحقهم المحضر القانونى، وعن بارات المنطقة التى تضج بالزحام والضوضاء.

عندما عادت إلى غرفتها، نظرت "ماريانا" إلى نفسها عارية فى المرآة قلقة بشأن ضعفها، كانت مدينة لنفسها باهتمام أكثر، لابد أن تغير من مظهرها بعض الشىء، من قصة شعرها على سبيل المثال، عملها سكرتيرة لهذه المرأة الغريبة جعلها تهمل نفسها، هذا الدور الذى يبدو

أنه قد أصابها بالاضطراب. اتصلت بمصفف شعرها "ستيفانو" لتحدد موعداً ثم فتحت الراديو. فتصادف صوت موال شعبى، والذى تحت أى ظرف آخر كانت ستسخر منه، على حين الآن، وهى تستمع إليه – دون أن تدرى أنه يذاع عشرات المرات فى اليوم، أجهشت بالبكاء. إذا لم يكن هذا يُسمى بالعشق، إذن، فما هو العشق؟.

شعرت بالخجل مما آلت إليه وتذكرت أمها حين كانت تصف الأغانى النخبوية « بمثل هذه الأغانى كيف يمكن أن يعشق أحد أو يتزوج؟»، استغرق خجلها حوالى نصف الساعة، إلى أن ارتدت ملابسها وذهبت إلى مصفف الشعر.

تصفحت المجلات النسائية التى اشتاقت إليها، ملابس غالية الثمن وإكسسوارات، تحدثت مع "ستيفانو" الذى كان شعره طويلاً ربطه على شكل ذيل حصان حتى مؤخرته، ربما كان هو أكثر مصففى الشعر ذكورية فى "أثينا" كلها، طلبت منه أن يغير لون شعرها وأن يضع بعض الرتوش اللامعة.

قال "ستيفانو"، وهو يسكب الزيت فى النار ويؤكد على شكوكها مما جعلها تشعر بشىء من السعادة: « لقد تغيرت كثيراً أتمنى أن تكونى تقضين أوقاتًا سعيدة...».

لماذا قال هذا؟ كان "ستيفانو" شخصية غريبة بعض الشىء، شارد الذهن ومنشغل بأشياء مثل فلسفة ماوراء الطبيعة، لكن لا المكان ولا

السيدات فى محل الكوافير بالخوذات فوق رؤوسهن كانوا يسمحون بمثل هذا النوع من الأحاديث.

لقد أعجبه التغيير، وإن كانت قد دفعت كثيراً من أجل هذا. قال لها "ستيفانو" أنه الآن يصعب التعرف عليها، داخليًا وخارجيًا. هكذا، استقلت تاكسى وطلبت منه أن يأخذها إلى شارع "سبيرو ميركورى" نحو زقاق ضيق. ولمرة أخرى لم يكن سائق التاكسى يعرف المكان فكان عليها أن تعطيه إرشادات دقيقة، مما جعل السائق ينظر إليها نظرة بشىء من الريبة - ترى ماذا كانت تمثل هذه المنطقة؟.

عندما انحرف التاكسى من شارع "بيريوس" نحو شارع "كولونوس" طلبت منه أن يتوقف، فلم تشأ أن يدخل بها "كيراميكو". ثمة فضول مرضىّ كان يأكل ذهنها. مشت بضعة أمتار وكادت تصطدم برجل يخرج من بيت للمتعة يقع فى الدور الأرضى فى طريقه لامتطاء دراجته البخارية. هدأت من خطواتها وتصنعت بأنها تتحدث فى هاتفها الخلوى. النوافذ المفتوحة سمحت لها أن تلقى نظرة سريعة فى الداخل. رأت ضوءاً فى العمق، باب مفتوح. سمعت لمرة أخرى صوت الصرير نفسه، وكأن منشاراً يقطع لوحًا من الخشب. هكذا يمكن أن يوصف صوت الصرير، هكذا كانت حدة النشاط على السرير. كأنه يقطع نصفين. ابتعدت مسرعة واتجهت نحو البيت.

دقت الجرس وشعرت أنها تنتظر ساعات أمامه. كل مرة تدوس فيها على الزر المعدنى كان قلقها يسترق السمع. فلم تكن تعلم من

ستقابل، مع من ستتعامل. ولم يكن هنا نوافذ نصف مفتوحة حتى تسترق النظر...

فتح لها "حكم"، رسم ابتسامة مهنية. حياها بأدب وكأنه فى هذه المرة أمام أحد آخر. دخلت "ماريانا" فور أن فتح وغمرتها رائحة المنزل، كأنها رائحة معتقة جيداً.

كانت "ناتاشا" تجلس خلف النافذة الزجاجية تنظر إلى الحديقة. « كنت أنتظرك فى السادسة ».

شرحت لها "ماريانا" أن موعدهما كان فى السابعة.

لم يفت "ناتاشا" أن تثنى على قصة شعرها الشبابية. مجاملة عابرة وعادية.

« أريدك اليوم أن تعطى درسًا قويًا لأحمدَ » و شددت على لفظ « قوى ». « مؤخراً يفعل ويقول وينطق مايشاء، وأظنه يفعل هذا كى يثير أعصابى... نلتقى نحن لاحقًا ».

نهضت "ماريانا"، سحبت الباب الزجاجى واتجهت نحو المضيفة. داخل البيت الصغير، أمام التلفاز كان "أحمد" وشخص آخر يدعى "رشيد" جديد متمددين يقلبان فى قنوات التلفاز الفضائية باستمرار وبسرعة مرهقة للعين يختلفان فى كل مرة حول ما إذا كان لابد أن يتركوا هذه القناة أم لا. بين مايفوق ألف وأربعمئة قناة مختلفة الجنسيات

بإمكانهما أن يختارا بينهم. لهذا لم يتعلم "أحمد"، كان أحد ضحايا الصورة المرئية السريعة.

قالت "ماريانا" بنبرة مهنية مرتبكة: « درس! ».

تساءل رشيد إذا كانا يريدانه أن يرحل أم يجلس. رأته "ماريانا" مرة واحدة فقط ولم تسأله من أين كان؟، لم تكن لديها رغبة فى أن تعرف أى شىء عن أى أحد جديد. ليس هناك معنى ولا أهمية من أين يكون هذا أو ذاك؟، فحتى هم لم تكن لديهم رغبة فى الحديث فى هذا الشأن...

نهض "رشيد"، ارتدى حذاءه وخرج نحو الحديقة وراح يجمع الأوراق المتساقطة التى تعفنت من فرط الرطوبة والبرد.

انتبهت "ماريانا" إلى أن "أحمد" لديه قطع صغير عند ذقنه، بالتأكيد هذا أثر مشاجرة، لكنها لم تسأله.

لكنها ستجبره أن يتذكر والديه. من سياق الدرس والحوارت غير المكتملة حاولت أن ترسم صورة ما عن "أحمد"، تاركة إعادة إعمار عالمه فيما بعد لنفسها.

« هل تحمل معك صورة؟ ».

أخرج محفظته التى كان يضعها فى الجيب الخلفى من الجينز الذى يرتديه، صورة صغيرة. رجل فى منتصف العمر يرتدى زيًا محليًا، صورة قديمة مقصوصة من صورة أكبر. قال لها إن هذا كان

والده، فقده قبل ثمانى سنوات. كان "أحمد" الطفل التاسع فى أسرة كبيرة ولد فى قرية صغيرة على حدودالعراق وإيران، قرية فقيرة، كانت لديهم حقول زيتون، كانوا يملكون أشجاراً كثيرة، كان نصيبه منهم مئتا شجرة، كان يحكى وهو يتعثر كثيراً فى أسماء النباتات.

هاهى أمه، امرأة قصيرة ترتدى ثوباً طويلاً، فى سن متقدمة، فقد كان آخر أولادها. تضع غطاء على رأسها ويغطى جبهتها. بجوارها طاولة عليها زهور بلاستيكية. هاهى صورة ثالثة، فى وادٍ أخضر تبدو الأشجار فيه وكأن أغصانها انحنت بحثًا عن الماء الذى يتدفق بين الصخور التى يجلس هو وصديق له فوقها، يشربون شيئًا، "بيرة" أو مشروب غازى. كان لأحمد شوارب فى الصورة وبدا أكبر من الآن بكثير، ولو أنه فى العشرين من عمره فقط فى تلك الصورة.

قال بجدية إنه بعد عامين نجح فى أن يرحل إلى بغداد، عمل كحارس فى مكتبة "بيت الحكمة". أسعفه الوقت والتقط صورة هناك للمكتبة المدمرة. الحوائط مهدمة، الرفوف خاوية، لقد نهبت عن بكرة أبيها.

سألت هى بقلق: « من الذى أخذ كل هذه الكتب؟ ».

« من؟ المافيا » قال هو مبتسمًا وكأن الكلمة أعجبته، فهى كلمة السر أو جواز السفر للهروب إلى أوربا.

« كيف أتيت إلى هنا؟ ».

حاول أن يشرح لها بمنتهى الجدية كأنه يصف ممرات الطيران فى بث مباشر من مطار دولى. لكن الخلاصة أنه عبر حدوداً وبلاداً سيراً على الأقدام و فى وسائل مواصلات غير آدمية، دون أن يعرف فى أكثر المرات إلى أين هو ذاهب. لكن عندما بدأ يصف نهراً قريباً من اليونان وتركيا، تعرفت هى على النهر من وصفه.

كان متأثراً. لم يشأ أن يكمل، وهى كمعلمة جيدة، لم تضغط عليه.

« هل ستبقى فى اليونان؟ هل تريد؟».

يريد، لكنه لا يستطيع أن يستخرج أوراق إقامة قانونية، لهذا يرحلون كلهم نحو السويد وبريطانيا. لم تصر "ماريانا" أن تعرف لماذا يفضلون جميعهم دول إسكندنافيا. وكيف أتى هو إلى هنا داخل هذا المكان؟.

صمت هو. غيرت "ماريانا" الموضوع وراحت تسأله عن أشياء يومية، وتعلمه تصريف الأفعال وتصر عليه أن يستخدم الأزمنة بشكل صحيح.

« هل تعبت؟».

قال هو مامعناه أنه سيرحل من اليونان، وأن هذه الدروس لا فائدة منها. وأنه من الأفضل أن يتعلم لغة أوربية، هذا ما يقصده. عارضته قائلة بأن أوربا هى أيضاً فى اليونان، لكنها لم تكن متأكدة جداً بداخلها من هذا الأمر. حتى وقت قريب كانت تؤمن بهذه الفكرة تماماً.

تمدد "أحمد" على مقعده، فتح رجليه. صار تلميذاً غير مطيع، وبدت عليه رغبة في اللهو.

فوجئت به ينحني نحوها ويهمس.

« أريدك ».

« "أحمد" ».

« أنتِ لا يريد أنا؟ أنالاعندى بنت أثينا، أنت "ناتاشا" فقط ».

« أحمد، الآن وقت الدرس!».

نظر إليها بمكر وبشكوى في الآن نفسه. هل بالتأكيد لم يكن يكذب؟ هل هذا كان أحد الامتيازات؟.

« أنتِ يُحب صابات؟ ».

« أحمد، اسكت...».

« صابات أفضل من أنا؟ "صابات" لاجيد، عراق،إيران،مشكلات،لا أصدقاء ».

أغلقت "ماريانا" أوراقها ونهضت، لفت دورتين في الغرفة يائسة. مستحيل أن تنضبط لغته اليونانية. من ناحية أخرى، فكرة تورطها عاطفياً أو جنسياً مع "أحمد" كانت تصيبها بالذعر، بالضبط لأنها لن تكون شيئاً غير مجرد اتصال جنسي. ربما لأنها معتادة أن تمارس

الحب مع شخص تحبه بالفعل، حزينة لأن هذا التناوب كان يمثل تحدياً حقيقياً. لأن "أحمذ" كان موجوداً ليمتع نفسه و يلبى رغباته! بالتأكيد "ماريانا" لن تدخل أبداً في طور أن تقيم علاقة فقط من أجل تلبية احتياجات جسدية. ليس لأنها كانت لديها قدرة على الاحتمال، لكنها كانت تستطيع أن تقنع نفسها بأن هذا أمر ممكن.

كل مرة تأتى إلى هنا، كانت تمر باختبار، تارة اختبار عاطفى وتارة أخرى جسدى... لكن أبداً لم تكن الاختبارات مملة. كان "أحمد" هائجًا منتصبًا بشكل واضح داخل بنطاله، اقترب مرة أخرى منها مليئًا بالرغبة وقبلها خلف عنقها، قائلاً لها كم هى جميلة فى هذه اللحظة. كان لسانه سريعًا بشكل غير معقول.استجاب جسدها فالتفتت ونظرت نحو الباب نظرة بها شيء من الشعور بالذنب. كانت تعرف أن فى الناحية المقابلة من الحديقة كانت تجلس تلك المرأة توجه كل شيء.

قال "أحمد".: « لا تنظرى هناك » « "ناتاشا" الآن مع رشيد... ».

لم يبدُ لها الأمر غريبًا على الإطلاق، بل على العكس. حتى الآن كانت تتجنب شفتيه، لكنه رفع قميصها وراح يشفط حلمتيها بصوت مرتفع ويداعبها بشفتيه.فجأة جز على حلمتها بغضب فصرخت "ماريانا" عاليًا.

قالت وهى ترفض: « لا يا صابات !».

قال ودفعها بقوة وبوحشية: « أنا لست صبابات » ففلتت أعصابها تماماً.

قالت وهى تعيد ترتيب ملابسها: « لتذهب إلى الجحيم ».

اقترب منها و صفعها على وجهها. استشاطت غضباً. همت أن تهجم عليه إلا أنه استمر فى صفعها بقوة، وبتكرار منتظم كأنه يضربها بكرباج، كان ينظر إليها بلا أى عاطفة، كان يضربها لأنه كان لابد أن يعاقبها. نجحت أن تفلت من بين يديه بأن سقطت على الأرض وراحت تصرخ بهيستريا وتتقيأ سوائل من فمها.

ابتعد عنها "أحمد" بطريقة عادية كمن يؤدى مهمة.

عندما جاء "رشيد" مهرولاً، كان الوقت متأخراً. نهضت وراحت تقطع الحديقة وهى تترنح، بدت لها الأشجار كأنها تفسح لها الطريق. كان شعرها منكوشاً مثل الميدوزا. قميصها مقطوع، خدش صغير تحت ثديها الأيسر كان يحرقها بشدة.

كانت "ناتاشا" فى الصالون تنتظرها بكأس من الليكير.

قالت لها وهى تنظر نحو الحديقة بمغزى: « كنت فى حاجة إلى علقة ساخنة ».

« أنت مجنونة؟ أهذا ما لديك لتقولين؟ ».

« وماذا عساها أن تقول لك المجنونة؟ أن اثنين من أصدقاء "أحمد" تحولا إلى أشلاء وهما يعبران إقليم إيفـروا؛ إذ إنهما مرّا على حقل ألغام يونانى؟».

حاولت "ماريانا" أن ترد، لكنها اتجهت مباشرة نحو الباب. صاحت "ناتاشا" خلفها: « آه... ولا تسألى عن الفنجان مرة أخرى!».

وقفت عالقة على الدرج الخارجى. إلى أين تذهب فى هذا الليل وهى نصف عارية؟ على بعد مربع سكنى من هنا يسكن "فاسيليس"، هل تذهب إليه؟ كانت تتنهد بصوت عالٍ من فرط الارتعاش على حين سمعت رجلاً يسير خلفها يقول للمرأة التى فى صحبته إن المكان امتلأ بمدمنى المخدرات الذين يتبادلون الحقن فى منتصف الشارع. سيدة فى عمر أمها نظرت إليها ودمدمت « لا تبدو لى هذه البنت من تلك النوعية يا ستليو».

موسيقى "الراى" تسمع من المذياع. بالتحديد كان صوت الشاب "خالد" يصدح. تذكر "فاسيليس" قبل ثلاث سنوات فى الصيف كان قد حجز مكانًا فى حفل كان سيقام فى مسرح "تل الليكافيتوس" إلا أنه فى العام نفسه كان الهجوم على العراق فتم إلغاء الحفل. على كل حال كان "دوران" يفضل الموسيقى اليونانية الشعبية وبالتحديد المطرب "باسخاليس تيرزيس".

قال "دوران": « يقول يونانى بسيط، أنا أفهمه » ثم أكمل متسائلاً – بصعوبة فى نطق اللغة اليونانية – لماذ لا يذيعون أغانى "لإبراهيم تاتليسس".

« لأننا نعرف ما ترسله لنا أوربا يا "دوران". إذا صار مطربك موضة هناك هذا يعنى أنه سيصل إلينا ويصير موضة هنا أيضًا لا القلق...».

« فاسيليس، إنترنت يمكن أن أدخل؟».

لم يكن لدى "فاسيليس" أى اعتراض. تخيل أنه ربما يريد أن يعرف الأخبار بلغته.

توقف "دوران" أمام شاشة الكمبيوتر مرتبكًا ثم طلب المساعدة من "فاسيليس". كتب "فاسيليس" على محرك البحث جوجول « Kdurdish nowa» و فى التو ظهرت الصفحات الأولى بالفرنسية والإنجليزية. هز "دوران" رأسه يائسًا.

« لا أعرف أقرأ...».

كان طبيعيًا ألا يعرف الإنجليزية أو اليونانية....

« لا أعرف أى لغة...».

فى اللحظة التى كان "فاسيليس" يحاول أن يستوعب هذا التصريح، دق هاتفه. سمع صوت "ماريانا"، متفاجئًا لكنها كانت مفاجأة طيبة بالنسبة له. بالطبع تستطيع أن تأتى لتقابله، نعم فى هذه اللحظة ولم لا؟

أين هى بالضبط؟.

« تحت منزلك».

غير معقول، لابد أن هناك أمرًا جادًا قد حدث. ظهرت "ماريانا" بعد ثلاث دقائق،مجمرة الوجه مجروحة، مضروبة. منظر ملابسها يشى بأنها كانت فى معركة جسد لجسد.

قالت بدلاً من أن تقول مساء الخير: « هذه هى أول مرة فى حياتى أُضرب فيها. وبهذا الشكل الوحشى» « هل أنت وحدك؟».

« لا، هنا "دوران" فى الداخل، على الإنترنت».

عندما سمعت اسمًا أجنبيًا آخر، استفاقت من سكرتها، ارتعدت، وفكرت إذا كان عليها أن تبقى أو ترحل؟ راحت تتحدث بلا توقف وتشرح له من هنا وهناك ما الذى حدث لها، وأنها اتجهت إليه لأنه كان من القلائل الذين تستطيع أن تشاركهم مصيبتها.

قالت بصوت مرتفع: « كانت "رانيا" على حق» « كانت "رانيا" على حق فى كل ماحذرتنى منه! ».

كان "فاسيليس" تائهًا تمامًا: راعيته الفنى وممولته تصطدم بصديقتين له واحدة قديمة والأخرى جديدة، هما صديقتاها أيضًا. فى البداية أعطاها كوبًا من الماء البارد وأجلسها فى التراس ربما ينعشها الهواء النقى.

« أريد أن أقول كل شيء يا "ماريانا" وقيميه أنت كما تشائين. إن "رانيا" هي صديقتي، تعرفت عليها منذ سنوات في المسرح. هي طيبة، كان يمكنها أن تنجح كثيراً كممثلة، لكنْ هناك خط رمادي في حياتها لا تتحدث عنه بسهولة. أعصابها هشة بعض الشيء، كانت تصيبها نوبات على فترات وتتصل بنا جميعاً بعد منتصف الليل لتقول لنا لا شيء إلا هراء من عينة أن الحسد أصابها، أو أن هناك روحًا عتيقة تطاردها ! لم يحتملها زوجها كثيراً. وحتى القضاة في المحكمة لم يقتنعوا أنها قادرة على تربية ابنها وهذا الأمر دمرها تمامًا. حتى إن لجنة المحلفين المدنيين لم تقتنع بها ولم تأخذ صفها، فقد كان وضعها يثير القلق على الولد...».

هذا وأشياء أخرى كثيرة قالها "فاسيليس" ثم صنع القهوة لماريانا. هدأت نوبتها، دارت بعينيها ونظرت على الحي من أعلى .. من الشرفة، ثم انتهت داخل شقة "فاسيليس" إذ لمحت "دوران" في الغرفة الداخلية مشدوها أمام شاشة الكمبيوتر. كانت رافضة تماماً أن تعترف بوجود أي أجنبي أو تتعرف على أي غريب، وفي اللحظة التي همت فيها بالرحيل، التفت "دوران" نحوها وابتسم.

سأله "فاسيليس" إذا كان قد وجد ماكان يبحث عنه. أشار بالإيجاب، دخل إلى أحد المنتديات لكن لا هو ولا "ماريانا" استطاعا أن يفهما شيئًا من تلك الحروف. شعرا بالجهل التام. لكن الصور كانت واضحة:

متمردون، ثوار، أشخاص يحلفون القسم، متعصبون. أسلحة فى الهواء، وجوه مغطاة، رموز وإشارت تذكر بالثورات فى عصور سابقة...

نظر إليهم "دوران" مطمئنًا. وبالكلمات القليلة التى يستطيع نطقها حاول أن يوضح أنه ولا هو أيضًا كان يفهم شيئًا. فهو لا يجيد أى لغة، لا يستطيع قراءة أى لغة. ولا حتى لغته الأم. شعرت "ماريانا" بغرابة الأمر وعدم الارتياح للفكرة، ناسية كل مامرت به من عذاب وعادت إلى دورها الذى تجيده، دور "المعلمة".

« لكن كيف يكون أميًا فى هذا العمر؟ ».

أكمل "فاسيليس" مبتسمًا: « ثلاثة وعشرون عامًا على أى حال، يمكن أن أحكى لك القليل عن حياته الذى علمته متواصلاً معه بالإشارات والرسم على الأوراق ».

حاول "فاسيليس" أن يصف باختصار قصة "دوران": هو من العراق، لكنه كردى. طفل كان يذهب إلى مدرسة بائسة على حدود "تركيا". عائلته كانت تعيش على الزراعة وتربية الحيوانات، ناس فقراء، ليس لديهم أى حق حتى فى لغتهم ولا فى جذورهم. لم يحب "دوران" الدراسة وكان يهرب من المدرسة. لم يذهب إلى المدرسة المهدمة، ولم يسأل عنه أحد. كان يجرى فى الحقول ويرعى الأبقار، ناهيك عن أنه عندما كبر قليلاً كانوا قد منعوا كل وسائل التعليم فى قراهم الصغيرة.

"دوران" لم يعد لديه أى أسرة. تفتتت عائلته، دُمرت، وشردت البقية منها. وهكذا بدأ فى طريقه وحيداً، مثل الكثيرين غيره، سيراً على الأقدام، فى شاحنات، مختبأ ومطارداً، مدفوعًا أن يعطى نقوده القليلة إلى تجار البشر كى يصل بعد ذلك استانبول. هناك عمل شهوراً قليلة فى مقهى كردى علق على حوائطه صوراً من مدن كردية قديمة. كانت الأمور ألطف بكثير فى هذا المحل الكردى، لكن لم يشعروا بالحرية، أو بالإنسانية. فتركيا فى وقتها لم تكن فى وضع اقتصادى يسمح لها بالصرف على الملايين منهم.

وهكذا، عبر النهر الذى يفصل "اليونان" عن "تركيا"، هناك بقعة فى النهر تقل فيها الألغام وكذلك منسوب مياه النهر.

« بعد كل هذا، كيف يمكنك أن تنتقدى سلوكهم؟» سأل "فاسيليس" "ماريانا" التى بدت أكثر ارتياحًا.

« فكرى يا ماريانا، أن كل هؤلاء هم فقط عابرو سبيل فى اليونان، اليونان بالنسبة لهم محطة transit».

بعد أسابيع قليلة سيرحل "دوران" إلى "أوربا".

قالت "ماريانا" متأملة: « إلى أوربا، نعم؟ ».

حاولا أن يشرحا لدوران أن فى البلاد الأخرى من الجائز أن يستخرج أوراق إقامة بشكل أسهل، لكن الناس، الطقس... (نفس الكلام: لكن هذه الإنسانية تغذى الإنسان؟).

أشار لهما "دوران" إلى الصفحات التى وجدها على الإنترنت منذ قليل. فى "السويد" الأكراد ينعمون بحياة ديمقراطية حتى إنهم أقاموا لهم محطة إذاعية هناك. تفضلاً ها هى محطة إذاعية بتمويل من الحكومة الإسكندنافية...

وكرر "دوران" ما قد سمعته "ماريانا" من قبل: « أريد اسمًا، أريد أن أمتلك جواز سفر... هنا الشرطة تضرب. تسب من أجل أن تكشف عن أوراقنا...».

اتخذ وجهه تعبيراً صارمًا، ثم قال مامعناه أنه فى "أثينا" الناس ليسوا ودودين مع الأجانب، القليل منهم فقط، وهذا لأنه...

تعثر.

« لأنه؟ »

لم يكمل. هؤلاء القليلون كانوا مثل "ناتاشا"، مثل "جاك"، مثل "فاسيليس". استاءت "ناتاشا" وسألته إذا كان يعتبرها ودودة؟.

ابتسم "دوران". فهم مغزى سؤالها. حاول أن يقول إن بإمكانها أن تكون ودودة مع الأجانب. ابتسم. كان "دوران" يعرف أن شيئًا ما يحدث مع "أحمد". فقد كان يعرفه، فى السابق كان يسكن بجواره، فى أطلال البناية المجاورة التى اشترتها شركة أجنبية.

سأل "دوران": « أنتِ "أحمد" يضرب؟».

هزت "ماريانا" رأسها بالإيجاب على حين ارتسم تعبير على وجهه « ياويله...».

هل ستحمل ذنبه؟ أشار لها "دوران" بحركة معناها أن تنتظر. انتظرت وراحت تتفحصه. جسد متين، قوى دون قصد، جسد يناضل ويتدرب من أجل نجاة كاملة وليس من أجل فخر بكمال وجمال الجسد. تفصيلات وجهه مرسومة بدقة مما منحه مظهر وجه رجل ناضج. رغم خشونة بشرة يديه فإنها نظيفة ومُعتنى بها. أصابع طويلة ونحيلة. نظرت إلى وجهه مرة أخرى. صورة لعالم آخر قد هرب منه.بنظرة تبادلها مع الآخرين صدفة عبرت عن عجزه فى شرح مصيره.

أجرى "دوران" ثلاث مكالمات من هاتفه ثم صار يتحدث بحدة مع أحد بلغته. عندما أغلق الهاتف، التفت نحو "ماريانا" وقال بثقة شخص يعرف مايقول:

« "أحمد" ذهب، رحل.... امرأة... طرد ».

هذه الجملة حركت الصفاء الراكد الذى كان من المفترض أنه سيطر على تفكيرها.

» سألت "ماريانا" مدركة مجازية سؤالها: « أىّ امرأة؟

« نااالطاااالشـشـشاا » نطق الاسم بلكنة وتشديد وتفخيم لكل الحروف.

هزتها الكلمة مثل لكمة فى الوجه. خرجت إلى الشرفة مذعورة، لكنه كان ذعراً تحت السيطرة بعد كل هذا ـــ من الآن فصاعداً وفيما يبدو أن اللعبة قد تطورت ولا يمكن أن تظل سلبية أبداً.

خطفت سماعة الهاتف واتصلت بناتاشا. لم تُجب. هددت بأن تذهب إلى بيتها. نصحها "فاسيليس" بالهدوء، أن تترك فترة من الزمن تمر كى تهدأ الأمور. "فاسيليس" كان يقول الحقيقة:

« الرجال داخل ذلك البيت هم أمر يخصها يا ماريانا».

أعادها إلى رشدها. كانت تتصرف مثل تلميذة تشعر بخيبة أمل فى رحلة مدرسية.

خرج "دوران" أيضاً إلى الشرفة وشرد فى منظر المدينة، أى شىء ممكن أن يراه من هذا المنظر المشوه.نظر إلى منزلهم المهدم، الكلاب أمام البوابة، ثم دخل وجلس على أريكة غير مريحة، وضعها "فاسيليس" كقطعة ديكور. لكنه كان معتاداً على الأسطح القاسية. ثم أشعل سيجارة رخيصة.

« هل سترى "أحمد" يا دوران؟».

أجاب: « لا أدرى أنا بعد اثنين يوم يذهب عمل مع مقاول، يحمل أنا حجارة...»

الآن لم يعد "فاسيليس" يحتاجه كموديل للرسم، وبعد أن شكره على كل ما فعله من أجله، يقصد بالأخص الأجر الذى تقاضاه، سيذهب ليعمل عملاً شاقًا. سيحمل الحجارة في جزيرة حيث يبنون الفيلات (حاول أن ينطق اسم الجزيرة التى سيذهب إليها، لكنه لم يستطع) وبهذا الشكل سيكمل المبلغ المطلوب كي يحصل على جواز السفر. هذا الذى كان على مايبدو من السهل الحصول عليه، مما يجعل أكثر المواطنين براءة يعتقد فى أن للدولة دخلاً فى تسهيل خروج اللاجئين السياسيين والمهاجرين بهذه الطريقة كى تتخلص منهم.

كان صوت "فيروز" يصدح من المذياع.

« هل آتى معك؟ أريد أن أرى "أحمد"...».

رفع هو كتفيه مما يعنى « كما تشائين» حاول "فاسيليس" دون جدوى أن يمنعها. دخلت إلى المصعد وقال لها "فاسيليس" فى آخر لحظة « من الممكن أن يكون هذا العالم غير مناسب لكى » وتمتمت هى فى نفسها وهى محشورة فى المصعد مع "دوران"، « وماهو عالمى، أبى، سبيروس، مارثا، دايفيد أم باندزيكيس؟».

خرجا إلى شارع "الإسكندر الأكبر" وعند نهايته دخلا زقاقًا ضيقًا على ناصيته كان يتم إكمال بناية فاخرة من ثلاثة طوابق تستعد لاستقبال وافدين جدد لحى "كيراميكو". مكاتب هندسية وأصحاب محلات ليلية تطوعوا لتنظيف المنطقة. فى الجوار كانت إحدى الفرق الراقصة

تتدرب فى أحد المخازن القديمة الذى اتخذته مقراً تدريبياً لها، ثم أطلال بيتين من الطراز النيو كلاسيكى مستعدة لآلات الهدم لتهشمها. فى إحداهما، باب حديدى مثنى منذ سنوات، أكوام من القمامة، حجارة،أثاث قديم، نفايات مبانٍ، أطلال بما تعنيه الكلمة. بجوار هذا كله إذا تغاضيت عن النوافذ المفتوحة، كان هناك درج يقود للطابق العلوى الذى يغيب عنه نصف سقفه.

صعدا لأعلى يعدان خطواتهما بحذر شديد.كردى آخر يرتدى بنطالاً قصيراً، شعر بالخجل فور أن رآهما. تحدث مع "دوران" وبشكل ما فهمت "ماريانا" أن "أحمد" لم يمر من هنا على الإطلاق.ربما خرج لنزهة نحو المقاهى. كان الرجال يشعرون بالارتباك فى وجودها.انبهرت من حقيقة أنه رغم الأطلال وغرابة المكان فإنه كان مرتباً بشكل ما.

داخل الغرفتين المسقوفتين كان يعيش أربعة أشخاص، يطبخون فى الشرفة ويحملون الماء سراً تارة من صنابير عمومية وتارة من حقول البناء الجديدة.

دعوها للطعام معهم، كان هناك شيء يغلى فى قدح فى الشرفة، ربما كانوا يطبخون المعجنات كان واضحًا من الرائحة. الرجل الآخر كان فى عمر "دوران" تقريباً، قصير، أسمر وخجول جداً.

فى الحجرة كانت هناك بواقٍ من أصحاب المكان القدامى – أريكتان، خزانة أطباق ومكتبة بنية بها مجلدات عتيقة جلدية الأغلفة،

سيلاسل من الموسوعات والكتب عن الفن والأدب من القرن العشرين.موسوعة الشمس الشهيرة (كان لدى والدها واحدة مثلها) وضعوا لوحًا خشبيًا مربعًا يستند على أكوام المجلدات فصنعوا منه طاولة.

جلست الزائرة على إحدى الأرائك ولملمت أطرافها، لم تكن لديها قدرة أو شجاعة أن تغضب من أجل ما تعانى منه. فقد كانت ترى كيف أن شبابًا صغارًا يحاولون أن يتكئوا أو يتشبثوا بأى حائط سليم، ينامون على نصف حشية، يغلون الماء فى نصف قدح، وكل هذا من أجل الحصول على قطعة من الحياة. بلا وطن، مطاردون، بلا عائلة ولا ثروة، بلا متعلقات شخصية. هذا هو الحرمان. ليس تقشفًا أو فقرًا. لكنه الحرمان. ملابسهم كانت معلقة على مسامير غليظة فوق الحائط. لكن، رغم ذلك هم رجال مكتملون وذوو عزة وكرامة!.

شرعت فى الرحيل نادمة أنها لم تلبِ دعوتهم على الطعام. أعطت رقم هاتفها لدوران وقالت لها ألا يتردد فى الاتصال بها إذا احتاجوا أى شىء. ستسعد كثيرًا إذا طبخت لهم، أن تراهم مرة أخرى، لكنها كانت خائفة حتى وهى تقول هذا. نزلت الدرج بحذر. فى الخارج كان توأم الكلاب يتشاجران برقة.

عادت إلى البيت منهارة، يسيطر عليها حزن غزير لكن لا يخلو - كما بدا لها - من جرعة إنسانية. جهاز تسجيل المكالمات كان ممتلئًا مما

ذكرها بأنها لم تكن وحيدة تمامًا فى هذا العالم. كان والدها فى أحسن حال (يتصل بها مرة فى الشهر) و - مفاجأة - ابنة عمها من أمريكا تساءلت لمَ هى مختفية منذ فترة وعرضت عليها أن تأتى إليهم لتقضى معهم عطلة أعياد الميلاد. «قالت فى رسالتها وهى تصرخ من الفرحة ثم أعادتها « half price ticket ». نصف التذكرة علينا

آه... ورسالة من الأولاد فى متجر الكتب، لديهم شىء لها قالوا، ربما هذا يهمها. نامت بعد أن شربت فنجانين من الأعشاب المهدئة.

(٣)

كان المزاج عاليًا فى البار « Multi culti » متنوع الثقافات، كانت الموسيقى مختلفة عن المعتاد. كانت الـ DJ الجديدة فتاة طويلة ونحيفة بأنف معقوف تلعب موسيقى وهى تهز جسدها كاملاً بمزاج عالٍ. صارت صديقة لمارثا التى نقلت كل الأخبار إلى "ماريانا" متفاخرة بتعرفها على صديقتها الجديدة. وهكذا، صار لماريانا شخص تتحدث معه بدلاً من أن تجلس على البار تنظر إلى وجه "يورغو" المنحوت الجميل منتظرة "مارثا" تمر بين الحين والآخر تلقى لها بكلمة من هنا وكلمة من هناك.

"ألكسندرا"، غير أنها فى السنة الثانية فى الأكاديمية الرياضية، كانت تقدم برامج موسيقية فى المذياع. فتاة مرحة، كانت تشرب بإحدى يديها وباليد الأخرى تنظم إيقاع الموسيقى مرتدية إحدى طرفى السماعة على أذن واحدة. ترتدى قميصًا مشقوقًا من الأمام يكشف عن صدر جميل، لكن "ألكسندرا" كانت تبدو هادئة واثقة من ذاتها، حتى ملابسها لم تكن غير قطعة من الملابس وضعتها على جسدها لأنها فقط تناسب مقاسها. الفتاتان تحدثتا فى كل شىء، عن الموسيقى، عن

اختياراتها الموسيقية التى كانت تجمعها من كل بقعة فى الكوكب ثم ترتبها وتنظمها بأسلوبها.

« لقد طفح الكيل من الموسيقى والأصوات العربية » شرحت "ألكسندرا" لماريانا « لقد أساؤوا فهمها تماماً، لكن بداية الطامة كانت عندما بدأت تُسمع فى الملاهى الرخيصة والمطاعم التى صارت موضة ».

قالت ناتاشا « المدركة» الآن لمعنى ومغزى ما هو شرقى « الـ أوريينتال » .

قالت "ألكسندرا": « اللعنة على هذه الكلمة» « وكل سيدة تحلم أن تعيش فى حرم ما...».

كيف تكون صديقة لمارثا مثل هذه الفتاة؟.

« قولى لى من فضلك يا "ماريانا"، كيف يمكن لمرأة أن تتزوج رجلاً مسلماً؟ اذكرى لى سبباً. اشرحى لى لو سمحتى. لدى صديقة تعرفت أختها التى كانت تدرس فى "باريس" على شاب عربى وكونت معه علاقة، انجرفت بالطبع فى البداية، تعرفين الآن فى الغربة، بنت من حوض المتوسط ورأت شاباً أسمر...».

قاطعتهما "مارثا" معلنة أن خلال ربع ساعة سيمر "ماكسيموس"، معلومة أثارت أفكاراً قديمة، جعلتها تفكر فى مصير آخر لحكاية "ألكسندرا" الشيقة، مثلما يحدث عندما تقرأ كتاباً لأنه مفروض عليك (أو

عندما تصحح كتاباً مفروضاً عليك - كما فكرت صديقتنا هنا - لأنه مفروض عليها).

« اشربى كأساً أخرى، لا أراكى تشربين كثيراً ».

« ثم ماذا حدث؟ ».

« الرجل كان منفصلاً عن زوجته، مدرس بالجامعة، كان يكبرها بعشر سنوات. لكنه لم يكن يريد أن يطلق زوجته وفى الوقت نفسه كان يريد إلينا... وفى لحظة ما حصلت زوجته على الطلاق ومن يومها، لم يحدث شىء جديد فى علاقتهما... ».

« فهمت... ».

« قصة متكررة: الغرب، الشرق، العرب المظلومون المُساء فهمهم - ثم ماذا؟ شرقيون حتى الثمالة ومتعلمون تعليمًا جيداً فى جامعات غربية. لقد دمر المرأة، ليذهب إلى الجحيم...».

شربت "ماريانا" كأسها جرعة واحة.

أكملت "ألكسندرا": « ليتركوا النساء يخرجن من بيوتهن ثم نتحدث بعد ذلك. دعك من شهرة الرجال العرب كعشاق مهرة... أظن أن هذا الموضوع قد أخذ أكبر من حجمه...».

« هى مسألة ثقافة. فكرى فى موضوع تعدد الزوجات. كيف من الممكن أن رجلك يمكن أن يكون له ثلاث زوجات أخريات؟ فى عصرنا هذا؟».

لحسن الحظ الحوار لم يستمر لكنه تم برقصة قوية من "ألكسندرا" حين رأت صحبتها تأتى إليها نحو البار.

تأخر "ماكسيموس". كانت "ألكسندرا" تصعد الأجواء أكثر فأكثر بمساعدة الإيقاع، ربما قد دخنت قليلاً من الماريجوانا أو استنشقت شيئًا آخر.

تساءلت "ماريانا": « لماذا أتصرف هكذا؟ ».

« هل أسير بخطى ثابتة على أثر أمى، التى لم يكن أبدًا بمقدورها أن تخرج عن المألوف؟ وحتى لو أصابها داء العشق قليلاً مع "صابات" أو "أحمد"، هل لا يعنى هذا أنها أعراض أو علامات لأبواب عالم جديد يُفتح أمامها؟ ألم يحدث نفس الشيء عندما اكتشفت ذلك الولد فى القرية؟».

كانوا قد ذهبوا فى إجازة عائلية إلى "ثيسالية" بالقرب من "تيرنافو". والدها فى ذلك الحين كان لديه صديق حميم، السيد "كارغاتسيس"، ربما كان صديق عمره الوحيد، كان يعيش فى مزرعة. فى هذه المزرعة بعيداً عن البيت الحجرى وبئر الماء والمساحات الشاسعة والإسطبل، كان هناك حصان بديع وكلبان روعة فى الجمال. لفترة عشرة أيام كانت "ماريانا" فى صحبة الشاب الصغير الذى جاء مع والده ليعتنوا بالحصان. كان اسمه "تاكيس"، اسم معتاد جداً، كان فى الرابعة عشرة من عمره تقريباً. أرجله مشعره وحلقات شعره المجعد كثيفة، وضعها على ظهر الحصان

وكان يتجول بها بحذر. كان "تاكيس" فى هذا العمر كان يعرف عن الحيوانات مثل الخيول والكلاب وحتى عن النسر كان يزعم أنه رآه فى الجبل. « بعيداً هناك». وأشار لها بأصابعه الغليظة نحو الجبل.

لم تكمل "ماريانا" حينها عامها الثانى عشر، كانت قد أنهت الصف الأول من المرحلة الإعدادية. كان أخوها قد ذهب إلى معسكر فى "أجيوس أندرياس"، وكانت تلك هى المرة الأولى التى يتركونه يذهب وحيداً بعيداً عن البيت. فى هذا الحين كان أبواها يتركانها تمتطى الخيل لكن داخل المزرعة، وبمساعدة "تاكيس". كان الحصان يسير بخطى صغيرة، كأنه يقود موكبًا ملكيًا. كانت أمها تطبخ طوال اليوم للآخرين. الصحبة كانت كبيرة العدد: الوالد، السيد "كارغاتسيس" الذى ترملَ حديثًا ووالدته، التى كانت امرأة متسلطة ويبدو أنها أنهت على زوجة ابنها بسرعة.هل دعوهم إلى هناك من أجل قليل من المواساة للعائلة؟ فى المساء عندما كان الرجال يلعبون الطاولة فى الفناء، كانت النساء يشاهدن التلفاز الذى كان إرساله سيئًا جداً وكانت "ماريانا" تحلم بنزهة على ظهر الحصان مع "تاكيس" الذى كان يمتطى خلفها. كانت تشعر بضغط ما فوقها، كان يحتضنها بقوة حتى لا تقع...

سمعت ذات مساء « أين البنت؟» ، عندما كانت الخيول والفرسان يغيبون عن المزرعة. خرجوا جميعًا سيراً على الأقدام وبعد قليل صار الرجال والنساء بما فيهم الجدة يصيحون: « تاكيس!»، « "ماريانا" »، وبدأت تبدو على أمها أعراض الهيستيريا.

استغرق اكتشاف المشاة ساعتين. عندما عادا، كان يوم الحساب ينتظرهما. نزل "تاكيس" من على الحصان جاداً وقال إنه فكر أن يأخذ صديقته فى نزهة فى الطبيعة، لأنهم يقبعون داخل المزرعة كل هذه الأيام ولا يخرجون أو يخرجونها كأنها محبوسة، قال الفارس الصغير متسائلاً. إن البشر يعيشون فى الهواء الطلق.

كان سؤالاً ثقيلاً لكنه سُمع: « ماذا فعلت بالبنت؟».

قال لهم: « البنت على مايرام، ألا ترونها؟. » وبالفعل كانت على مايرام، لم يحدث شيء. والد "تاكيس"، فلاح ومربى مواشٍ، احتضن ابنه كأب مسؤول ووجه كلامه نحو الضيوف قائلاً لا تذهبوا إلى هناك مرة أخرى يا أولاد.

« هكذا نحن – الفلاحين – دائمًا، مضيافون، نتنزه فى السهول والحقول. الخيل والبشر هم للحقول والغابات... ».

وسارا متفاخرين الأب والابن.

طلبت "دايزى" أن تعرض البنت على طبيب أو طبيب شرعى ولأن الرجل كان هادئًا أكثر مما يجب، أغلقت على نفسها حجرتها وصارت تبكى. حاولت "ماريانا" أن تقنعها بشتى السبل أنها مازلت عذراء لكن دون جدوى. الفصام الخفى للأم ووعيها الميتافيزيقى المتحفز ترجم الأشياء بأن هناك ضرراً حتمياً قد وقع لابنتها.

« ما الحقيقة يا "ماريانا"؟».

أيًّا كانت، عادت "ماريانا" مذهولة من أكثر نزهة حرة حدثت في حياتها حتى الآن. شعرت أنها هربت إلى مكان بعيد، إن الهواء وعناصر الطبيعة قد فتحوا كل الطرق البكر داخل الطفلين، أنهما سافرا لساعات، إذ إن كل لحظة كانت تستغرق وقتًا طويلاً، وأن الألوان والأصوات لم تصبح كما تعرفها، لأن الصبي الذي كان يحميها حاضنًا إياها على ظهر الحصان قد تحول إلى فارس رائع.

حاولت، كبنت صغيرة، أن تستدعي كل حكايات كتب الأطفال، التحولات والطيور من كل الأساطير كي تستوعب هذا الشعور المثير الذي غمرها من حالة هروبها الكبير وخطفها اللطيف. لكن، على قدر معرفتها البسيطة كان كل شيء يتحول إلى سباق أحلام، الولد خلفها، أنفاسه الساخنة خلف عنقها، كان ولدًا حقيقيًا مختلفًا عن زملائها في المدرسة، هو بالتأكيد أكثر قوة، أكثر ذكورية. تأكدت من ذلك وعاشته، كان طفلاً غريبًا بالنسبة لها، كائن لم يكن من الممكن أن ينضم إلى الحياة التي تعيشها.

تم الإسراع بالعودة إلى "أثينا" بسبب اكتئاب "دايزي" بعد الأحداث. السنة الدراسية الجديدة حلت على "ماريانا" وهي مازالت ترسم تصميمات لفرسان على سروج ذهبية في دفاترها وتستغرق في الأحلام إلى أن هبط مؤشر درجاتها والذي كان جرس إنذار في البيت المتعلم.كانت دومًا

تتساءل تُرى كيف حال "تاكيس"، هل ستراه بعد ذلك؟ فى البيت حرصوا أن يجيبوا دائمًا بالنفى على هذا السؤال. لم يذهبوا قط إلى مزرعة السيد "كارغاتسيس" وحتى عندما ستصبح "ماريانا" قادرة على أن تسافر بمفردها إلى قلب البلاد، لم تود هى أيضًا أن تراه مرة أخرى. أرادت أن تحتفظ بإحساس المغامرة الأولى. على أية حال هذا الشخص الذى ستراه بعد سنوات، كان أبعد ما يذكرها بتاكيس آنذاك.

(٤)

مؤشر صوت الموسيقى فى السيارة كان على أعلى درجاته. لم يكن "ماكسيموس" يحب قيادة السيارة أبداً.كانت القيادة بالنسبة له شيئاً يصيب بالقرف. جاء مع مساعده "نيكوليس" بسيارة فيات صغيرة، بعد أن شربا كأساً فى بار «Ethnik»، تاركين خلفهما "مارثا" التى بُح صوتها و"ألكسندرا" التى كانت تقبل الجميع فى الهواء، أى إنهما قد استنفذا طاقتهما ووصلا أعلى درجات الإجهاد.

« أعتذر عن التأخير يا "ماريانا"».

« لا عليكَ، كنت أفكر فى قصة قديمة، حدثت لى وأنا صغيرة... ».

« هيا احكيها لنا».

وحكت لهم القصة، لكن وهى تحكيها وجدت نفسها تغير بعض التفاصيل لتجعلها أكثر تشويقاً. وكأنها كانت تراعى أن القصة الآن موجهة إلى أولاد من النوع اللطيف المختلف، فكانت تصف "تاكيس" بشكل مختلف ومشوق، أضافت إليه الكثير من الحواشى الغريبة، أكثر

ذكورية وأكثر قوة، وأسهبت فى الجزء الذى كان يحتضنها من الخلف ويلقى ثقله كله فوقه على ظهر الحصان...

صرخ "نيكوليس": « عزيزتى، دعك من الأوصاف الأدبية هل ستقولين لنا فى النهاية إذا تم ما يجب أن يتم؟».

لماذا لم تجب على هذا السؤال؟ كانت تحتفظ به للنهاية؟ « هذه الأشياء لا تحكى من بنت» قالت، لتسمع "نيكوليس" يقول لها « هناك حيث نذهب سترين كم أن هذا المكان مناسب للبنات ».

بشكل ما كان، إذ إن فى شارع "فيليس" كانت هناك منازل كثيرة عليها مصابيح مضيئة من الخارج،بعضها كان مازال مفتوحاً حتى الآن. فى ذات الشارع، فى منزل قديم من طابق واحد، صعدوا بعض الدرجات وقابلوا أجنبيًا ضخمًا على الباب رحب بهم وأرشدهم إلى اتجاه الدرج الآخر. فُتح باب ثقيل نحو الخارج. دخل معهم آخرون. « هؤلاء من بلاد فارس » أكد "نيكوليس" الذى اتضح أنه يعرف الكثيرين فى هذا المكان.مجموعات من الشباب الفارسى، والبعض من الشباب اليونانى ومن هم أكبر سنًا منهم بدو كأنهم من رواد المكان. ثلاث نساء سمينات جداً منهن سيدة فى الخمسين من عمرها تمسك مسبحة (!)، مجنونة هى، قال نيكوليس« هى من الجنس الثالث، أى عمل لديها هنا».

أى عمل لدى أنا هنا....

ديكور المكان يتسم بالذوق الرخيص، زينة من الأوراق، منحوتات، نجوم، أنصاف أقمار، أقفاص. كانت هناك منطقة كاملة من الحرفيين تقوم على تزيين مثل تلك المحلات الشرقية الطابع.

راح "نيكوليس" يشرح: « لم يكن هذا المكان هكذا من قبل » كان ملهى راقصًا عاديًا جداً. ثم علم الجميع بعد ذلك أن الفرس يرقصون ويتعرون، « هاهو. أترين هذا الشخص هناك النصف عارٍ بلا قميص، كوني واثقة أنه يعمل فى المكان».

رأته... كان فى عمر "صابات"...

« كان الملهى لابأس به. و لكل الأذواق... إلى أن جاءت كاتبة فى المجلات الصفراء، كائن حقير – معذرة – وجلست وكتبت فى مجلات الصفوة عن مدينة الفرس فى "أثينا"، وكان هذا هو... صار الملهى بالحجز وارتفعت أسعاره وأصبح مكانًا للأغنياء... انحنى حتى أقول لك شيئًا... هذا هناك هو سفيرها هنا...».

وسمى اسم دولة غربية مهمة وجعل "ماريانا" تتعرقل حتى كادت كأس الكانبارى أن تنزلق من يدها.

سألها "ماكسيموس": « هل أنت بخير؟ ».

« أنا آسف على سلوكى، أنا غير مهذب...».

« هل ترين صديقك هنا؟».

لا تره، أتمنى ألاَّ تراه !

أكمل "ماكسيموس": « هذا لا يعنى أن كل أجنبى يأتى إلى اليونان يمارس الرذيلة من أجل المال كما أن هذا لا يعنى أن أى زبون يدخل هذا الملهى هو يبحث عن المتعة الرخيصة...».

سألت "ماريانا": « هل هم جميعًا من الفرس؟».

« هكذا يقولون. على الأقل يقولون هذا للزبائن... فهم يعتبرون الفرس أكثر تحضراً من الآخرين... إذا ذهبت أسفل الشارع قليلاً فستجدين ملهى ألبانيًا، هناك ستقابلين وحشية غريبة... ».

بالطبع لا، لم ترد إن تذهب إلى ملهى البانى .

« ولو أنهم يقولون إن الألبانيين يتسمون بالفحولة... ».

قال "ماكسيموس": « هذه إشاعات يانيكولى ».

شربوا، لكن "ماريانا" لم تكن ترغب فى المغادرة. ماذا لو جاء "صابات" فجأة، لو جاء بعد ساعة، لو لم يأت، ربما أفضل، ستقضى سهرة ممتعة، بعد الساعة الثانية ستبدأ الموسيقى العربية وموسيقى الراى ويبدأ الفرس فى الرقص، ينزعون قمصانهم ويرقصون ويقفزون بجنون. وكأنهم يريدون أن يحطموا الأرضية، وحينها بدأت "ماريانا" بهدوء تلاحظ بعض الأجساد، وجوههم الحمراء، حركاتهم العنيفة المتفجرة.

« على الأقل هنا هم أصليون وعلى طبيعتهم» دمدمت وهى تفكر فى البارات الـ Ethnik الباهظة.

بدأ البعض يبتسم لها، لكن لا، لم يكن الأمر محض كبرياء، لن ترافق أى أجنبى، وبالذات فى مكان كهذا. فيما بعد بدأت نصائح "ماكسيموس". « هذا هناك ينظر نحوك، شاب وسيم جداً، ابتسمى له »، لكنها لم تطاوعه أو تستسلم.

« قلت لك إنه مكان لكل الأذواق » أكد هو ثم أكمل « لا ترى الأمور بشكل مقصور. رواد المكان هم من يصنعونه...».

الفارسى الوسيم اقترب. أبيض البشرة، شعر مجعد ونظيف، أسنان بيضاء، عيناه تنضح بالبريق (تُرى أين يطرح البريق لنذهب إليه نحن أيضًا)، يرتدى تى شيرت وجينز أزرق، وخاتمين فى إصبعيه بأحجار مزيفة.

« فتاة وحيدة هنا؟ ».

لا، ليست الوحيدة هنا، هناك ثلاث أو أربع فتيات أيضًا، صاحبة الملهى، امرأة بدينة نمطية ممن يرتدن مثل هذه الأماكن. – يقال – إنها وقعت فى حب فارسى وسيم وراحت تفتح له المحلات والملاهى الواحد تلو الآخر.

– أعاد قائلاً:...

أصر صاحب البشرة البيضاء: « فتاة وحيدة؟».

راح "ماكسيموس" يفرك يديه على حين "نيكوليس" أخذ يترنح كالدراويش مع بعض أصدقائه الذين توحدوا جميعًا مع الإيقاع الفارسي .

هنا ليس مكانك...

« هنا ليس مكانك» كأن أصداء أصوات نسائية تهمس لها في هذه البرية...

ولماذا أنت وحيدة؟.

« قاسم» عرف نفسه صاحب العيون الرطبة. سألها عن اسمها . كان يتحدث اللغة اليونانية بشكل مقبول – لحسن الحظ لن تمارس معه دورها كمعلمة.

« ماريانا»

قرعا كأسيهما .أشار إليها إلى مقعد كي تجلس.

قال لها: « أنت جميلة هل أنتِ غاضب؟».

صححت له: « غاضبة » ثم أضافت « نعم، أنا غاضبة ».

« هيا بنا من هنا؟».

« هل جننت؟ أين نذهب في هذه الساعة؟ ».

هز "ماكسيموس" رأسه متوسلاً.

« تمشية، نزهة...».

رفضت. دفعت الحساب للجميع رغم اعتراضهم، ورجتهم أن يتركوها تغادر وحدها .أصروا أن يجدوا لها سيارة تاكسى. رفضت. فى شارع "يوليانو" المجاور المتجه لوسط المدينة كان من السهل عليها أن تعثر على تاكسى. كانت راضية أنها لم تجد "صابات" فى هذا المكان. خلفها، كان الرجل الضخم على الباب يتشاجر بلغة غير مفهومة مع اثنين من الأولاد السكارى، المجهولَىْ الأصول أيضاً .

وقفت عند تقاطع ناصيتي شارع "فيليس" و"يوليانو" وتذكرت مسرح ماسالا المقابل حينما جاؤوا قبل سنوات مع المدرسة ليحضروا عرضا مسرحياً للتلاميذ، وكان هناك صبى أخذ يتحسس جسدها حتى انتهى العرض التعليمى المدرسى .

فجأة، سمع دوى صوت فرامل إحدى السيارات التى صدمت سيارة جيب أخرى كانت واقفة على ناصية شارع "يوليانو" و"أرسطوتيلوس"، مما جعل السيارات المصطفة أمام الجيب تصطدم الواحدة فى التى أمامها تباعاً. تجمع المارة وبدؤوا فى الصياح والشجار فى حين كانت سيارة شرطة المرور على وصول.

وقفت قليلاً لتتابع، دون أن تقترب كثيراً من التجمهر. الأصوات كان غاضبة وعالية بالفعل بسبب الحادث وانقطعت سيارات التاكسى فجأة من شارع "يوليانو".

هل تنحرف بالسير قليلاً نحو شارع "أهارنون"، لكن لتفعل هذا لابد أن تمر من خلال الجمع المتجمهر، هاهو، يا إلهى .:. إنه هو!.

« صابات! صابات! ».

كان هو يتابعها منذ فترة واقترب منها دون عجلة. قال لها مشيراً نحو السيارات المُحطمة: « هل خِفت؟».

احتضنها بحنان.

« صابات... هيا بنا نذهب من هنا... ».

هيا بنا... « أنا لست "صابات"، أنا قاسم.

الجزء السابع

زيارة إلى معبد
الإلهة العزى

(١)

سمعت عند الفجر صوت بكاء أمها يخرج من غرفة النوم. من الطبيعى أنها تستيقظ مبكراً قبل الجميع لتذهب إلى عملها بعد أن توقظ الصغيرين "ماريانا" و"أنتونى" لتحضر لهم فطوراً مشبعاً. هرولت نحوها فوجدتها غارقة فى عالمها وعيناها مليئتان بالدموع.

قالت ثم احتضنتها: « ماذا بك يا أمى ؟».

راحت تناجى نفسها: كانت طوال الليل تسير بين أطلال مدينة قديمة تتحول إلى تراب، كانت تذوب وتتحلل فى الهواء وتحت المطر. بالرغم من أن "دايزى" كانت مستيقظة فإنها لم تحتمل ضياع مكان تاريخى.

سألت "ماريانا" التى كانت تلميذة آنذاك فى الصف الأول الإعدادى: « أى مدينة يا أمى ؟ »، تذكرت الصغيرة أن أمها فى العام الماضى أيضًا رأت حلمًا بأنهم يفجرون مكانًا أثريًا تاريخيًا كانت تعرفه هى جيدًا إذ إنه كان فى كتبها الدراسية. دون أن تعرف المكان أو تزوره كانت تستطيع أن تستدعيه فى ذهنها بكلمات وعبارات مفككة...

استيقظت "ماريانا" أيضًا فجرًا مذعورة مصدومة من هذا الحلم المزدوج. رأت أيضًا أنها دخلت فى حلم أمها وبكت معها لاختفاء المدينة القديمة، إلا أنها كانت تستطيع أن تراها بعينيها. نعم، مدينة صحراوية، غارقة فى الصمت ومليئة بالسحالى والحشائش البزية. كانت تسير فيها الأم والبنت فوق الأطلال، عندما جاء زلزال وهز الأرض فاحتضنا جذع شجرة معمرة. كانت الأرض تهتز تحت أقدامهما، راحتا يندبان لأن الأطلال القليلة الباقية ستختفى للأبد. راحت أمها تجرى كمن يهرول لإنقاذ أحد إلا أن "ماريانا" أمسكت بها.

أجابتها أمها بلهجة غريبة وهى ترى الكارثة القادمة. ومنها ستفهم أنها تريد أن تقول إنهم لن يستطيعوا الدخول إلى المعبد لإنقاذ المذبح المقدس.

« لا تفعلى هذا يا أمى، وإذا بالأرض تنشق!» أشارت لها فى الأفق إلى هضبة بعيدة بدأت فى الإنهيار.

نهضت "ماريانا" من الفراش مذعورة وكان قلبها يدق بقوة.

« أتمنى ألا يصيبنى الجنون مثل دايزي» فكرت وهى تأخذ نفسًا عميقًا.

فصام العالم القديم، لم يكن هناك تعريف علمى دقيق لمثل هذه الحالة، لكنها تذكرت أنها قرأت ذات مرة أن "فرجينيا وولف" كانت تسمع الطيور تحدثها باللغة اليونانية القديمة.

لكن، كـان بجـوارهـا جـسـد ذكـورى نـائم بعمق، شـخص يُشـخـر شخيراً غير مألوف، يغطى نصف جسده ببطانية.

تساءلت مرعوبة: « من هذا الذى بجوارى؟ »

دخلت إلى المطبخ وشربت قليلاً من الماء، دخلت إلى الحمام، نزلت تحت الماء لتسترخى وتستيقظ جيداً. (فى النهاية وضعت "فيرجينيا وولف" على كتفيها حملاً ثقيلاً من الحجارة واتجهت نحو قاع النهر.) تعرقلت فى طريق خروجها من الحمام بزوج من الأحذية الرياضية مجهولة النسب والماركة له رائحة خاصة...

أى حُلم هذا! وهذه المدينة، أى مدينة كانت؟ نطقت اسمها فى أثناء نومها، بقليل من المحاولة كان بإمكانها أن تتذكره. حرف الألف مكرر كان يتردد فى أذنيها. « سسسسا...ااا...» وحرف سين مشدد ثقيل كصفير الرياح.

أمام المرآة نظرت إلى ثدييها،كانت معضوضة،أحد ثدييها معضوض من أسفل.ضغطت عليه؛ مر وقت طويل على قيامها بفحص، على العكس كانت تتركه يعض حلمة ثديها. ثدياها لابأس بهما، هذا الحمل فكك بعض عقد الذنب التى كانت مدفونة داخلها. لا داعى أن تحلل الأمر كثيراً. حتى هذا الألم البسيط فى ثدييها كان يمنحها شيئًا من الرضا.

نعم، كـان هو: "قـاسم". واجـد منـهم، واحـد من هـؤلاء. لقـد وقـعت بالفعل فى براثنهم. الآن لا تسعى أو تبحث عن رجل، مختلف. بل كانت تسعى إلى تكرار الإحساس، هذا بالضبط ماكانت تفعله "ناتاشا"، فهى لا تشخصن عشاقها، بل تحولهم إلى أرقام.

استيقظ "قاسم" وهو ينظر حوله متسائلاً. صغير الحجم بالنسبة لشخص فى الخامسة والعشرين من عمره، كان يرتدى سراويله الداخلى، وتذكرت "ماريانا" المشهد، عندما انتهى اتصالهم الجنسى ودخل هو الحمام ليغتسل وأعاد ارتداء سراويله الداخلى. اغتسل جيدا بعد ممارسة الجنس.

ربت على خدها وقبلها ودخل إلى الحمام. بعد أن عادا إلى البيت يحتضن كل منهما الآخر سقطا فى الفراش. كانت "ماريانا" تعتقد أنها بمثل هذا التصرف المفاجئ المقدام تطرد النحس وعدم الجرأة، وأن هذه الأشياء صارت تنتمى لعصور قديمة. إذ إنها هى من دعته.

حضرت قهوة تركية من أجل "قاسم" بجواره وضعت له قطعة من البسكويت. خرج مبتسمًا باحثًا عن جيل لشعره، لكنه اختار الكريم الخطأ(للوجه) ووضعه على رأسه الذى صار لامعًا بشكل سخيف.

قال وهو يمضغ البسكويت عديم الطعم المصنع من مواد صحية صديقة للبيئة: « سأرحل، تأخر تعمل».

« إلى أين ستذهب؟».

« إلى إيغاليو، أعمل فى مصنع... أنت لا يعمل؟».

« بلى، أعمل...».

ماذا ستقول له؟ إنها تعمل ثم تركت العمل منذ بضعة أيام؟ طلب منها "قاسم" رقم هاتفها وسألها إذا كانت ترغب أن يتقابلا مرة أخرى.

« نعم أريد أن نتقابل، لكن ليس على الفور، ليس الليلة».

تبادلا القبلات على الباب، طلب المصعد الذى خرجت منه السيدة "يورغيا" فدخل فيه "قاسم".

سألت السيدة يورغيا: « هل هو بائع متجول؟» « نحن لا نفتح لهم الباب يا عزيزتى ».

ألقت عليها "ماريانا" تحية الصباح وأغلقت الباب، على حين السيدة المسؤولة عن صناية البناية كانت تنتظر المزيد من الكلمات منها.

بدأ اليوم بمشهد جديد، كما يتغير المشهد فى مسرحية فتتغير الأحداث فى المشهد التالى. الليلة الماضية والتى لن تصفها بأنها كانت رائعة على مستوى الجنس،الإحساس بأنها هى صاحبة القرار فى حياتها وتحركاتها. أن لديها القدرة على الاختيار والسعى من أجل تحقيقه. إلا أن هذا الإحساس لم يستغرق أكثر من دقيقتين، لأنها

بوضوح كانت ترى الفخ الذى تقع فيه. كان "قاسم" علامة استفهام « متلازمة "ناتاشا" ». وكأنه خرج من جعبتها، وإن كان لم يلتحق أو يمر على خضرة حديقتها. عن أى استقلال تتحدث إذن؟.

بعد قليل سيستقبلها أصدقاؤها فى متجر الكتب الصغير بفرحة وصيحات ترحيب. ابتسامة "ثيونوروس" كانت مريحة جداً، قال لها وكان يعنى مايقوله: « اشتقنا إليك».

ذهب "ماركوس" إلى وسط المدينة من أجل طلبات الكتب. كانت الأعياد على الأبواب، كان المكان مملوءاً بإصدارات جديدة. جلسوا فى الحديقة فى الفناء المكشوف وراحا يتحدثا عن الكتب، مثلما كانا يفعلان فى السابق. كان "ثيونوروس" يعرف أن اختفاءها له علاقة بزبونته الثرية، التى كان لديه الكثير من الفضول ليتعرف عليها عن قرب. فكرت ماريانا، فى هذا أيضًا هى تفعل كل مابوسعها لتبتعد عن مركز "ناتاشا" وتراوغ قدر استطاعتها حتى تهرب من الحديث عنها على حين الجميع كل فى حقله ومكانه سواء القريب أو البعيد عنها إما مهتم بشأنها أو شاهد عيان يخصها.

« هل رأيتها من قبل يا ثيوذورس؟».

« أبداً لم أقابلها قط. لكن هذه المرة سمعت صوتها عبر الهاتف. طلبت منى أن أحضر لها كتاباً معيناً، ظننت أنه ربما يهمك». سحب من

على الرف مجلداً من الجلد الأرجوانى، طبعة فاخرة من الإصدارات الأثينية العلمية.

العنوان: قلاع الصحراء. الأثرى "أنجلوس يانوبولوس" وحفرياته فى الأردن. كاتب الدراسة الباحث "رفيق فهمى". الترجمة كانت عن اللغة الفرنسية وكان النص مصحوباً بصور عديدة. السيرة الذاتية لرفيق كانت مختصرة وقيِّمة فى الوقت نفسه، تؤكد شكها فى أن عمره متقارب من عمرها وإن كان يبدو أصغر من عمره. وبغرابة راحت تتساءل عن برجه، فلماذا لا يكون للأبراج معنى عند العرب بما أن مكتشفيها كانوا من حضارة ما بين النهرين الذين ظلوا لياليَ طوالاً يحدقون فى السماء؟.

ضمت "ماريانا" الكتاب إلى صدرها مثل مخطوط مقدس. قبلت "ثيوذوروس". وسألته متى تم طرح هذا الكتاب فى الأسواق فقال لها إنه صدر منذ أقل من أسبوعين.

« هذا النوع من الكتب موجه لنوعية خاصة من القراء. لم أكن أعلم أنه سيحظى باهتمامك يا "ماريانا" ».

« يانوبولوس هو والد "ناتاشا"... هناك الكثير من الأشياء التى لم نتحدث عنها بعد».

« الآن فهمت لماذا أتتنا دعوة لحضور حفل توقيع وتقديم الكتاب...».

« أى دعوة ومتى؟ ».

« بعد ثلاثة أيام، فى متحف الفن الإسلامى، هنا فى الحى نفسه، ها هى، انظرى! ».

أليس فى بلاد العجائب كانت ستواجه مفاجأة أقل وطأة إذا فتحت باباً صغيراً فى متاهة طريقها. الدعوة كانت تشرح كل شىء: « بمناسبة إصدار الكتاب، سيتم تقديمه فى متحف... إلخ». الاكتشاف كان فى أسماء المقدمين:

الباحث فى التاريخ اليونانى "جاك بواسيه" والباحث العربى" رفيق فهمى"، سيتبع الأمسية حفل صغير فى شرفة المتحف.

« هل تقدم لى معروفاً يا "ثيوذوروس" بأن تصطحبنى؟ على الأقل أنت تحمل دعوة بين يديك».

(٢)

توقف المرور في منتصف "أثينا". المظاهرة التي صعدت من الضواحي في اتجاه السفارة الأمريكية اقتربت من الوصول إلى ميدان "سينداغما". الهتافات اشتعلت والرايات الحمراء راحت ترفرف مرتفعة. كانت مظاهرة ضد الحرب قد نظمتها بعض الحركات والمنظمات المعارضة في العاصمة، مظاهرة سلمية ارتفعت فيها الهتافات الغاضبة بعد هجمة أخرى للقوات الأمريكية على العراق، هجمات لا تشي بأن هذا الاحتلال سينتهي.

أغلقت المتاجر أبوابها وانتشرت قوات الشرطة. الجمهور القليل الذي كان يتابع المظاهرة من على الأرصفة كان يتفادى الالتحام بالمظاهرة. النساء اللاتي خرجن للتسوق أدركن بذعر أن الأمر سيكون صعبًا لإيجاد تاكسي وتساءلن إذا ماكان المترو يعمل.

قد اختصرت "ماريانا" الطريق بالفعل من "كولوناكي" وفكرت أن تصل إلى بيتها من خلال شارع "ميتروبوليوس". في مقهى صغير في شارع ضيق في "سينداغما" كانت "مارثا" التي خرجت لتبدل زوجًا من

الأحذية تنتظرها، وهو شيء كانت تفعله باستمرار، وكانت تتجنب أن تشترى من المتجر نفسه. فى أحيان كثيرة كانت تقوم بهذا حتى لو ارتدت الحذاء لخمس دقائق خارج أبواب المتجر كأنت الرغبة فى اقتنائه تزول سريعًا.

وجدت "ماريانا" فى بداية شارع "إيرمو" فى اللحظة التى كانت المظاهرة تنحرف من شارع "ستاذيو" متجهة نحو شارع "فاسيليا صوفيا". مر وقت طويل لم تتابع مظاهرة، كأنها نسيت كيف يكون الأمر فى خضم مشاغلها. راقبت المتظاهرين، كانت تشعر بنبضهم، شعرت بالغيرة من وجودهم فى تنظيم أو حركة فاعلة. راحت تلاحظ الشعارات بدقة وترصد مصادرها، فى البداية انتبهت إلى اللافتة التى كان مكتوبًا فوقها باللغة العربية ثم نظرت إلى هؤلاء الذين يحملونها ويسيرون معها.

شعرت بألفة ما مع هذه الوجوه للاجئين السياسيين والمهاجرين، لكن بدا لها أكثر ألفة وجه "أحمد" الذى كان يسير وهو يدخن. اضطرت "ماريانا" أن تقطع كل الشوارع بعرضها حتى تصل إلى الرايات الحمراء فى المظاهرة، هى الآن على رصيف فندق « Grand Britain »، حتى تتأكد أن هذا الشخص هو بالفعل "أحمد". هل هو وحيد أم معه آخرون، لا يهم. لم يكن يهتف، كان يتبع خطوات الآخرين فى صمت، صمت ثقيل ومهموم.

أسرعت من خطواتها حتى جاءت على التوازى مع كتلة المظاهرة. فى هذه الأثناء حدث بعض الاضطراب والهرج فى مؤخرة المظاهرة، الهياج المعتاد الذى كان يبلغ ذروته عند قمة التظاهرة كلما اقتربت من السفارة الأمريكية.

نادت عليه: « أحمد» لكنه لم يسمع.

صرخت مرة أخرى، لكن صوت مكبرات الصوت لم يسمح لصوتها أن يُسمع. إحدى الفتيات نظرتِ إليها مستغربة وأعطتها منشوراً. دخلت "ماريانا" وسط حشود المتظاهرين وللحظة تاه منها "أحمد"؛ لأن تكتل الجموع كان يتغير إذ إنهم كانوا يستقبلون الضغوط من المجموعات التى كانت فى مؤخرة المظاهرة. كانت "ماريانا" قد وصلت عند مربع قصر "ستاثاتو" عندما أدركت أن عليها أن تهرول للأمام مع الجميع حيث إن على بعد عشرين متراً قد بدأت معركة بالفعل.

بعض المتظاهرين حاولوا أن يهدئوا من الأمور، لكن كلماتهم كانت تختنق فى سحابات دخان الغاز المسيل للدموع، وبدأ رجال ونساء بعيون دامعة يحاولون تجنب استنشاق الهواء بصعوبة بالغة.

داس شخص خلفها على حذائها فخُلع من قدمها عندما حاولت أن تهرب عن طريق حديقة مستشفى "إيفانجليزموس"، ثلاثة أفراد سقطوا فوقها فأوقعوها على أرض الشارع. بدأت الشرطة فى مطاردة الناس

فى كل اتجاه، كانوا يمسكون أى شخص يقع تحت أيديهم ويضعونه فى سيارة الشرطة.

لم يعرف أحد ماذا حدث فيما بعد، حجم النيران والخسارة والدمار الذى حدث. نجحت "ماريانا" فى الهروب نحو حديقة "زابيون" مشبعة برائحة الغاز والبارود. كان يهرول معها الكثير من المتظاهرين الذين كانوا يسبون الشرطة والفوضويين وحظهم العاثر. كانوا جميعًا يسبعلون بقوة ويطلبون الماء ليغسلوا وجوههم.

انهارت "ماريانا" على أحد مقاعد الحديقة وبكت، تصرف طبيعى كانت ستفعله أى فتاة فى عمرها. لكن، هل كانت تبكى لأنها خسرت الفرصة أن تتحدث مع "أحمد" لتعتذر له لأنها تسببت فى فقده لعمله، أم كانت تبكى على غياب العدل فى هذا العالم وغزو بلاد مابين النهرين، ليس لهذا أى أهمية.

لم تكن تبكى لا فى نومها ولا فى يقظتها. لهذا ربما يكون أمرًا جيدًا، مفيدًا بالنسبة لها. لم يحدث شىء لهاتفها، كانت "مارثا" مازالت تنتظر فى المقهى، سألتها بغضب: « أين أنت كل هذا الوقت؟»، كانت الحياة تسير بشكل طبيعى فى المقهى وفى باقى شوارع "أثينا".

قالت لها إنها نجت من الخروج إلى مدينة أخرى فضحكت الأخرى عاليًا.

« سترين ماذا سيحدث لك... بسبب هؤلاء الذين تورطتِ معهم...»

قالت لها أن تذهب إلى الجحيم وأغلقت الهاتف. بعد نصف ساعة سيهدأ ميدان القتال. خرجت إلى الشارع، بفردة حذاء واحدة، سارت نحو شارع "أماليياس" ثم "فيليلينون" وهناك استوقفت تاكسى حشرت فيه نفسها مع ركاب آخرين. كانوا جميعًا يسبون الأمريكان والأجانب وكل الأطراف. ورغم هذا كله، نجحت فى الوصول إلى بيتها وسقطت على الفراش. كان الهاتف يدق بلا انقطاع وعندما أجابت، كان صوت قاسم. سألها إذا كان ممكنًا أن يمر عليها كى يراها.

« ربما من الأفضل غداً » وقالت له إنها عادت لتوها مرهقة.

فتحت التلفاز الذى بدأ ينقل الأحداث من ميدان المعركة. احتجاجات واشتباكات، بدأت الحرب للتو، بشكل مذهل ومن الطرف الآمن.

(٣)

المدينة تحت الغليان البطىء، جثمت الرطوبة على صدرها، غطست فى رواسب سحب التلوث. ضوضاء المنازل، أصداء السيارات، أصوات بشر غير مفهومة، بكاء أطفال محاصرين فى المنازل، نباح كلاب الشوارع، أبواق السيارات العالية، ناس ينتظرون على محطات الحافلات، وناس قابعون فى شققهم حيث يلهون بقنوات التلفاز المئة ويزيد. البعض يتابع أكثر من تلفاز فى ذات الغرفة، كل يرتدى سماعاته الخاصة حتى لا يستمع إلى تلفاز الآخر. على سبيل المثال، فى الطابق الثالث من البناية المقابلة فى شارع "أرتيميسو": الأم، البنت، الجدة منعزلات. الطفلان يستمتعان فى ذات الوقت بوليمة التلفازات المفتوحة لاهين مهرولين فى الحديقة التلفزيونية.

فى لحظات كهذه كان "فاسيليس" يترك الشقة ويسيح فى الشوارع على امتداد السكك الحديدية، يشتبك بالأحياء طامحًا فى أن يرى فى أى شارع أو زقاق حيًا جديدًا لم يمر به، أو أنه سيقتنص لقطة فى مكان خرجت من مخيلته التصويرية.

بدأ الحزن بعد الظهيرة بقليل، عندما خرج إلى الشرفة فوجد ثلاثة رجال يتحدثون خارج البناية المهدمة حيث يسكن الأكراد. لم يسمع ماذا يقولون، لكن كان يستطيع أن يخمن بالطبع أن الوقت حان لهدم تلك البناية. كم من الزمن سيحتمل هذا الحى بناياته القديمة؟ كان قد قرأ بالفعل فى أحد صحف يوم الأحد أن هناك مخططات ومحاولات لإعادة رسم المنطقة بل المدينة بالكامل، لتصبح مجمعًا لمراكز التسوق والملاهى مثل تلك التى تنتشر فى المدينة. وها هو أحد رجال الأعمال الليلية يصرح، « لقد نظفنا المدينة... » وراح يكرر هذا التصريح بفخر فى كل فرصة.

لم ير "فاسيليس" أى أثر للأولاد. كما دخلوا فى صمت ودون أن يراهم أحد وبلا دعوة فى هذا المكان الخرب، بنفس الطريقة تشتتوا، خرجوا، حمل كل منهم ثلاثة أكياس باحثين عن بناية أخرى مهجورة.

انتظر "فاسيليس" أى إشارة أو رسالة على الأقل من دوران فى الساعات القادمة. هجمت عربات البناء فأصابته باضطراب. خلال أسبوع عليه أن يعلق أعماله فى مكان المعرض الذى لم يكن واثقًا حتى الآن أنه اتخذ القرار الصحيح، أعطوه الطابق الأرضى، وسيعرض معه فيديو للفنانين اللبنانيين الذين كانوا تحت رعاية وتمويل "تيتو" و"ناتاشا". فى مقابلة "تيتو" الأخيرة كان قد نقص وزنه عشرة كيلو جرامات تقريبًا.

ذعر "فاسيليس" عندما رآه،عندما قال له تيتو« أتمنى أن يسعفنى العمر وألحق بمعرضك »، أصاب "فاسيليس" الرعب. لكنه لم يكن يائسًا، لم تعد هناك فى دمائه قوة لأن تحارب الأمراض لكنه كان يحرص أن يكون بجوار السقالات والعمال. بالنسبة لتيتو المقاومة الوحيدة للأمراض كانت تكمن فى الإبداع، فى الفن.

شعر "فاسيليس" فى المرات الأخيرة التى التقى فيها بناتاشا أن المرأة بعيدة كل البعد عن الأراء والتعليقات السطحية والأساطير التى نسجت حولها. سيقلل من شأنها إذا وصفها بأنها « امرأة مهمة». شخصيتها الغامضة من ناحية، سلوكها وتصرفاتها غير المتوقعة من ناحية أخرى كانت تتطلب نوعًا من الحذر عند الاقتراب منها .سمحت لك "ناتاشا" أن تكون صديقًا لها، لكن لم تترك لك أى مساحة للحرية. لم يكن محض صدفة أنه لم يكن لديها صديقات حميمات وأن كل من اقتربت منهن كن يجدن صعوبة فى التعامل معها. كانت "رانيا" مثالاً حيًا على هذا، و "ماريانا" كانت تخطو على خطى السابقة. كان الأمر يحتاج إلى مخزون قوة شخصية من نوع خاص حتى لا تندفع للتوحد والتطابق أو التنافس مع امرأة كتلك.

فى المرة الأخيرة التى تقابلا فيها، أدرك أن "تيتو" يتعجل لإنجاز بعض الالتزامات، أو التطلعات ، يمكن أن تسميها ـ ماكان يدور فى رأسه على أية حال. الوضع الصحى المضطرب لتيتو قد أثر عليها كثيرًا.

« لقد تعبت أنا أيضًا يا "فاسيليس"، كل هذه الأشياء، كل هذا السفر. أعتقد أنني هنا تقريبًا أغلق دائرة ما ».

تُرى أى دائرة ستفتح الآن؟ هل الأمر له علاقة بما حكته "ماريانا"؟ وكيف ستُغلق هذه «الدائرة»، أو على الأقل جزء منها فى غياب "ماريانا"؟

قالت: « لست قلقة من تركها لنا. خلال أيام ستعود مرة أخرى. أنا فى حاجة إليها. لدى طريقتى كى أعيدها » ووضعت "فاسيليس" الذى كان لا يقع أبدًا تحت سيطرة افتراضات غير واقعية فى تساؤل محير عن طبيعة وحقيقة الطريقة التى كانت تعنيها.

ليلة بلا قمر، امتد الظلام فخفتت الأضواء. حزن المدينة صار ثقيلاً، مثلما كان العالم ثقيلاً من حمل البشرية على عاتقه، النزاعات، الضوضاء، الضرب الذى كان يحدث فى المظاهرات، اضطراب الناس الذى يستعد ليخرج من محبسه فى البنايات ويهرع بشبق ولهاث ليلتهم الشوارع بأظفار وأسنان تقطر دمًا.

لوحة الجحيم التى كانت تصور حتى الآن أماكن وأحداث واقعية للعقاب، كانت تصور ماهو أبعد من حدود الرسم، كانت تسهر فى ضمير المدينة وسكانها – غير النائمين، المعذبين من جشع الحياة اليومية، غير متحضرين، مستسلمين للعذاب والتأمل.كان فى هذه الحالة يتفق مع ناتاشا، إن « الحضارة» بكل أنواعها وأشكالها قد انتهت. من هذه النقطة كانت قد تبلورت لديه فكرة تصوير الاضمحلال.

قالت له: « يمكن أن توضح هذا فى لوحاتك "يافاسيليس" ومن يفهم يفهم. لكن بالطبع لن يشتريها أحد ».

توقف عند مقهى صغير فى منطقة "رووف". كانت الورش والمتاجر تغلق أبوابها. كان المقهى تظلله أغصان شجرة كبيرة عارية فى هذا المناخ الخريفى. على المقاعد القليلة كان يجلس ثلاثة رجال متوسطى العمر يتحدثون بصوت خفيض. جلس و طلب كأساً من العرق.

سأله صاحب المقهى البدين الذى كان يجر قدمه: « ألا تريد قليلاً من الزيتون معه؟». قال له "فاسيليس" أن يحضر ما يشاء.

مجموعة من الأولاد مروا كالعاصفة يتزلجون على لوحاتهم الخشبية، كانوا يصعدون وينزلون على الرصيف بشكل هجومى محطمين بعجلات لوحاتهم أسمنت الأرصفة وأسفلت الشارع.

جاء العرق مصحوباً بزيتونتين، قطعة من الجبن الجاف وشريحة من الخبز. لماذا ياتُرى استسلم تفكيره لهذا المعرض؟ فقد كان لسنوات يرسم لنفسه ولم يكن لديه أى شعور بالذنب. لماذا يعرض لوحاته، هل يرغب فى أن يشاركه الآخرون أفكاره فى أكثر أشكالها ظلامية؟.

عندما نهض ليغادر المقهى ثملاً بعض الشىء من كأسى العرق، دق هاتفه. لم يكن الصوت واضحاً لكنه من القليل الذى سمعه تنبأ بأن "دوران" كان خارج منزله، شىء سيئ قد حدث وكان عليه أن يصل إلى

هناك على وجه السرعة. هرع ليستبق حدوث الأسوأ وعندما وصل لاهثًا عند الباب الخارجى وجد "دوران"، كان وجهه وقدمه مجروحين، وداخل بنطاله الممزق كانت قدمه غارقة فى الدماء.

أمسك به بسرعة ووضعه فى سيارة تاكسى.

« لا، مشفى، لا ».

« إذا لم نذهب إلى المشفى، سيحدث لك ماهو أسوأ! ».

« قل لى ماذا حدثلك؟ ».

« تشاجرت... ».

الهدنة التى كانت بين جماعة الأكراد والعراقيين قد انتهت. طيلة اليوم كانت القنوات تعرض خبر قطع رؤوس ثلاثة من الأكراد أعضاء فى الحزب الكردى الديمقراطى. سلطات حفظ النظام العراقية اعتبرتهم معاونين للأمريكان.

"دوران" كان يبدو تائهًا. « أحد هؤلاء الأكراد كان أخاه » قال وهو يقاوم البكاء والنحيب. « أخوك؟ » أم « مثل أخوك؟ » لم يكن لهذا معنى على الإطلاق. الكثير من أصدقائه تم القبض عليهم من قبل الشرطة الجديدة لكنهم لم يستطيعوا الوقوف كثيراً فى الطوابير خارج أقسام الشرطة. كان الناس يخرجون بالعشرات. المدن كانت محاصرة، وشذر النيران يخرج من الرمال.

شىء لا يمكن تصويره أو التعبير عنه. الحقيقة صارت واضحة فى الأفق.

مال "دوران" برأسه على كتف "فاسيليس" وبدا عليه الإغماء. كان "فاسيليس" يتابع حركة السيارات فى شارع "بترو راللى" وهم فى الطريق نحو مشفى "نيكيا". فى الإشارة قبل نهر "كيفسوس"، توقفت سيارة ماركة ألفا روميو بجوارهم وصوت الموسيقى كان على أعلى درجاته. وصوت يغنى الراب بغضب يخرج منها. حاول "دوران" أن يفتح عينيه بصعوبة لينظر إلى شباب من سنه، على حين كانت السيارة تنحرف بسرعة شديدة نحو مجمع السينما. تعرف على صوت "إمنيم" الغاضب.

(٤)

جلست أمام شاشة الكمبيوتر وفتحت بريدها الإليكترونى. خمس عشرة رسالة إعلانية من شركات وهمية مطلوب فى جميعها أن تدفع لهم ليس فقط أموالك ولكن كل بياناتك الشخصية والبنكية أيضًا. رسائل أخرى كان أغلبها من شركة الإنترنت، وأخرى كانت عناوينها عبارة عن حروف إنجليزية غير مفهومة. وأخرى كانت تبدو وكأنها محملة بالفيروسات الإليكترونية متأهبة للهجوم ينذر بها نظام الفيروس المضاد الحساس.

لكن، كانت هناك رسالة بعنوان EUNUCH.org. كانت تبدو غير معتادة. فى البداية ظنت أنه إعلان عن أحد العقاقير، ثم تنبهت أن برنامج الفيروس المضاد لم يمحُها. فتحت الرسالة، بعد التمهيدات المعتادة فى كل رسالة إليكترونية، كان هناك عنوان لموقع يسمح بالدخول المباشر www.EUNUCH.org.

خافت أن تفتح الموقع، لأنها سمعت مرات عديدة أنه بمجرد الدخول إلى مواقع مجهولة كانت الوحدات وبالتالى التكلفة تجرى بسرعة رهيبة.

فى غضون ثلاث ثوانٍ وجدت نفسها أمام بوابة لموقع جديد بلا صور ولكن رموز منتشرة ومتفرقة وحكايات لأشخاص باللغة الإنجليزية. الذين قد مروا بتجارب ما؟ أى تجارب بالضبط؟

فكرت للحظة أنه ربما يكون "أنتونى"، فهو يعلم مايسيطر على اهتماماتها فى الفترة الأخيرة، ولذا فقد أرسل إليها هذه المواقع المخبولة. ستستطيع أن تتأكد من هذا فى وقت لاحق بعد أن ترسل له رسالة تستفهم فيها عن الأمر.لاحظت أن أغلب النصوص المكتوبة تحكى عن تجارب عجيبة للتضحية والخصى ترجع إلى عصور من الماضى ! المثير في الأمر أن أعداد الذين يسجلون شهاداتهم كبيرة جداً، عشرات الصفحات. لكن هاهو....

« زيارة فى معبد الإلهة العزى ».

هنا نحن: هذا يفسر الأمر كله. لابد أن "أنتونى" أرسل لها هذا الموقع ليضعها على طرق تفاسير أكثر من أجل ما تبحث عنه.

وماذا كان يقول النص: « وصلنا إلى مدينة مهجورة أو أطلال مدينة متأخراً فى المساء. ضوء الشمس سيصبغ كل شيء باللون الأرجوانى، حشائش قليلة، حجارة، حجارة تغطى المكان. من الماضى الهلينيستى لم يتبق شيء، بعض الأعمدة ذات تيجان كورنثية عند بداية المدينة التى تقع فوق هضبة مُرهقة...».

ابتسمت "ماريانا". فقد كان أسلوب الوصف وإن كان باللغة الإنجليزية هو ذات الأسلوب الذى يميز الرحالة والمسافرين فى كل العصور، تكسبهم تجاربهم الفريدة وانبهارهم شيئًا من الأناقة، يبدو هذا الأسلوب مملاً للبعض ومبهجًا للبعض الآخر - مثلما نعرض صوراً من عطلاتنا ويشيح بعض الأصدقاء بوجوههم بعيداً.

أيضا وبسبب أن النصوص كانت مكتوبة باللغة الإنجليزية صَعُبَ عليها أن تدرك إذا كان كاتب النص رجلاً أم امرأة. أيًّا كان فى النهاية، وبينما كان (يجول الشخص) بين الأطلال، نجح فى النهاية أن يجد بقايا معبد الإلهة الكبرى فوق أحد التلال المقدسة، معبد مهجور، مبنى هندسى. فى الظلام ميز أشكالاً منحوتة على الحجارة ونقوشًا غير مفهومة وصعبة النطق.

طبقًا لما هو مكتوب، داخل المعبد كان الشبان الأبطال فى أوج الذروة يضحون بذكورتهم على معبد الإلهة الكبرى. كانوا يستقبلون قدوم الربيع بالرقص المقدس مصحوبًا بالطبل والصنج والمزامير، يدورون بملابسهم البيضاء ويضربون النغمات فيما بينهم وسط زخم الرقص الشبقى الذى كان ينتهى بطقس الإخصاء...

عدّلت "ماريانا" من وضعها على المقعد وألقت برأسها للخلف. ربما تستطيع أن تدخل إلى الحلم مرة أخرى، لكن الحكاية صارت كابوسا، لأن تلك الأطلال كما هى موصوفة فى هذا النص كانت مطابقة لتلك التى

حلمت بها ذلك اليوم، وأى علاقة يمكن أن تكون لأمها "دايزى" الوديعة الهيستيرية بكل هذه الأشياء؟ حتى نطق اسم المدينة فى حلمها ذاك... كان يذكرها بالصحراء التى تم وصفها فى النص، نيساسانا ! فى صحراء نجف !

كتبت على عجل فى رسالتها: « أرجوك يا أخى » «أجبنى، هل أنت من أرسل لى رابط هذا الموقع .....؟ هل أرسلته من صفحة أخرى؟ فلم أر بياناتك فى أى مكان فى هذا البريد الإلكترونى الذى وصلنى ... من فضلك، أجبنى بسرعة!».

الحالة كانت تتطلب كأساً من الليكير، أدركت أنها دخلت فى دوامة قصة ما تأخرت هى كثيراً حتى تكملها. كانت تتجنب مقابلة "ناتاشا" لأسباب لم تكن تتعلق بمسيرة طويلة. شربت كأساً ثم أخرى من الليكير وفى الثالثة كانت قد استرخت تماماً. خلعت ملابسها واستلقت عارية على الفراش الذى تخيلت أنه قاعة لطقوس العبادة. لم يكن هناك ثمة ضحية فى المشهد، لكن يبدو أنها لم تتعامل بغباء مع العناصر التى قدمت لها ولم تستثمرها بالشكل المطلوب لإكمال طقسية المشهد.

قشعريرة لذيذة تسللت إلى جسدها، ذكرى الرجال، الحنين للنشوة. أجساد ضائعة، رجال كانوا أضحيات على فراش الإلهة. شعرت بكهرباء فى شعرها فأغلقت عينيها لتتذكر الحلم والرحلة. لكن يا إلهى – لم يكن حلماً !

هبت واقفة فى غضب. كانت أمـها، "دايزى"، قد حكت لها عن تلك الرحلة التى قامت بها مع صديقاتها المعلمات والأثريات كن أعضـاء فى إحدى الجمعيات التى كان مقرها فى شارع "مرسيليا" فى وسط المدينة وكن ينظمن رحلات فى بلدان التاريخ والماضي. كانت أمـها تشارك فى هذه الفاعليات بنشاط، كانت قد تعرفت عليهن منذ أيام الدراسة ووطدت علاقتـها بهن بعد ذلك. أكثرهن كن متزوجات لكنهن استمررن فى ممارسة هواياتهن وإن لم يكن لديهن جميعًا ذات الحماس ولا حرية اتخاذ القرار.

* * *

« أبى ... ».

« ماريانا، كيف تذكرت أباك؟ ».

كان صوتها يرتعش على حين هو كان يتساءل ماذا حدث لابنته التى لم يقابلها ولا حتى مرة فى الشهر.

« الأمر يتعلق بأمى ... ».

تنهد الرجل العجوز. كان صوت التلفاز يُسمع من الداخل، وصوت صراخ بعض النساء « يتحاورن» فى إحدى المسلسلات اليونانية.

« أخفضى الصوت، اللعنة على هذا الجهاز اللعين! ».

« اهدأ يا أبى ... ».

« ليس من المعقول أن تشاهد التلفاز ثمانى ساعات يوميًا، يالها من غبية! ».

المرحومة أمها كانت تتجنب فتح التلفاز، « لتفتحوا كتبًا » كانت تقترح عليهم دومًا بل وكانت ترسل خطابات إلى الجرائد وإلى الجهات المعنية تعترض على سياسة الدولة الثقافية...

« قولى يا"ماريانا"، هل تذكرتنى بسبب أمك؟ ».

« كى لا ننساها. أريد منك معروفًا يا أبى، أريد منك أن تتذكر شيئًا، لابد أننى كنت فى ذلك الحين صغيرة جداً... هل تذكر أن أمى ذهبت فى رحلة مع تلك الجمعية... وكانت تعتنى بى الجدة إرسيى ».

« هل تعنين الرحلة إلى الشرق الأوسط! لا أدرى لماذا يسمونها بالأوسط، فهى لابد أن تكون بداية الشرق لا أوسطه؟ على أية حال، أذكر هذا لأن عقلها تحول تمامًا بعد هذه الرحلة. هذا لا يعنى أنها لم يكن لديها الاستعداد قبل ذلك... ».

« لا تتحدث هكذا عن أمى ... ».

« أمك كانت مثيرة للريبة والمشاكل يا "ماريانا"، لابد أن تفهمى هذا الأمر وتدركيه حتى تتخطيه ».

« لقد تخطيته يا أبى،. قل لى، ماذا حدث بالضبط؟ »..

« ذهبوا إلى الأردن. وهناك – تخيلى ـ ساعدتهم فى الحصول على تصاريح إحدى بنات الملك التى كانت تدرس فى الخارج مع إحدى اليونانيات التى كانت صديقة لأمك. استخرجون التأشيرات، نظمن أنفسهن وذهبن. شاهدن، كما قالت، معابد يونانية قديمة، ماهذا الهوس فى أن يثبتوا أن اليونان قد ملأت العالم بآثارها. هذا ما أعرفه. جاءت من هناك ببعض الصور، أليس لديك ألبوم صور عائلى؟ ».

نعم، لديها، لكنها قد أغلقت عليه فى دولاب مع مذكرات الطفولة.

أغلقت الهاتف مع أبيها المتسائل، تمسكت بآخر كلماته لتكون محور تفكيرها القادم: « دخلوا، قالت، داخل أحد الأطلال وقد أثر هذا عليها كثيرا...».

قال أبوها بسخرية لاذعة: لقد كان تأثير صدمة الشمس شمس الصحراء أثرت على قواها العقلية،وإن كن يرتدين العمامات هناك.

(٥)

المشـهـد كـان مـبـهـراً جداً للمـارة والركـاب فى شـارع "بيـريوس" الذين تصـادف وجـودهم على مـقـربة من شـارع "أسـومـاتون": امـرأة ناضجة أنيقة تسير على قمة الشارع فى شكل أشبه بالموكب. على يمينها ويسارها رجال فى سن الشباب وخلفها أيضا رجال، وخلفهم شباب أكثر.

حتى إن إحـدى الحـافـلات هدأت من سـرعتـهـا قليـلاً ليمـر الموكب، راكبة كانت فى اتجاه منطقة "نيكيا" فى (بيرييا...) علقت قائلة: « ياربى، ياله من فستـان سـهرة رائع »، على حين أضـافت جارة لهـا فى الحـافلة تبدو عليها العنوسة وتحمل كيساً بلاستيكيًا فى يدها، « من الممكن أن تكون ممثلة، فهناك مسارح كثيرة فى هذه المنطقة...».

المرأة الناضـجة بشـعرها المصفف ورموشـها الكثيفة المكحلة التى كانت تضـاعف مـن اتسـاع العينين ورسـمتـهمـا أيضـًا، كانت تنظر فقط للأمام.كانت مرة من المرات الكثيرة التى قررت أن تعبر شارع "بيريوس" سيراً على الأقدام نحو الاتجاه المعاكس. فالمسافة بالفعل كانت قصيرة ولا تحـتمل ركوب السيارة. هذا غير أن ركوب السيارة كان سيُجعد

فستانها الأنيق: فستان أخضر فريد منقوش على أكمامه الضيقة خناجر ذهبية ووشاح أرجوانى شفاف على رأسها يكاد يلامس الكتفين.

عند وصولها إلى متحف الفن الإسلامى، رفعت "ناتاشا" الوشاح وكشفت عن جبينها قليلاً، كإيماءة بالتقدير والاحترام للمكان. شركة أمن خاصة تولت التأمين والحماية حول المتحف.

فى قاعة الطابق الأول بين التحف الفريدة خلف نوافذ العرض وضعوا مقاعد منخفضة ومصطبة عالية للمحاضرين. بالضبط بجوار المصطبة كانت منضدة بيزنطية رائعة عليها نسخة من الكتاب الذى سيتم تقديمه.

حيّت "ناتاشا" أشخاصًا عديدين كان لهم علاقة بتنظيم الحدث وكذلك بإصدار الكتاب ثم جلست فى الصف الأول ووضعت على ركبتيها حقيبتها Hemes تليق بالمكان والحدث. جلس بجوارها "جاك"، "رفيق" و"تيتو". باقى شباب الصحبة جلسوا فى الصفوف الأخيرة، فى منظر وموضع يثير كل أنواع الانبهار والتساؤل. كان بالقاعة تقريبًا خمسون شخصًا، مدعوين من المتحف. وصلت "رانيا" وهى تلهث جارّة حذاءها ذا الكعب العالى الذى كان يدق بصوت عالٍ وسيئ على الأرضية الرخامية اللامعة. كان فى صحبتها "فاسيليس" الذى كان يلف حول عنقه كوفية طويلة جداً.

قبل قليل من انتهاء المقدمة، صرح مدير الإصدارات وأكد على الأهمية والحاجة لمثل هذه الإصدارات التى تساعد على فهم الحضارات فى عمق الزمن وتفسر الظروف والسلوك المعاصر. فى هذه اللحظة بالضبط كانت "ناتاشا" تخرج من أمام الجامع المضىء الموجود فى الجهة المقابلة وتدخل إلى القاعة، ببطء وحرص، كانت "ماريانا" مع رجل يجلسان فى آخر القاعة. ابتسامة سعيدة ارتسمت على شفتيها الحمراوين، وربما ثمة ارتياح جثم على صدرها.

الكلمة صارت لجاك، الذى أشار باختصار إلى دور الأثرى "أنجلو يانوبولو"، وإلى رحلاته البعيدة واكتشافاته المبهرة فى الشرق الأوسط وأبحاثه فى فترة زمنية غيرت وجه العالم: أكد جاك فى كلمته، أن عمل "يانوبولو"، هو دليل واضح على عمق شخصية الحضارة اليونانية فى العالم الإسلامى الجديد آنذاك، دليل على أنه على الأقل هناك بعض جذور الثقافة الإسلامية لها قواسم مشتركة مع نظيرتها اليونانية.

صفقوا له بحرارة، أعطى الكلمة إلى الأثرى والمتخصص فى الحضارة العربية – فى واقع الأمر كان يُكمل أبحاث "يانوبلو" لكن من الضفة الأخرى.تحمس الجمهور عندما رأى أمامه شابًا أنيقًا ينهض ويحييهم باللغة اليونانية. رفيق فهمى الذى اعتذر للجميع أنه لن يستطيع أن يلقى كلمته بلغتهم. كلمته المختصرة سيلقيها باللغة الفرنسية مع ترجمة فورية إلى اليونانية.

أشار إلى خريطة، هذه الخريطة التى كانت موجودة بالفعل وبحوزة المتحف، إذ إن كل طابق فى المتحف كان مخصصًا لفترة من فترات الفن الإسلامى. الخريطة كانت توضح الأماكن التى عمل بها "يانوبولو". هنا لوحات الفسيفساء التى وجدت فى كنيسة فى منطقة "أم الرشاش" فى الأردن،حيث تم التعرف على الختم المنقوش باليونانية. نفس لوحة الفسيفساء كان بها رسوم لمدن فى المنطقة منقوشة أيضًا باللغة اليونانية. الثقافة اليونانية فى تلك المنطقة،فى الفترة ٧٨٥ ، كانت متعمقة فى المكان وكانت مصدراً للفخر أيضاً.

انتقل بعدها للحديث عن قلعة عمرة، هذا الملجأ الذى يقبع فى منتصف الصحراء، وبها ملامح يونانية عميقة. الإله "ذيونيسوس" على حوائط القلعة وسماه بـ "ذيونيسوس العربى"، لكن هناك "ذيونيسوس" آخر على لوحات الفسيفساء فى بيت الجليل فى فلسطين. على الحوائط تستخدم اللغة اليونانية كلغة للتصوير لتخليد أسلوب الحياة العربى بعيداً عن القواعد وبعيداً عن الدين الإسلامى.

فى هذه النقطة وضد كل الأعراف الرسمية والنبرة الرسمية للحدث، كان هناك تصفيق تلقائى من الجمهور، على حين أخرجت "ناتاشا" من حقيبتها منديلاً حريريًا وجففت عينيها، خشت، – ربما – أن يفسد خط الدموع طلاء وجهها الذى كان من أفخر الأنواع.

انحنى "رفيق" عندما رأى حماس المستمعين وفى تلك اللحظة لاحظ وجود "ماريانا" فى عمق القاعة، متحجرة مثل نقش على الصخور. وقد رآها فى لحظة مندمجة تمامًا فيما تسمعه عندما كان يسعل ليكسب بعض اللحظات فى أثناء إلقاء كلمته.

أكمل رفيق: « فى نفس هذا المكان كانت حفريات يانوبولو فى صحراء نجف، حيث كانت بعض المخطوطات مكتوبة بلغتين، اليونانية والعربية. صفقات تجارية كاملة، مرسلة إلى "دمشق" وإلى "مصر"، نصها مكتوب باليونانية كلية. هذه البرديات ترجع إلى عام ٦٨٥ .».

تساءل صوت نسائى فى العمق، متسرع بعض الشيء، قبل أن يكمل حديثه: « كيف قلت اسم المدينة؟ ».

"ثيوذوروس" الذى كان يجلس بجوار "ماريانا" فوجئ من تدخلها المباغت.

رفع "رفيق" رأسه ونظر إلى منبع الصوت المتلهف:

« نيسانا » أجاب. « نيسانا/ العوجا ».« ... أه ه ه... » همست "ماريانا"، بأنفاس متقطعة.

ثم سقطت مغشيًا عليها على الأرض فأخرجها الرجال، التفتت "ناتاشا" وهمست إلى أحد رجالها قائلة « اذهبوا بها إلى منزلى مباشرة».

ثم اعتذرت من الجمهور على المقاطعة. « ألتمس العذر منكم. فلم تحتمل الشحنة العاطفية...» .

عاد "رفيق" إلى المنصة وهو مرهق جداً. كان يشعر بدوار كأنه فى مكان على ارتفاع مذهل، أدرك أن هذه الفتاة كانت ضحية للتاريخ العتيق والمعرفة العميقة به. أو أن شيئاً ما كان يحدث فى هذا المكان بشكل ما، كأن هناك قوة ما خفية تحيط بهم وتسيطر عليهم وتفعل بهم ماتشاء.

الجزء الثامن

الحديقة تزهر فى الشتاء من جديد

(١)

مدينة مخفية. ميدان مغبر. أصوات أغانٍ شعبية عالية. حجارة بيضاء، أضواء الشموع. الزقاق. ظل يتسلل. الرجل ينحنى فوقها . هو الرجل نفسه الذى قادها نحو أقاصى الصحراء، أمى.

« أمك؟».

انحنى فوقها "رفيق". متى رأته قبل ذلك؟ ألم يكن يتحدث قبل ساعات فى المتحف، أو ربما قبل أيام؟.

شارب ولحية صغيرة يشكلان مربعًا حول فمه وذقنه، عينان دامعتان، وكأنهما سيقطران فوقها رطوبة رجولية. خجلت. قال لها إن "ناتاشا" لم تستيقظ بعد، لكنها كانت سعيدة جداً من ليلة الأمس. كل شىء كان على مايرام.

« كيف كان كل شىء على مايرام بعد مافعلته أنا؟».

« كانت مجرد إغماءة بسيطة » ثم أكمل ملتمساً لها العذر. « لابد أنك كنت مرهقة جداً ...».

خجلت من حالها فقد كانت أمامه فور أن استيقظت دون أن تمر على الحمام.

« طلبتُ من "ناتاشا" أن آتى لأرى إن كنت بخير. الآن أراك بخير، فيمكننى أن أذهب...»

لم تكن متأكدة أنها على مايرام. هاتفها الجوال، الإزعاج المحمول، كان لديها ثمانى مكالمات فى قائمة المتصلين. نصفهمْ كان من "قاسم". استغرقت قليلاً من الوقت حتى تميز من هو "قاسم". نهضت ودخلت إلى الحمام. لماذا بدا لها البيت - مهملاً ؟ - كان هناك إحساس بأن البيت مهجور، يمكن أن يكون قد بدا لها كذلك، لاشىء أكثر من هذا. نظرت إلى وجهها فى المرآة، كان وجهها متعبًا لكنه هادئ. كيف يمكن أن تعترف بسعادتها أنها عادت إلى بيت الكيراميكو، فى هذا البيت الواسع، الذى سيخلو بعد بضعة أشهر؟.

استرجعت فى ذهنها وجه "رفيق" عندما انحنى فوقها وكأنه يتفحص مخطوطة من البرذى. لسبب ما لم تدركه بعد، بقى "رفيق" خارج قائمة اهتماماتها بالرجال. ربما يرجع الأمر لجدية عمله، لصداقته لجاك، كونه يقيم فى شقة أخرى كان يقصيه من دائرة غنائم "ناتاشا". لم يكن "رفيق" مهاجرًا أو هاربًا أو مطرودًا من بلاده، كان يسافر بجواز سفر قانونى، كان لديه عمله ومستقبله. كان أكثرهم طبيعية ونضجًا إذا قورن ببقية الرجال الذين يرتادون هذا البيت. لم يكن يبحث عن ملجأ ولا عن مخبأ.

تأكيداً لأفكارها سيأتى بعد ساعة، عندما ستجيب على مكالمة "قاسم". كان يبحث عنها ويطلب مساعدتها. تم القبض عليه فى أحد أكمنة الشرطة وتحفظوا عليه.

« ماذا تريدنى أن أفعل؟».

« أن تجدى لى محامياً. أنا فى مشكلة...».

« أليس معك أوراقك؟».

« كان عندى أوراق، ضاعت منى ».

« لا أستطيع أن أفعل شيئاً. كان لابد أن تحترس».

أغلقت هاتفها غاضبة. فقد كان شىء ما يمنعها، شىء ما يحزنها، لكن لم تكن لديها أى دوافع أو حماسة كى تنشغل بحالته وبالصعوبات التى يواجهها والتى سببها هو لنفسه. هل كانت "ناتاشا" محقة عندما قالت إن الشرطة تفرج عنهم فى أسرع وقت؟.

كان "رفيق" يجلس على الطاولة بجوار النافذة يقرأ ويشرب كوباً من الشاى.

قال لها: « ستأتى "ناتاشا" بين اللحظة والأخرى ».

ألقت نظرة حولها، وراحت عيناها تتجولان فى الحديقة، وفى المضيفة الذائبة. كان الصمت يحوم فى كل مكان. تساءلت للحظة إذا كان "رفيق" قد نام معها – لماذا كانت متأكدة أن هذا لم يحدث؟ قضت

وقتًا لا بأس به تحلل وتنظّر وتستنتج تحاول بها أن تثبت أن "رفيق" رجل مختلف. من أين أتت لها كل هذه الثقة؟.

« هل نمت جيداً؟ ».

« لا بأس. نمت هنا فى الصالون. كنت أنظر إلى الحديقة طوال الليل. يالها من حديقة عجيبة ! توحى لك دائمًا بأنك خارج البيت، وكأنك فى مدينة أخرى كبيرة. حديقة كهذه تحتاج للكثير من العمل، وتحتاج إلى بستانى جيد».

«,تحتاج إلى الحب. النباتات يا"رفيق"، تتكيف مع البشر، تسمع وتطيع، تصبح امتداداً لهم.نحن فى بيتنا لم يكن لدينا ولا أصيص واحد. كنا نضع أشجاراً بلاستيكية ضخمة فى الصالون. وعندما كانت تأتى السيدة التى تنظف لنا البيت بدلاً من أن تروى كانت تنزع الغبار من على الأوراق البلاستيكية».

راح "رفيق" ينظر إليها منبهراً.

« لم تكن أمى تحتمل النبات. كانت تظن أنها تجلب لها الحساسية. وأن النبات يخفى فى جذوره أنواعًا من البكتيريا العجيبة الخفية، وأنها تجمع الدود...».

« هذا من سوء حظ أمك... ».

« ومن سوء حظ النبات أيضا... ».

« هل ذهبت أمك فعلاً إلى العوجا يا "ماريانا"؟».

« نعم، فقد كان هذا هو الحلم الذى يؤرقنى. رأيت بعض الصور التى أخفتها أمى. حاولت أن أستفسر وأفهم إذا اتصلت بصديقاتها القدامى».

« ثم؟ ».

« نعم، كما تتخيل بالضبط... ».

« بمعنى...؟ ».

« دخلت وخرجت وتجولت فى أطلال المعابد. كان للحر وللمكان تأثير قوى عليها. صارت بعدها مثل جنية... كيف لم يذهب عقلها تماماً. ربما انتحرت، لا أحد يعرف؟ كنت صغيرة آنذاك، لم أفهم شيئًا فى حينها. لسنوات حاولت أن تقول لى قصة المدينة التى ضاعت... حبيبتى، كانت تعيش فى عالمها الخاص...».

« بل فى عالم الإلهة العزى! ».

« هل تصدق أنت أيضًا هذه الأشياء؟ ».

ضحك "رفيق": « أنا؟: بالطبع لا،لا أحد يؤمن أو يصدق فى هذه الأشياء. كل مايوجد وراء هذه الأشياء، هو الظروف التى كانت تحيط بها وقت حدوثها أو نشأتها».

« لكن أنا أصدقها! ».

كانت "ناتاشا" واقفة، تلف جسدها بروبها المنزلى، شعرها غير مرتب وقالت بثقة:

« أومن بالحجرة الصغيرة، بالطبيعة، بالصحراء، بالأبدية. أعتقد فى كل ماكان موجوداً من قبل. فى الانسجام والاتفاق بين كل عناصر العالم. أمك يا "ماريانا" لابد أنها كانت قد وصلت إلى لحظة استقبال الحقيقة لكنها لم تحتملها، هذا لا يعنى أنها لم تكن امرأة قوية. بل كانت كاهنة للعالم...».

شعرت بالرضا عندما قالت كلمتها الأخيرة، دخلت إلى المطبخ وخرجت بفنجان من الشاى.

« أنا سعيدة لعودتك يا "ماريانا"، لقد عدت فى الوقت المناسب. ولن تندمى على هذا ».

جلست معهما على مقعدها الوثير. شعرها، كان عبارة عن حفنة كبيرة من الشعر الكثيف يتدلى من على قمة المقعد.

« أليست الحديقة جميلة؟ يبدو كأنها أزهرت من جديد. أم أن هذا يبدو لى؟ ».

علق رفيق: « الحديقة فائقة الجمال خسارة أنك لا تقيمين هنا بالصيف لتستمتعى برطوبتها... ».

« كم أخشى كثيراً أننى لن أراه حتى فى الشتاء....».

نظرا إليها باستغراب.

وصلتنا بعض التهديدات « فى المتحف، بالأخص فيما يخص معرض الصور».

تفاجأ "رفيق"، أما "ماريانا" فقد ارتعبت.

« هل تريدين أن تقولى...».

« تهديدات تليفونية. من بعض الأشخاص الذين لا يريدون أى إشارة أو حديث عن تلك الفترة. وهم كثيرون ومن جهات مختلفة... ».

قالت "ماريانا" بتوتر: « لكن؟ » ،

تدخل "رفيق" بهدوء فى الحديث قائلاً إن المتاحف تتعرض لاحتجاجات وتهديدات حتى بسبب أحداث ومعارض أقل أهمية. ربما موضوع الوثنية العربية يضايقهم. «نفس النزاع » ثم فسر لماريانا، أن نفس النزاع يحدث بين « الثقافة اليونانية القديمة والديانة المسيحية...».

أكدت "ناتاشا": « قلت لكم إن تلك المواضيع والأمور تضايق كل الجهات.لكن لست أنا التى ستتوقف لتبحث فى أمور كهذه. نحن نبحث عن الدلائل، لسنا كالجهلاء المُغيَّبين...».

« الآن فهمت لماذا لا تريدين البقاء...».

كانت "ناتاشا" متمسكة بآرائها وعنيدة.

« كل هذا لا يخيفنى. أنا لا أنزلق ولا أنحنى فى ظروف كهذه أو بسبب مزاح سخيف. الأمر يتعلق بقناعاتى أنا الشخصية فيما يخص الحياة. لا يمكنك أن تعيش فى ذات البيت لمجرد أنه بيت جميل، أن تستيقظ فى ذات المكان الذى ترتاح فى مناخه. أن تنام مع ذات الرجل لأنه يعتنى بك ».

سُمع صوت صرير الدرج من خطوات أحد. فى البداية بدت أقدام رجل عارية ثم بنطال أبيض واسع. على صدره شعر خفيف. بلا شك كان يملك أجمل جسد شاهدته فى حياتها على الإطلاق.

قالت "ناتاشا" بكسل ودلال: « حمزة: أعرفك على أصدقائى ».

(٢)

أغدت المنضدة فى الصالون وكان كل شىء يذكر بتجمع ليلى عائلى، مثل تلك الأيام فى السابق، لكن غاب عن هذا الجمع الأعضاء الأساسيون الذين يكملون الصورة البانورامية لعائلة مرتبة. غياب الأطفال والمسنين الذى يعطى لأى تجمع سحره ومرحه. مثلما يحدث فى عرض مسرحى أو حلم مثير، هكذا الحال هنا كل شىء يتم بإيقاع وترتيب منظم دون أى أمل فى تكراره.

لكن هذا لم يخف المرأتين اللتين قد أكملا مهمة الكتابة وأغلقا الحاسوب وصندوق الدفاتر والمذكرات الذى فرغ بسرعة. لم يتبق سوى حفنة من الدفاتر الصغيرة تُعد على أصابع اليد الواحدة، لم يستطع أحد أن يقيس كثافة التدوين فيهم إذا اعتبرنا أن كلمة يمكن أن تتطلب يومًا كاملاً لتفسيرها وشرحها.

وقفت "ناتاشا" وفتحت زجاجة من النبيذ وطلبت من الصحبة أن يتبعوها إلى الحديقة. هناك، فى منتصف الفناء بجوار النافورة والدلفين الرخامى، وضعت مجمرة قديمة بها فحم أحمر مشتعل كانت تخرج منه

حمم ساخنة. كان بريق الفحم يتحرك وفقًا لقوة الهواء وشعلته الداخلية، فتارة يشبه بلورات نارية وتارة يشبه مقرنصات حمراء. لكن الفحم ينوب ويتحول إلى رماد مع دفاتر "ناتاشا".

حرقت وثائق حياتها، رغم إصرار "ماريانا" على منعها من هذا الفعل الحاسم، فإنها تلقت ردًا حاسمًا: « إذا كانت حياتى هى فقط هذه المخطوطات، إذن فمن الأفضل ألا تبقى...».

استمر بهما العمل لوقت ليس بالقليل، كانتا تعلمان أنهما اقتربتا من النهاية.ماكان يقلق "ماريانا" هو أن "ناتاشا" بدأت فى عدم الاهتمام بما يتم إعادة كتابته وصياغته على جهاز الكمبيوتر، لم تعد تصر على الإشراف أو المراجعة مثل ذى قبل. فكرة أن هذه النصوص كانت هى السبب الرئيسى فيها، كان يمنحها شيئًا من الثقة والراحة أن تقرأ مقاطع منها للأصدقاء الذين كانت تدعوهم للطعام فى البيت،كانت تطلب أن تسمع رأيهم، لكن على الأخص كانت تستمتع بتعليقاتهم التى كانت تدور حول براعة صياغتها، وفى كل مرة يُسمع تعليق كهذا كانت تلتفت نحو "ماريانا".

« ها هو الفاعل...».

كان نقل ثقل الكتابة من "ناتاشا" إلى "ماريانا" قد سبَّب للثانية إحساسًا أكبر بالخوف من المسؤولية، حيث إنها أدركت أن كل ما يمر من تحت يديها ومن خلال قدراتها التعبيرية – وهذا هو الأسوأ سيمحو

بشكل ما المنبع الرئيسى للنص، سيلغى وجود الرحم، الدفاتر، المدونات، لن يكون باستطاعتها أن تلجأ إليها لتصحح شيئًا أو تؤكد على حقيقته – فى حالة إذا ما تم الاعتراض عليها أو انتقادها.

عبر كل ما تمت كتابته حتى الآن بدا واضحًا أن شيئًا مافى صحبة "ناتاشا" شهد تغييرًا مهمًا، نقلة نوعية فى الثوابت والقناعات، لكن حتى الآن لم يكتمل البازل، لأنه لم يكن يرتكز على أى تسلسل منطقى.

أمرت "ناتاشا" بجدية: « تعالوا جميعًا حولى ...» على حين كانت واقفة فى ظل الحديقة الرطب.

الشموع كانت تشتعل فى المشاعل الخزفية المثبتة على الحوائط لتنير جوانب الحديقة مما جعل بريق الأضواء ينعكس بشكل هندسى على درجات أسطح المكان وأركانه وعلى النباتات فى ذات الوقت.

اقترب "حكم" الذى تمت ترقيته وتسلم واجبات البستانى نحو المجمرة النحاسية وحرك الفحم الذى كان يشتعل منذ فترة بداخلها.طقس الحرق المقدس بدأ فى تلك الليلة، وفقًا لما قالته "ناتاشا"، سوف يكتمل بحرق كل الدفاتر القديمة.

« اقتربوا! ».

كان للدفاتر ذات الأغلفة الجلدية الأولوية. الأوراق كانت تحترق أولاً فقد كانت غنيمة سهلة للنيران الجائعة، ثم بعد ذلك الأغلفة الجلدية التى

كانت تطقطق وتصدر صوتًا فى أثناء حرقها بما أنها منتج أصلى ، وفى هذه اللحظة ظن الجميع أن مايحرق هو جسد حقيقى يتم التضحية به من أجل نرجسية بشرية هيستيرية داخلية.

شعرت "ناتاشا" بغصة قوية وهى تلاحظ حركات "ناتاشا" المسرحية. تُرى، كم من الطقوس والتضحيات الرمزية منها والحقيقية قامت هذه المرأة؟ هل كانت المجمرة ترمز إلى المذبح الذى ضحت فوقه بكل هؤلاء الرجال! كانت تضحى بذكرى هؤلاء الذين أنفقت عصارة أجسادهم وأنفقت رجولتهم بإخصائهم للأبد.

بحدس وغريزة طبيعية، التفتت بنظرتها واحتضنت بحنان خيال "رفيق"، الشخص الوحيد الذى لم يدخل إلى المعبد. كانت متأكدة من هذا، أكد لها هو ذلك من خلال حواراتهما. لم تكن لديها المقدرة أن تعترف من قلبها أن امتناع "رفيق" كان يلهب حماسها، ليس فقط لأنه لم ينم مع "ناتاشا"، لكن لأنه لم يكن ينتظره نفس مصير الآخرين: العصر التام فى زمن قياسى ثم الإقصاء. رقم ضمن القائمة، مجرد إشارة على صفحة محروقة فيما بعد. إذا كان التونسى قد نجا حتى الآن، فقد كان هذا بسبب عمله وعلمه، اللذين كان لهما أهمية كبرى من نوعه وشخصه.

عندما تفحم دفتر آخر، عاد الجميع ثانية إلى الصالون وجلسوا ليأكلوا على المنضدة الطويلة.

قال "تيتو": « ألم تشعرى بالحزن لحرق الدفاتر؟» « كان يمكنك أن تحتفظى بهم فى متحفك الشخصى، فى بيت كيراميكو ». وبدا أنه استعاد مزاجه الرائق...

« كل شخص عليه أن يعتنى بمعطيات حياته. وأنا أريد أن أخفيها... ».

أصر "جاك": « لكن كل هذه النصوص المنمنمة الجميلة... ».

قالت "ماريانا"، لتكسر حدة الصمت الذى قبع فجأة: « لقد رأيت الكثير من الكتيبات الصغيرة الحجم فى إنجلترا فى بيت الأخوات برونتى كن يصنعنها ويغلفنها بأنفسهن وكوّن بهذا مكتبة شخصية صغيرة الحجم ».

أضاف "جاك" مقهقًا: « كما أعلم فإن الأخوات برونتى قد متن فى ريعان شبابهن غير متزوجات ».

تحمست "ماريانا": « ربما يكون الأمر صحيحًا من كان سيجدهن فى هذا القفر الذى كن يعشن فيه! عندما أرادت "شارلوت برونتى" أن تصدر أولى رواياتها، أصدرتها باسم ذكورى مستعار! ».

قال "تيتو" ساخرًا: « أتمنى لكتابات "ناتاشا" أن تصدر باسم أنثوى... ».

قالت "ناتاشا" بتساؤل: « كتاباتـى؟... أى كتاباتى؟ حكايات أمليتها وتم تخزينها فى جـهاز الكمبيوتـر البارد؟ ألا تفـهـمون يا أحـبائى أن مـجـرد خـروج هـذا الكم الثـقـيل من الذكـريات من صـدرى هـو عـلاج روحـى؟ سـأحـفظ الملفـات علي القرص الصلب لجـهاز الكمبيـوتر... قل جـهـاز الكمـبيـوتر يسـمى بالصلب. مـاهذا. ألم يكن لابد أن يسـمى بالقرص اللين؟.

قال "جاك" بحماس: « هكذا يا عزيزتى عندما تنتهى منهم، يمكن من جديد أن تبدأ الـ... ».

« الـ...؟ ».

« الأرقام... » .

(٣)

الفراغ الذى تركه الرجال الغائبون عن البيت تم ملؤه برجال جدد، على حين ظهرت فى المطبخ من جديد السيدة "ذروسولا"، الراعية القديمة للمنزل. هل هذا كان يشى بأن مغادرة "ناتاشا" باتت وشيكة، بعد بضعة أيام أو أسابيع؟ لا أحد يستطيع أن يعرف هذا، لكن بالتأكيد سيكون رحيلها بعد افتتاح معرض "فاسيليس" والفنانين الآخرين. الحياة فى بيت كيراميكو دخلت فى إيقاعها الأساسى، رغم الهدوء العجيب الذى يبدو فى أركانه، الجميع كانوا فى انتظار التحرك، فى انتظار التحرك التالي. الجميع كان لديهم مايفعلونه خلال اليوم، وفى المساء كانوا يتجمعون فى الصالون، يأكلون ثم يتحاورون.

يغيب "رفيق" لساعات خلال اليوم يقضيها فى المؤسسات البحثية فى "أثينا"، ينبش فى المراجع والكتب التى ربما تلزمه فى عمله وأبحاثه. كان عند عودته كل يوم يعبر عن إعجابه بكم الكنوز المخفية وغير المستغلة والمحفوظة على أرفف المكتبات والمؤسسات. هذا غير أن الأمر بات خطيراً إذ إن كل هذه الكنوز كانت عرضة للتلف بحكم الزمن. لم يكن يصدق، بعد كل هذه المكتبات الكبيرة التى زارها فى أوربا، كيف أن

دولة كاليونان لم يكن بها مكتبة عامة قومية منظمة. ثم قال إنه على استعداد أن يقضى عمره كله فى مكتبة الإسكندرية... لم يكن غير "ماريانا" التى تطوعت للدفاع عن وطنها مؤكدة أن "اليونان" هى عبارة عن مكتبة أبدية لا نهائية مفتوحة لذاكرة العالم وتراثه، هو أمر لم يكن مقنعًا - بالطبع - بالنسبة لأى رحال ناهيك إن كان باحثًا منتظمًا.

غادر "جاك" لبضعة أيام إلى فرنسا، لذلك فضل "رفيق" بدلاً من أن يمكث وحده فى شقة "جاك" فى حى "إليسيا"، أن يحل ضيفًا فى بيت "كيراميكو"، حيث كان يتلقى عناية أكبر، هذا فضلاً عن أنه كان يشعر بارتياح هناك.

كانت كل من "ناتاشا" و "ماريانا" يعملان بلا أى تقييد للوقت، بعد أن أزالا كل العقبات وبسطا العلاقة المهنية بينهما. يخرجان فى تمشيات قصيرة، إذ إن "ناتاشا" كانت تتحاشى الذهاب إلى أى مكان أبعد يمكن أن يحشرها فى سيارة. ربما ينطوى الأمر على شىء من الخوف من الأماكن المغلقة، على أى حال أصابها نوع من الاشمئزاز من السيارات. قالت: « أى شىء يطفو ويدعك تتجولين على ظهره بحرية، هو وسيلة التنقل الوحيدة التى أرغب أن أتحرك بها».

فى يوم عادى طلبت منها "ناتاشا" أن تأتى معها إلى كاتب العدل لتنهى بعض الأوراق الخاصة بإرث ما، وهكذا سارا نحو ميدان "كانينجوس". لم تكن المسافة بعيدة لدرجة مرهقة. فقد لجأتا إلى طرق

مختصرة للوصول إلى هذا الميدان الصغير«ميدان بحجم الكف» كما وصفته "ناتاشا"، فى هذا الميدان كانت مكاتب المحامين الذين كان والدها يتعامل معهم.

لمرة أخرى حاولت "ماريانا" أن تنتزع الحقيقة حول مقتل والد "ناتاشا"، لكن الإجابة التى حصلت عليها كانت روتينية بحتة: كان قتلاً خطأ، الرصاص كان موجها إلى شخص آخر. تعاون أبيها مع الأمريكيين كان منحصراً فقط فى عمله البحثى والتنقيب. لم تصدقها "ماريانا"، هل لأنها عندما دخلت إلى عالم "ناتاشا" الملىء بالمغامرات، كانت تطلب قصة أخرى أكثر تشويقًا وبتفاصيل مختلفة عن قصص معتادة كتلك؟ بدا على صديقتها أنها مازالت تحمل مخزونًا وفيراً من الحاضر والمستقبل. تساءلت اللغوية الدؤوبة :...« هل سنكتب ثلاثية معًا؟».

صعدا إلى الدور الخامس فى مربع بنايات كثيف مزدحم، كان مكانًا لكل أنواع المكاتب، للمحاسبين والمحامين وكتاب العدل والعقود، معاهد لتدريس اللغات الأجنبية، عيادات. مدينة صغيرة معلبة من أجل احتياجات سكانها الأساسية، بشر يدخلون ويخرجون بلا أى أمل فى اللقاء مرة أخرى،يحملون الأوراق والهواتف الجوالة فى أيديهم، عيون ونظارات معبأة.

مكتب كاتب العقود كان مفصولاً إلى قسمين صغيرين. بعد المدخل كان هناك مكتب للاستقبال، حيث كانت تعمل مساعدة السيد

"جينوسولى"، وفى الداخل كان مكتبه هو حيث يستقبل زبائنه، أمامه كانت هناك فتاة تدق على لوحة الكتابة نصوص التعاقدات بصبر ودأب بلا توقف،، لأن مثل هذه الأمور لا تحتمل الارتجال ولا تدخلات خيالية إبداعية.

راحت "ماريانا" تفكر فى أن هذه المرأة ذات الثلاثين عامًا تقضى نصف حياتها هنا فى هذا الطابق العلوى تدير مسائل وقضايا غريبة عنها، وأنها تغادر مكتبها متأخرة فى المساء وتعود إلى بيتها حيث... حيث ماذا؟ تساءلت: وماذا يعنيها بالأساس؟. لكن، لم يكن الأمر تطفلاً منها أو أن الملل هو ماكان يدفعها للتغلب عليه بالتفكير والتدخل فى حياة الآخرين. لكنها كانت تدخل بمخيلتها فى حياة الآخرين وتعيد بناءها وتشكيلها من جديد بطريقتها الخاصة، كان الأمر بالنسبة لها مجرد لعبة ذهنية.

قضت أسابيع فى عملها تحاول أن ترى وتعيد بث الحياة بمخيلتها فى عشرات الأشخاص الذين كانت تقابلهم "ناتاشا". فى أغلب المرات كانت تكتب اسمًا، أجنبيًا بالطبع، منطوق الاسم كان لا يذكر بأى من الأصوات المعتادة. مثل "يورغيوس" أو "قسطنطين"، "هيلين"، كان هذا الأمر فى حد ذاته يضفى على هذه الشخوص حيثية و كينونة مختلفة. أما اسم كـ "محمد"، أو طارق، أو "سلمان"، فهى أسماء تكتب بشكل مختلف وكذلك تشتّ تمامًا عن المألوف، تركيبة ومنطوق هذه الحروف إلى أى مدى كانت تعبر عن جسد وروح حامليها؟

سألتها السكرتيرة: « هل أنت أحد أقارب السيدة العزى؟».

« عفواً، ماذا قلتِ؟ ».

نظرة "ماريانا" المندهشة تحجرت وصعدت خمس طوابق فى ثوان فى ميدان "كانينجوس" وراحت تحدق فى المرأة.

« تقصدين السيدة يانوبولو... ».

« عن نفس الشخص نتحدث. ثم ذكرت لقبها وقالت: من الواضح أن هذا هو لقب زوجها...».

أكملت "ماريانا" وهى تتقمص دور أحد الأقارب: « الاسم الآخر يرجع إلى والدتها...» .

لم تقتنع السكرتيرة بأن هناك ثمة صلة قرابة من أى نوع، لكن هذا لم يكن من شأنها على أية حال.

خرجت "ناتاشا" يانوبولو" - العزى خارج المكتب وبجوارها رجل أربعيني جذاب، يعقد شعره الطويل من الخلف - فى مظهر مخالف تماماً لطبيعة عمله. تبادلا تحية الوداع ودخلت المرأتان المصعد ثانية مع زوج من المسنين كانا يتشاجران حول نتيجة فحص الدم التى تسلماها قبل لحظات.

كان الزوج يتكلم باستمرار بالأرقام « نسب مئوية» ويذكر الكوليسترول ونسبة السكر فى الدم وعندما وصل المصعد إلى الدور

الأرضى، قالت له الزوجة أن يصمت، فقد أثار أعصابها، عاشت معه أربعين عامًا بذات نتائج الفحص هذه ولم يحدث شىء، فلم يمرض ولم يمت حتى الآن. نعم، هكذا بالضبط قالت له مما أدهش كل من "ناتاشا" و "ماريانا" وظلت معهما الدهشة حتى خرجا من رواق البناية ولما ابتعدتا انفجرتا فى الضحك.

قالت "ناتاشا": « تخيلى » وهم فى الطريق نحو شارع "سولونوس"، أن تقضى حياتك مع رجل دائم الشكوى وتكونى ممرضته... ».

« ربما أحبها كثيراً عندما تقابلا أول مرة... ».

« لو كان يحبها لم يكن ليجعلها تصل إلى هذه الحالة. الرجال يا "ماريانا"، يصبحون كائنات لا تحتمل عندما يكبرون فى السن، لكن إلى هذا الحد... ».

اتفقت "ماريانا": « أعلم هذا...» كانت بالفعل تعلم هذا جيداً من والدها.

« من اليوم الذى يتوقف لديهم الانتصاب، يصبحون استحواذيين أكثر إلحاحاً وغير محتملين. أما النساء كما ترين، يكبرن بشكل رواقى، واقعى، يبدين أكثر سعادة عند نهاية حياتهن ».

« ماعدا أمى... ».

أكملت "ناتاشا":« ماعدا أمهاتنا، يجب أن تقولى ... لذلك نحن مدينات لأنفسنا ولهن أيضًا بحياة أفضل، وبالأخص أنتِ، لأن الحياة مازالت أمامك...».

« وأنت يا "ناتاشا"، لديك عمر مديد ينتظرك... ».

« أشكرك، أنت فتاة طيبة، وهو أمر يجعلنى أحزن من أجلك. لابد أن تعرفى أنك لم تأتى معى إلى هنا بمحض الصدفة اليوم. فهناك شىء من أجلك. ستعرفينه فيما بعد. أين سنذهب لنشرب القهوة؟ ».

المقهى على مرتفع شارع "سكوفا"، كان فى مكانه، لم يكن اليوم السبت. فوجئت النادلة عندما رأت "ماريانا" بعد فترة طويلة.كانت تود أن تسألها عن شىء، فالعلاقات مع أصحاب المقاهى والعاملون فيها تصبح قريبة تمامًا مثل مساحات مقاهيهم الضيقة نفسها.

تربعت "ناتاشا" على المقعد وطلبت كوبًا من الشاى الأخضر وكأسًا من الليكير. بدت سعيدة بكل ما تراه حولها، الأرائك الجلدية، المقاعد المعدنية، النباتات التى كانت تميل نحو الطاولات، لكن كانت سعادتها أكبر بالمنظر من خلف النافذة الزجاجية. تناولت "ماريانا" جريدة Athens voice وراحت تتصفحها.

« فى هذه الجريدة قرأت أنك تبحثين عن مدققة ومصححة للغة يا "ناتاشا" ».

« أعرف، كنت قد وجدت هذه الجريدة فى أحد المقاهى. فكرت فى أنه مادامت هذه الجريدة توزع مجانًا على المقاهى سيقرؤها أناس على الأقل وهم يشربون القهوة ويدخنون. مساعدة من هذا النوع كنت أبحث أنا ...».

ضحكت ماريانا.

« هذا فقط؟ ».

« هذا فقط! ».

« أليس عجيبًا أن تكون أمى قد زارت معبد الإلهة العزى، مثلك أنتِ؟ ».

« هذا يرجع إليك. من الممكن أن كل ماتسمعينه وتكتبينه يراودك فى أحلامك ويحدث لديك نوعًا من الهوس. على أى حال أنا منذ فترة أقرأ كتابك أنت».

« عم تتحدثين يا ناتاشا؟ كيف أكتبه أنا؟ أما بخصوص رحلة أمى، فهناك صور تؤكد كلامى ».

« هل وجدتِ الصور بالأخير؟».

« كنت أظن أنها ضاعت منى لكنى وجدتها ملقاة فى أحد الأدراج، منسية تمامًا... كما لو أن أحدًا وضعها هناك حتى لا أعثر عليها...».

« بالتأكيد وضعتها فى هذا المكان كى لا يعثر عليها أحد».

قالت "ناتاشا" القديمة وهى تشعل سيجاراً تاركة دخانه الكثيف يتسلل من باب المقهى نصف المفتوح، ليدخل فى هواء منطقة كولوناكى ويتغلغل فى أجواء إقليم أتيكى. الساعة الرابعة وعشرون دقيقة عصراً – إذا كان لهذا أى معنى بالنسبة لنا و للمرأتين.

(٤)

« مـاريانا، هـل يمكنك أن تحـضـرى الكمـبـيـوتر المحـمـول إلى الصالون؟».

كانوا قد انتهوا من الطعام وبدؤوا فى احتساء الليكير المساعد على الهـضم. كـان كل من "رفـيق" و"حـمـزة" والمرأتـين يجلسـون حـول الطاولة الصغيرة المستديرة وبينهم وبينـهـا مـسـافة.كان الغـائبـون كـثـيرين، من صحبتهم ومن باقى البيت أيضًا.

كـان حكم يلملم الأطبـاق ويذهب بهـا للمطبخ إلى "ذروسـولا" التى كانت تدمـدم طيلة الوقت أن البـيت أصبح خـارج سيطرتهـا، كـان يلزمـه إعـادة ترتيب حتى يعود إلى سـابق عـهده. لكّن "حكم" أيضـًا لم يكن فى مـزاج رائق؛ فقد خـسـر صـحـبته القديمة، كان يخـرج بعد أن ينتـهى من أعمال البيت ويغيب لساعات طويلة.

أمر غريب: كـان هـاتفـه يدق لـكن لم يكـن يجـيب وبعـد سـاعـة غـادر المنزل.

الصحبة فى هذا الوقت جلست بارتياح فى الصالون. "ناتاشا" على مقعدها الوثير، الرجلان على الأريكتين المنخفضتين. اهتم "رفيق" بتجهيزات النرجيلة و"حكم" كان يضع الكؤوس ليصب فيها "الليكير".

« ماريانا، هل أنت مرتاحة فى مكانك؟».

فتحت "ماريانا" الحاسوب النقال فوق ركبتيها ونظرت إلى "ناتاشا" متسائلة.

« اذهبى إلى الجزء الذى يتحدث عن العودة من "بيروت" من فضلك ».

كتبت "مارينا" باحثة فى النص بطريقة احترافية كلمة « بيروت »، متكررة ومنتشرة فى صفحات عديدة. « أى جزء بالتحديد؟».

« أريد أن تجدى لى الفقرة التى تعرفت فيها على نبيلة ».

عند سماع اسم المدينة والمرأة، رفع حمزة عينيه مندهشاً. شىء ما يعرفه هو.

* * *

كانوا يعيشون فى حى أرستقراطى. بوابة حديدية ثقيلة، واجهة المنزل مخفية، الحديقة أيضًا لا ترى من الخارج، إلا أن بعض أشجار النخيل النحيلة الطويلة كانت تظهر على استحياء. من الصالون

كان باستطاعتك أن تشاهد مشهداً بانورامياً للميناء، الشرفات كانت مثل الأبراج.

السفن كانت تغادر حاملة على متنها ثراء وأحمالاً خفية.

« هناك، بين كل الصالونات الثقيلة، على المقاعد المخملية الفاخرة والمرايا المشروخة، بدأت "أمينة" تمل من صديقاتها الأوربيات، وانكبت على القراءة. عندما كانت ترفع رأسها كانت ترى حوائط مغطاة بسجاد عربي، بروتريهات لأصحاب المكان، بريطانيون أرستقراطيون اختلطوا كثيرا بالمحليين وكانت حياتهم ذهاباً وإياباً من أوربا وإليها.

المراهقة "ناتاشا"، لحسن الحظ كانت تتحدث مع صديقاتها الأخريات، لم تكن تعلم أبعاد المدينة ولا مساحتها ولا حتى الأخطار التى تخفيها الأزقة فى الجولات البعيدة. تعرقلت فى طريقها بين المنحوتات الخشبية والمجمرات النحاسية. كانت تحب النزهات فى الأماكن الخضراء والحدائق، أن تشم الورود. كانت تقطفها مرات كثيرة وتضعها فى مزهريات بجوار النوافذ الكبيرة. طاولة الطعام كانت تعد كل ليلة بشكل فاخر، الأطباق من خزف ثمين، الملاعق والأشواك فضية، مفارش مشغولة. من ناحية أخرى كانت "أمينة" تشعر بأن شيئاً ما فى الأفق سيحدث تغييراً بالفعل كانت شجارات الشوارع أصبحت ظاهرة يومية، وكذلك حوادث خطف المواطنين. وجها المدينة الثرى والبائس كانا يبرزان اختلافاتهما. الفتن الطائفية فى شمال لبنان والصدامات مع الجيش كلفتها أرواحاً كثيرة.

ذات مساء فتحت "أمينة" البوابة الحديدية وقابلت أحد الفدائيين المحاربين. لم يشأ أبدًا أن يفصح عن اسمه، أخذها لترى بعينيها الوضع فى معسكرات الجيش.

استغرق طريقهم ثلاثة أيام، كانت كافية لتغير من وجهة نظرها وكذلك من شخصيتها. مخيمات اللاجئين لم تكن لها أى علاقة بالجانب الآخر من المدينة. رأت شبابًا فى المخيمات، تعرفت على قادة من "فَتْح"، تحدثت واقتربت من نساء صابرات ونشيطات اضطررن للجوء إلى "لبنان"، مطرودات من أراضيهن فى "الأردن".

عندما عادت "أمينة" إلى البيت، كانت المدينة بأسرها تحت الحصار. أدركت أنه ليس هناك قيمة فى الحياة أكبر من أن تدعم بكل السبل اللاجئين والمضطهدين.

هرولت نحو الميناء لتلحق بالسفينة التى ستذهب بها إلى مقصدها، أقنعت "ناتاشا" بأن تُكمل دراستها فى "برلين". لم تكن تريد أن تحمل أو تتحمل قلق حضور ابنتها، لهذا عرفتها على الكثير من صديقاتها فى أوربا. أعطت انطباعًا لابنتها أن تفعل كل هذا من أجل أحد الفدائيين، الذى كان هو بدوره قد هجر عائلته مقررًا أن يموت من أجل حلم الحرية. الغضب المقدس انتشر بشكل فج وجنونى.

مرت سنوات حتى علمت "ناتاشا" أن أمها كانت شهيدة فى عيون الكثير من النساء، امرأة حاربت وقاومت بشجاعة بجوارهم. كانت

محاربة و ثائرة، وفى الأصل غاضبة من الأردن التى هجمت على الفلسطينين وأهلكتهم، والآن كانت ترى بعينيها الكارثة الجديدة. الآن الفاعلون هم الميليشيات اللبنانية المسيحية. المذبحة فى مخيم "شاتيلا"، منظر جثث الأبرياء العزل بعد المذبحة، زلزل كيانها. كم من الأعداء سيتحمل اللاجئون؟ قالت أن الإنسانية قد نضبت أسوأ من الماء فى الصحراء.

كانت معنية على الأقل أن تخبّر أصدقاءها فى المدن الغربية الكبيرة بالأحداث، وجاءت فى مواجهة أكثر من مرة مع أناس كانت قد دعمتهم من قبل من الجانب الإسرائيلي. والغريب: أنهم لم يتصرفوا تجاهها بعدوانية، على الأقل بشكل مباشر، شعرت أنه لربما يكون لهؤلاء الناس وجهة نظر أو حق ما طبقًا لمعايير العدل لديهم، لكنها كانت على يقين أن الظلم يقع فى الجبهة الأخرى.

شعرت "ناتاشا" لسنوات بالألم والجرح من ابتعاد أمها عنها، ورفضت أن تسأل عن مصيرها. قبل أن تبلغ العشرين من عمرها بدأت فى السفر مع صديقاتها الثريات، « لتنتقم من الرجال »، وبالأخص الذين لهم جنور عربية، محملة إياهم مسؤولية غياب أمها وليس فقط بل مسؤولية تهميش النساء بشكل أعم...فى الأصل كانت تدفع ثمن ضعفها فى عدم المقدرة على الوقوع فى الحب، والفصام الذى كان يجعلها تقف مابين عالمين.

* * *

كان كل من "رفيق" و"حمزة" يحاولان أن يفهما الحكاية بعيداً عن التفاصيل أثناء الاستماع. كانا يراقبان المرأتين باهتمام لكن لم يفهما من تعليقاتهما إلا بعض مفاتيح - الكلمات.

لم تكن "ناتاشا" تهدف إلى أن تستمر.

تحدثت بالفرنسية: « لم يكن رجوعى إلى هذه الأيام محض صدفة...» .

كان "حمزة" يمسك بالإصدار الجديد "لجان جينيه"، سجين العشق، يجد صعوبة فى قراءة الفرنسية الكثيفة، لكن النص كان يخصهم بشكل واضح، الأماكن، الأسماء، التواريخ المحددة، حتى يستطيع أن يلم بكل الأحداث، وبالطبع إذا أعاد قراءته سيمكنه استيعابه.

قال "حمزة": « أمى كانت بين النساء عندما زار "جينيه" بعد ذلك مخيم "شاتيلا". كانت تطبب الجروح وتعتنى بأجساد متقطعة».

صمت حمزة لدقيقة: « نبيلة كانت أمك ».

قال "حمزة" ورأسه منحنٍ ثم عاد إلى كتابه: « بعد سنوات ولدتُ أنا هذا نص مهم للغاية » ثم أكمل « موضوع منسى قليلاً، لكن هذا أوانه هذه الأيام...».

قالت " ناتاشا": « قال لى "تيتو" إنه شاهد عرضًا مسرحيًا معدًا من موضوع الكتاب فى السنة قبل الماضية...».

قال "حمزة ": « نعم» حسن الاطلاع « أعدته للمسرح فرقة مسرحية فرنسية...».

« وهذا العام يُعرض فى "تونس" عرضًا مسرحيًا آخر مستوحى من نص "جينيه". أظن كان عنوانه « الفلسطينيون...» ثم أكمل « تم عرضه أيضًا فى "عمان"... ».

قالت "ناتاشا": « سنقوم بعمل العرض المسرحى نفسه فى "أثينا" و"بيروت"، لكن فى العام القادم.

"حمزة" الذى يدرس المسرح فى "لندن" وينتمى إلى إحدى المنظمات الفلسطينية هناك، جاء إلى هنا ليقابل بعض الكوادر.

نظر "حمزة" إلى "ناتاشا" بحنان. كانت ملامحه الدقيقة وشعره الحالك المجعد يضفى عليه مظهراً أصغر من سنه.احتضنته "ناتاشا" وقبلته قبلة حنونة حقيقية.

قالت "ناتاشا": « وبهذا الشكل ستكتمل أنشطة المؤسسة أنا رئيسة مجلس الإدارة وكلكم ستعملون كأعضاء. كل الأعمال ستكون بمقابل مادى وغطاء قانونى أيضًا. البيت سيكون المقر. لقد أتممت بالفعل الإجراءت القانونية والعقود لتخصيص وتحديد بعض الأمور ».

« وأنت يا "ناتاشا"؟ ».

« وأنا سأكون هنا. ألم يكن هذا البيت يعمل كمؤسسة طيلة هذه السنوات؟ لم يكن ينقصه غير الغطاء القانونى واللافتة ».

الجزء التاسع

عرض للزواج

(١)

طيلة هذه الفترة كانت تراقبه، ليس لكونه أجنبيًا يتمتع برفاهية الاختلاف، لكن كإنسان له جسد وعقل قرر أن يقضى حياته فى البحث والسفر ومشاركة الآخرين فى عاداته ومبادئه. كانت تلحظ جديته ومنهجيته فى عمله، والطريقة التى كان يوجه به الأسئلة وكيف كان يدون ذلك كى يستوعب كل جديد يتعلمه. كل هذا كانت "ماريانا" تستطيع أن تراه بسهولة نوعية، حيث كان كل هذا يقع فى دوائر اهتماماتها. فعملها بالقرب من "ناتاشا" كان نوعًا من الرصد الأرشيفى، تارة يكون رصداً عشوائيًا وتارة أخرى يكون رصداً لحقيقة الحياة. على كلٍ، من خضم كل هذه الحكايات خرجت استنتاجات أكثر مما كانت تتوقع فى البداية.

وهاهو سبب آخر يفسر اقترابها أكثر من "رفيق"، على الأقل على مستوى الخبرات. لأنها فضلاً عن عملها سكرتيرة لها وفى إعادة صياغة حكايات "ناتاشا" التى كانت على وشك الانتهاء، ظهر بُعد آخر لقدراتها ألا وهو تحليل ونقد النصوص. القدرة على القراءة فيما وراء الكتابة والنصوص والكشف عن دوافعها واتجاهاتها الخفية. المطالعة بين

السطور كانت تشبه نقاط الضعف. فلو كانت "ناتاشا" ترغب فى سرد تلك الحكايات العجيبة أو حتى حصر العدد الهائل من عشاقها فقد كان بإمكانها أن تقوم بهذا العمل بمفردها.

رآها "رفيق" مرات عديدة وهى تعانى كى تضع كل هذه الكتابات فى تسلسل زمنى وهى تخفى الكتابات عنه مثل تلميذة خجولة؛لم تخلص أبداً من هذا الارتباك اللطيف منذ أن كانت تلميذة فى المدرسة.

« كم أتمنى لو كان لدى أنا أيضًا نص كامل كهذا. أتخيل أنك تعرفين كم نلجأ نحن - الباحثين - فى الماضى إلى مقتطفات مبعثرة ومعلومات منقولة وغير أمينة من هنا وهناك ».

« تخيل إذن يا "رفيق"، أن أحداً يعثر على هذا النص بعد سنوات كثيرة. تُرى هل سيفهمه أو يستنتج منه شيئًا؟»

« سوف يفهم أشياء أكثر مما تفهمينه الآن يا "ماريانا". القراءة ليس لها علاقة بما ترينه أو بوجهة نظرك بقدر علاقتها بما تستطيعين تحليله، وهو أمر فى أوقات كثيرة يتخطى الكاتب نفسه. قبل الأمس بينما كنت تقرئين، بدا لى أننى أسمعك أنت، هكذا كما أعرفك أنا على الأقل وطبعًا عندما رأيت "ناتاشا" تحرق الدفاتر الصغيرة - هل كانت أصلية بالفعل؟ - أدركت أن من وراء كل هذا يظهر صوتك أنت».

رسمت "ماريانا" تعبيراً اعتراضياً على وجهها لكنه كان يوضح أن المسؤلية بالفعل تقع على عاتقها.

« إذن لديك شك فى أن هذه الكتابات والدفاتر أصلية ».

« نعم، لأن من خلال خبرتى البحثية فى التاريخ ومصادره ومخطوطاته، دائمًا ما أتجه نحو البدايات، أذهب نحو البداية. لماذا كُتب، ماذا كان يُقصد بكتابته، هل هو مخطوط حقيقى؟ هل تعتقدين حقًا أن "ناتاشا" كانت لتلقى بكل هذه الأريحية هذه الكتابات والدفاتر الأصلية فى النار؟».

« ولِمَ لا؟ ».

« صحيح! فعلى أى حال - يتسرب دائمًا من سلوكها وكلماتها - أن لديها المقدرة أن تقوم بفعل كل هذا مرة أخرى... ».

« آه يارفيق، لا تبالغ وتضخم الأمور هكذا... ».

مد يديه نحوها مداعبًا ومهدئًا إياها، كأنه أراد أن يقول لها « حسنًا، لا تغضبى، كنت أمزح... ». لكن يده، بدلاً من أن تدفع يدها، فى حركة تليق أكثر بأصحاب رجال، علقت واشتبكت أصابعهم، شعرا بالارتباك وربما بالسخافة بعض الشىء إذ إنهم فى هذا المكان، هذا البيت الذى تغيب عنه كل الثوابت التى من ذلك النوع.

ضحكا. تلاقت أعينهما وبرقت. هل هذه هى البداية؟ إذا سألت كل منهما على حدة، سيفكران جديًا فى الأمر، وربما يعترفان بأنه ربما ظرف آخر، أو فى بداية تعارفهما، أو ربما بعدها بقليل، أن كلاً منهما قد انتبه وربما انجذب بشدة للآخر لكنهما رفضا الفكرة، لكلٍّ أسبابه

الخاصة والمختلفة.لايمكن لحب فجائى أن ينفجر بمجرد تشابك الأصابع. فحتى العواصف والبراكين والزلازل لا تأتى بلا إنذار سابق. كل حدث له أسبابه الكامنة.

دعنا نترك المرة الأولى لكلا العاشقين يكتشفاها بمفردهما، إذ إنهما باحثان رائعان للنصوص والأدب والتاريخ، القديم منها والمعاصر. وليشع بينهما هذا النجم الذى سيساعد على اتحادهما. نجم أفروديتى إلهة الحب أو، بالعربية نجم الإلهة العزى.

كم من الوقت استغرق تشابك الأصابع؟ لماذا تأخرت "ماريانا" كل هذا الوقت لتنزع أصابعها، تلك الأصابع التى كانت تكتب بشكل مكثف عن تزاوج أنثى واحدة مع ألف من الذكور؟، وكم من الارتباك والاحترام يمكن أن يخرج من "رفيق" أمام امرأة يعرف جيداً أنها لم تحافظ على الميزة السامية للعذرية من أجل الرجل الأوحد، من أجل ليلة الزواج الأولى؟.

لون بشرة يديه كان أكثر سُمرة من لون وجهه الذى كانت سُمرته تبدو وكأنها من أثر لَفح الشمس. أظافره مقصوصة بشكل مستوٍ صحيح ونظيف، الأصابع الطويلة التى تبدو عظام مفاصلها مرسومة بشكل تشريحى جيد. شعر خفيف يغطى ظهر كفيه. ذراعاه أيضًا كانتا نحيلتين لكن مشدودتين، الكتفان محدبتان،. ثمة وشم باهت وجرح قديم من هراء المراهقة. خاتم مشغول من البرونز عليه حجر كريم غير حقيقى. هذا كله كان محطة البداية لكى يلامس أصابعها.

اعتبر وهو ينحنى أن إظهار نوع من الحنان لن يؤثر على نظرته لتلك الفتاة. كان يعجبه فيها أنها فتاة جميلة دون أن تنتبه هى نفسها لهذا، كان من الممكن أن تكون أكثر جمالاً، لكن من يدرى أى ظروف جعلت هذه الفتاة تتبنى هذا السلوك الدفاعى تجاه أنوثتها، ولا تسمح لها بالظهور والسعى نحو التعبير عن أشرس خيالاتها.

لذلك قام "رفيق" بحركة لا تسرى منطقياً فى بلاده التى تتمتع فيها النساء بذات حقوق الرجال ولا يغطين وجوههن منذ عشرات السنين.

أرخى أصابعه حتى يفض اشتباك الأصابع القوى، وعندما رفع يده نحو وجهها، قام بلا وعى بحركة بدائية كالتى يقوم بها الرجل عندما يرفع الغطاء عن وجه رأس المرأة. وكأنه بمعنى آخر يُعرى وجهها. وانحنى وطبع قبلة غضة على شفتيها.

إذا كانت "ماريانا" قد رسمت على جدارية أو لوحة من الفسيفساء (وإن كانت تفضل الشكل الأول)، حتى لا تقترب منها أصابع مُدنسة،لكانت قد تساءلت فى رسمتها الحية عن هذا الذى اقترب منها كى يبحث عن العصر الذى جاءت منه والأسلوب الذى رسمت به، لكانت ستنحنى لتطبع قبلة باردة على رسمتها الفنية السابقة الباردة أيضاً. ومثلما فى الأساطير القديمة تعود الحياة إلى تماثيل النساء عندما يقبلها الرجال، هذا ماحدث من هذه القبلة المفاجئة التى لايمكن لأى مقياس للتوقيت أن يحسب مدتها فوق أقل من برهتين؛ هكذا شعرت أن

الأبدية تنزاح، وأن الماضى يفسح للحاضر، الرسمة الجدارية تعطى مكانها للحياة، منحتها الآلهة المقدسة، حلت مكانها امرأة تتراجع للخلف على المقعد وتنظر فى عينى الرجل العاشق أمامها.

يقال إنهما فكرا فى الشىء نفسه فى اللحظة نفسها:

أريد أن أعيش مع هذه المرأة، أريدها أن تصحح لى حياتى وكتاباتى ».

« هذا هو الرجل الوحيد الذى سيبرر وجوده دراساتى العليا وأننى لست فتاة غبية. أنا عاشقة – لتكن الإلهة العزى – معه ».

(٢)

قررت المرأتان أن تخرجا وحدهما مرة أخرى بعد إرهاق كبير فى العمل، كان متوقعًا أن تتوطد علاقتهما وكانتا مستمتعتين بظهور علامات لصداقة قوية بينهما. الصداقة كالحب تحتاج دائمًا لاختبارات وإنكار للذات، وأحيانًا تحتاج للغدر والخيانة.

لا تزال "ماريانا" ترتدى الجينز («كفى عن ارتداء هذا الجينز، فلديك ساقان رائعتان...»)، على حين "ناتاشا" التى كانت ترفض تمامًا أن ترتدى البناطيل، ارتدت فستانًا قصيرًا وألقت وشاحًا ثقيلاً على ظهرها ربطته بحزام عليه مشبك أنيق ورثته عن أمها (« أحيانا أشعر أننى خزانة ملابس أمينة»)، هذا الحزام ذو المشبك الأنيق قد فوجئت به عندما وجدته قابعًا فى عمق صندوق قديم (« لا، لن أحكى لك قصة الحزام والمشبك، رغم أن الحكاية أكثر تشويقًا من الجسد الذى منحنى إياهما...») وهكذا، ظهرت "ناتاشا" متزينة من أجل أن تلعب دور "ناتاشا"، شخصية إن لم تكن استعراضية فهى على الأقل مدهشة وغير متوقعة لكل من يراها تسير فى شوارع "كيراميكو".

اقترحت "ناتاشا": «دعينا نذهب للشراب قريبًا هنا فى الحى ثم بعدها نرى». تعرقلا فى بعض الحفرات إذ إن شركة الغاز الطبيعى لم تترك جزءًا سليمًا فى أسفلت الشارع ولا على الأرصفة البائسة فى الأساس.

وهم ينحرفون نحو شارع "قسطنطينوبوليوس" استطاعت "ناتاشا" أن تحكى حكاية قصيرة عن البيت القابع على الناصية فى طريقهما: هذه العلامَات هى فعلاً كما تبدو، آثار رصاص من أيام الاحتلال. لم يرممها أحد من وقتها. السيدة "فانثيا" التى كانت تعرفها "ناتاشا" من صغرها قالت لها إن الرصاص لم يجد هدفًا فى الحائط فقط، بل أصاب أبناء عمومتها أيضًا. عندما ماتت "فانثيا"، بقى البيت مهجورًا، لكنه لم يتم شغله من قبل المهاجرين المتشردين.

دخلا فى بار على الناصية، صغير وبسيط ولم يكن مزدحمًا ، فقد كان الوقت مبكرًا. صوت الموسيقى خفيض، على باقى الطاولات كانت هناك صحبتان، إحداهما كانت فى انتظار الفاتورة كى تغادر كى تلحق بإحدى العروض المسرحية على مقربة من هنا. عبرت إحدى الفتيات عن قلقها من ضيق المكان إذ أخبروها أن المسرح يغلق تمامًا لساعتين ونصف الساعة طيلة العرض دون استراحة، لا يستطيع أى من المشاهدين مُغادرة المسرح قبل ذلك. أعطتها الفتاة الأخرى جرعة من مشروب مهدئ من الأعشاب الطبيعية تحمله دومًا فى حقيبة يدها. البقية كانوا

ينتظرونهم فى الخـارج بلا تململ، بعـد أن تجـرعـوا بعض الكؤوس الصغيرة. كانوا جميعًا مستعدين للعرض المسرحى!.

قالت "ناتاشا": «معاناة الفن الفقير».

تذكرت "ماريانا" أن فى أحد هذه المسارح الضيقة كانت "مارثا" تشارك فى أحد العروض، وكان من سوء الأدب ألا تذهب لتشاهد عرض صديقتها. بمجرد تفكيرها فى الأمر أدركت أن دفاعاتها أمام أصدقائها القدامى قد تهاوت تمامًا، لم يعد يشكل نقدهم لها أى خطر، ربما لأن الأمر لم يعد يعنيها حقًا أو أنها لم تعد فى حاجة أن تطلب منهم أى نوع من الدعم النفسى.

« هل نشرب نبيذًا؟ ».

صحبة من الرجال التفتت لتنظر إلى المرأتين اللتين بدت عليهما السعادة. فلم يكن المشهد ولا الصحبة شيئًا معتادًا على أى حال. المرأة الناضجة الحنونة والفتاة الشهوانية الصغيرة، صديقتان تمرحان.

كان الضوء يغمر المكان دون أن يُوَحِّشَ من ملامح الناس الذين يتركون جانبًا أقنعتهم اليومية فى مثل هذه الساعة.

شربت "ناتاشا" نصف كأس من النبيذ الشديد الحمرة جرعة واحدة.

« لقد أرهقتك يا "ماريانا"، أرى هذا، أرهقتك جسديًا وروحيًا. دخلتِ اختبارات كثيرة. تركتِ شخصيتك جانبًا وأعطيتِ مساحة لطفرات وتغييرات كثيرة – وهو شيء مثير للإعجاب. لقد كان تعارفنا يستحق كل هذا العناء، بعيدًا عن فكرة المصادفات السخيفة ...».

« في بعض الأحيان أشعر أننا معًا منذ سنوات» اعترفت "ماريانا" بهذا. « لقد أقنعني نضجكِ بشكل كبير، كنت في حاجة لصديقة أكبر مني بجواري ... لا تسيئي فهمي، لم أرك أبدًا كأم – على العكس – ، لكن كان بمقدورك إلهامي، فلديك هذا الشيء الذي كان ينقص والديّ ».

« اشربي أنت أيضًا، مزيدًا ... ».

« إذا لم نتقابل يا "ناتاشا" كنت سأظل فتاة تعيسة، عشيقة لرجل متزوج، ثابتة على حياة يومية تافهة. أفكر كم سأفتقدك الآن ونحن ننتهي ... ».

« ننتهي من الرحلات يا "ماريانا"، لكن لن ينتهي ما بيننا ».

« وينتهي الرجال أيضًا؟ ».

قالت "ناتاشا": « لقد أكملنا لتونا الألف ... ويبقى الواحد بعد الألف ».

«الرقم يرعبني».

« صــه، هذا لا شىء يا عـزيزتى. يرعـبك الرقم لأنه يرجع إلى أشـخاص مـختلفين، لكن فكرى فى الأمر ببساطة: مرتان فى الأسبوع تمارس امـرأة الجنس مع رجل، الألف مـرة تسـاوى عـشـر سنوات من ممارسة الجنس... وبناء عليه، الألف رجل إذا قسموا على خمسة عشرة عامًا من الحياة الجنسية ينتج لدينا حياة جنسية متوسطة النشاط. ستجدين أننى محرومة فى النهاية».

انفجرت "ماريانا" فى الضحك. حقًا، فقد كان يرعبها بالفعل تغيير العشاق وليس كثافة التواصل الجنسى.

علقت "ماريانا": «المهم هو ماذا يبقى من كل هؤلاء الذكور...».

« لا يبق شيء، ولا يوجد ثمة احتمال أن يبقى شىء. هو أقل شىء يتجول بيننا، الذى هو تقريبًا غير موجود».

« هذا يتوقف يا "ناتاشا" على الطريقة التى عاملتيهم بها».

« وماذا عنك أنت الذى عاملتِ "سبيروس" بكل هذا اللطف؟».

« لكن أنا لم أذكر لك أى تفاصيل. كيف تعرفين؟».

« الأمـر واضـح،لقـد نسـيت قـصـصك الشـخـصـيـة وأنت تكتـبين حكاياتى. انظرى، امرأة فى سنى، وبكل هذه المغامرات والمعرفة، لابد أن يكون لديها شىء من الخبرة... لقد قابلت رجلاً فى الفترة الأخيرة....».

« ناتاشا، هل تراقبيني؟ غير معقول! ».

« يا فتاتى المحبوبة، من الجائز أن أراوغك وأخادعك! تسعون بالمئة، فتاة جميلة سيكون لها صديق. أنت لم تنفتحى معى أبداً. أنا أخمن فقط ماهى نواياك ».

« هل تقصدين يا "ناتاشا" أنك تخططين بعدى؟».

« هذا أيضًا جائز. لا تخافى. لدىّ مقدرة أن أشم وأشعر بالآخرين. حتى الرجل الذى يترك رائحته عليك...».

« مم، جربى إذن!؟ ».

« يا "ماريانا"، الأمر واضح أنك متعلقة بشخص مسلم ».

كيف لا تهتز ! فكلمة « مسلم » التى كانت مهملة فى حياتهن اليومية كان لها صدى مثل صدى صوت جرس كنيسة القديسة "مارينا" تحت المرصد، هناك حيث كانت تذهب أحيانًا لتشعل شمعة على الأخص فى الأسبوع المقدس.

« لابد أنك تعرفين شيئًا ما لتقولى هذا يا "ناتاشا"... ».

« هل هو فارسى؟ ».

« نعم، اسمه "صابات"، وتعرفت عليه فى منزلك ».

ضحكت "ناتاشا".

« وبعد ذلك صار اسمه قاسماً ودخل السجن بعد أن قبضوا عليه وهو يحمل الحشيش. وماذا بعد؟ ».

رفعت "ماريانا" كأس النبيذ وشربته جرعة واحدة.

« لا أدرى يا "ناتاشا"... هذا مايقلقنى. لا أظن أننى سأستمر معهم. أريد هدنة، لقد لعبت دورك فى هذا كله، حسناً، لقد أعجبنى الأمر. لكن ليس لدى خلفية مشابهة كى أدعم علاقة كهذه».

انحنت "ناتاشا" واحتضنتها، كانت تشعر بدوار خفيف.

« جميلتى، لديك بنية وخلفية قويتان. أنت متعلمة، لديك شخصية ولديك جانب أنثوى بداخلك حتى الآن لم تتركيه يتمدد ويتحرك بحرية. أخرجى الأنثى المتضخمة من داخلك! أنت ملزمة بهذا ».

النبيذ يأتى بالحب والقبلات. تبادلت المرأتان القبلات والأحضان والضحك من الأعماق.

« ماريانا، أنت وقعت فى الحب يا حبيبتى. بل غارقة فى العشق. تخفين شيئًا عنى وتعرفين هذا، دعكِ منى، سأعلمه حتى لو فى النهاية... ».

ثم ضحكت مداعبة إياها.

تساءلت "ماريانا": «ستعلمين أنتِ فى النهاية؟».

« صدقينى، "رفيق" هو الشخص النموذجى بالنسبة لك، وقد أدرك هو هذا الأمر. لا تتركى الفرصة تهرب من يديك. تزوجيه! ».

« هل جننت يا "ناتاشا"؟ ».

هبت "ماريانا" واقفة فى مكانها ونظرت حولها مرعوبة. لقد ثملت. يبدو أن زجاجة النبيذ الثانية كانت أقوى من الأولى.

« لماذا، هل أنت على مايرام؟ » نظرت لها "ناتاشا" فى أم عينيها. «أنت مفتونة به. لا تحاولى إخفاء الأمر عنى. هيا غادرى هذا المكان، اذهبى إلى البيت لتجديه. سيكون غارقًا فى القراءة من ساعات. كيف تحتملين شيئًا كهذا؟ أنا سأبقى هنا وحدى. هيًا، هيًا يا حبيبتى، اذهبى. سأتولى أمر الفاتورة، اذهبى إلى البيت».

(٣)

لم تعد إلى بيت "كيراميكو". عادت إلى شقتها كى تعود إلى نفسها لتفكر ملياً فى بعض الأمور عن بعد - حتى لو كان هذا البعد هو مسافة كيلو مترين. كانت غير مبالية بالمارة والناس العاديين الطيبين فى ممر شارع "ثيسيو" حيث اختلطت بهم كما كانت تختلط بهم دوماً فى الماضى، لكنها الآن تراهم من مركز قوة: فهى الآن لم تكن الفتاة التى تراقب وهى مغلوبة على أمرها. بل كانت تسعى بقوة لتحصل على قطعة من الحياة الخاصة، كان بإمكانها أن تفخر بما أنجزته، لم يعد هناك مجال للشكوى والبكاء مثل ذى قبل.

فتحت الباب ودخلت شقتها بعد الواحدة بعد منتصف الليل، وقبل أن تغوص فى حوض الحمام، فتحت جهاز الكمبيوتر لتلقى نظرة على الرسائل. كومة من الرسائل المزعجة مليئة بمعلومات غير مجدية عن فيروسات ضارة. هناك أبعاد أخرى من هذا العالم تعانى من المرض.

فتحت بعض الصفحات الأجنبية. لم تكن تعتمد على الصفحات اليونانية فيما يتعلق بالأخبار، فهم يعرضون الأخبار من وجهة نظر

ضيقة وأنانية. الآن تريد أن تعرف ماذا يحدث فى العالم كله، الحروب والاحتلال والهجمات والكاميكازى. تريد أن تتطلع على الأخبار من وجهات نظر متعددة. حتى فى السابق كانت تتضايق من عرض الأخبار والاطلاع عليها باللغة اليونانية، كان المذياع فى هذا الأمر أفضل نوعًا، أما التلفاز فقد أغلقته نهائيًا وأحجمت عنه بوعى تام. لم تدخل فى عناء بنات من سنها اللاتى يصيبهن الهوس من المسلسلات التلفزيونية لأنها كانت تعلم أنه عندما ينتهى مسلسل بعينه سيحل آخر محله ليضلل الأنظار والعقول.

حسنا، يكفى هذا القدر. لا يوجد ثمة مايثير القلق. هذا إذا استثنينا مايحدث هناك فى الشرق الذى كان يغلى من القنابل التى تهبط على المنازل مثل الكرات الطائرة... هاهو عالم يثير عواطفها، دون أن تقترب منه أو تعتنى بهذا الشأن بالقدر الكافى. شىء من العناية يوجبه عليها وعيها السياسى، ذلك الوعى الذى كان يضعف مع مرور السنوات (حتى فى انتخابات السنوات الأخيرة كانت تفضل إبطال صوتها)، كمساهمة شخصية منها فى الاعتراض.

لكن العالم بكل جراحه، بغض النظر عن المذنبين والضحايا، كان يقبع فى عقلها وروحها كعالم قابل للأنسنة. كانت ترى وجوه المجاهدين مألوفة، كانت تتعرف على وجوه الأولاد الذين يلقون الحجارة وكأنها ترى فيهم أبناء جارتها، وفى وجوه الأمهات الصارخات كانت تراهم كأنهن أمهات الأولاد فى بيت "كيراميكو".

أدركت أنها تقع فى الفخ المضاد، فى هذا الموقف من الحياة حين يتألم المرء ويبكى من أقدار البشر البائسة، بشكل إنسانى عام، متجاهلة بذلك بعض المعايير المهمة. هناك صعوبات ضخمة فى الأفق تنتظر المؤرخين والمحللين والمستشرقين. كانت تفكر فى "رفيق" وهو ينحنى على الأطلال وحيداً يبحث عن العلامات والدلائل الغارقة فى بحار النسيان ويجمّعها. فى الوقت نفسه توقفت الحياة فى فرنسا إثر اختطاف إحدى الفتيات فى العراق كانت قد ذهبت إلى هناك مع المساعدات الإنسانية.

وضعت نفسها فى مكان الفتاة المختطفة المرعوبة، ليس فقط لسوء حظها، لكن من أجل تكذيب كل ما قد أوصلها إلى هذه المرحلة. الأمور كانت معقدة جداً كى يستطيع أى أحد أن يقيمها ويصدر حكمًا من وجهة نظر واحدة. لكن لأى جهة يمكن للمرء أن يذهب ويتحرى الدقة؟.

كانت فى خطر الوقوع فى الفخ، أن تتشبث بهذا العالم الجديد بالنسبة لها الذى يعرض أمامها من خلال حكايات وأساطير، دون أن تقترب منه فعليًا إلا من خلال وسطاء أغلبهم رحلوا عنه بالفعل. لكن هل العالم ينقسم إلى هؤلاء الذى يعيشونه وأولئك الذين يدرسونه؟ لا يمكن، رغم كل النزاعات والشكوك، كان هناك مكان فى القلب يرفض الانصياع لهذه الفكرة.

صوته على الهاتف قطع حبل أفكارها: «هل أيقظتك؟ أنا رفيق».
«قالت لى "ناتاشا": إنك ستأتين إلى هنا».

لم تجد غير أعذار سخيفة مملة من نوعية، كان لديها بعض الأشياء لتهتم بها، الفواتير وكذا وكذا وفاصل من الأكاذيب البيضاء.

« هل لديك "هيرودوت" فى البيت؟ أحتاجه بشكل طارئ. المجلد الثالث على وجه التحديد... ».

الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، يتصل بك رجل ويسألك عن مجلد لهيرودوت. ماذا تفعلين؟.

« أعتقد أنه عندى يا "رفيق". سأحضره لك غداً».

هو يسألك إذا كنت بخير، ماذا تفكرين وماذا تقولى له؟ كنت أفكر، كيف ستكون حياتى مع رجل مثلك؟ هل سنخرج فى نزهات، هل سنرتاد المقاهى؟ أم أنك تريد سكرتيرة خاصة أنت أيضاً؟

لم تكن "مارثا" تستثمر أى شىء مع رجل قبل أن تجربه. كيف إذن بعد هذه الأحاسيس المرهفة التى تبادلاها والنظرات والحنان يمكنها أن تعتمد على رجل كهذا؟ من سيقوم بالخطوة الأولى كى يكسر هذا الجليد؟.

فى اللحظة التى سقطت فيها على الفراش كانت تفكر فى أنها قد تكون مخطئة فى أن تترك "رفيقًا" حتى ولو لليلة وحده فى بيت "كيراميكو".

لم تعد تقلق من "ناتاشا"، ليس لأنه فى فراشها كان ينام "حمزة"، ولكن لأن علامات الاعتزال كانت تظهر بقوة على "ناتاشا". الألف عاشق كانوا أمراً واقعاً، أو ربما كانوا واقعاً افتراضياً، الرهان الآن بالنسبة لناتاشا أن تكسب الواحد الأوحد المتفرد الأخير للأبد. ربما من الآن فصاعداً كان المطلوب هو البحث عنه.

بحثت عن المجلد الثالث لهيرودوت فى تلك الإصدارات القديمة التى كانت لأمها. أمها الطيبة اللطيفة المجنونة. سلسلة منسية من دار نشر قديمة كانت تنشر الأعمال الكاملة للكتاب اليونانيين. المجلدات ذات الجلد المخدوش المزيف لدار النشر بابيروس، تاريخ إصدارها يقترب من عمرها. فتحت المجلد الثالث ورأت مايشى بأنه قد قُرِئ من قبل: فبه خطوط بالقلم الرصاص، ممن ياترى؟ من أمها الطيبة. وماذا خططت دايزى المجنونة؟ وكأنها كانت تقرأ مجدداً رسالة أنتونى (وكأن الجميع توقفوا واعتمدوا على الفقرة نفسها). يقول "هيرودوت" إنه تعرف على إلهين عربيين، فى الواقع كان أحدهما امتداداً أو تابعاً للآخر. كان الإله "ذيونيسوس" باسمه العربى أووتالت، والسماء، اللات، وأفروديتى التى هى العزى.

حبيتى "دايزى"، كانت تعرف كل شىء منذ عشرين عاماً مضت، بل وقد وضعت خطوطاً تحت هذه المعلومات، لكنها لم تحكِ لى مثل هذه الحكايات. تُرى هل كانت تحتفظ به لتحكيها لى يوماً ما؟

كانت هادئة تمامًا وهى تتصل بهاتف "رفيق". اختارت اللغة التى سوف تتحدث بها. ربما الفرنسية كانت أفضل بالنسبة لكليهما.

« هل أيقظتك يا "رفيق"؟ ».

« لا، مازلت أقرأ... ».

« حسنًا فعلت. أريد أن أطرح عليكَ سؤالاً. لا تعطنى الإجابة الليلة لكن...».

كان الصمت يحمل تساؤلات عديدة.

« أنا أعرض عليكَ الزواج. فكر فى الأمر. أحبكَ ».

سُمع صوت كأنه هدير أنفاس غير واضح.

أغلقت الهاتف ولم تفتحه إلا فى الصباح.

(٤)

الجمهور المحتشد فى الشوارع الموازية لشارع "بيريوس" لديه كل الأسباب والحق في التذمر. ليس من المعقول أن يقام حدث مهم كافتتاح معرض للفن التشكيلى فى تمام الساعة التاسعة مساءً فى شهر مايو حيث عشش الحر فى أسفلت الشوارع، هذا لا يجوز أيها السادة الرعاة ومحبو الفنون، من أين أتت لكم هذه الفكرة أن يتم الحدث فى يوم عمل وليس عطلة بل وفى ساعات عمل المخازن والمصانع فى هذه المنطقة الخرقاء، سائقو الشاحنات والناقلات واللوادر والعمال يسبوننا ويتهمون القائمين على المعرض بأنهم يقطعون أرزاقهم وبأن الحال سيؤول بهم أن يصبحوا خداماً للأثرياء وهواة وجامعى وممولى الأعمال الفنية التافهة.

ربما كان هذا هو لسان حال البشر الذين يحولون دون حدوث أكبر حدث فنى فى هذا العام. معرض فن تشكيلى كتبت عنه فى الصحف والمجلات مقالات عديدة تحدثت عن طريقة وضع الأعمال وعن الرسائل التى تحملها أيضاً:

الطابق الأول. الجحيم. « أشلاء أجساد، خنادق ».

مسيرة الجمهور نحو مكان المعرض كانت تمر خلال ممر متاهىّ مثل نفق افتراضى مما كان يولد إحساسًا بالاختناق للمشاهدين القادمين. فرغم أنه لم يكن هناك ضغط من الجمهور من على الأجناب إلا أنه كان محوطًا بأسلاك شائكة مزدوجة: كان أحد أجنابها ينتهى بمسامير شائكة مثل تاج المسيح المنقوش على الأيقونات الكنسية، وعلى الآخر كانت تنتهى أطرافها بمصابيح صغيرة مثل تلك التى تزين أشجار الكريسماس؛ لذا، ففى اللحظة التى يود فيها المشاهد أن يستمتع – من بعيد – برفاهية المشاركة فى افتتاح معرض كهذا، يقشعر بمجرد أن تسقط عيناه على هذا المنظر من قريب. تخيل، – فى أسوأ الأحوال، بعيداً من هنا – إذا تم دفع أحد بطريق الخطأ على الأسلاك الشائكة؛ شىء كان يستحضر إلى الذهن موجة من الصدمات، دفع بشرى بطريق الخطأ كان يكفى، أن يجد المرء نفسه مجروحًا وغارقًا فى دمائه، كجزء أو مشاركة عفوية غير مقصودة فى حالة عرض فن تشكيلى كانت تبدأ بالفعل من خارج المكان.

تساءلت "رانيا" ليماندرى" وهى تهتز على كعبين مدببين عاليين: «هل هذا ما يطلقون عليه قاعة للفنون؟»، كانت فى رفقة الرجل الشاب بالطبع الذى كان متعلقًا فعليًا بذراعها. الفستان الأزرق الضيق المفتوح الذى كانت ترتديه كان يجبرها أن تقوم بإيماءات غير طبيعية فقد كانت كالسجينة التى تبحث عن حريتها فى زنزانة خانقة. (بعد بضعة شهور

من الآن ملاءة بيضاء ستلتف حول جسدها بعد أن حاول ثلاثة رجال أشداء أن يروضوا جسدها المتمايل مما سيدفعها بعيدًا عن حياة العقلاء. لن يعلم أبدًا رفيقها الحزين شيئًا عن سبب هذا المصير.لن يستطع أى عزاء أن يقنعه بأن "رانيا" لم تستطع تحمل هذا القدر من السعادة الذى جعلها تشعر بأنها أسعد امرأة فى الكوكب. لكنه سوف يذكر آخر كلماتها عندما كانوا يسحبونها، « حسدونى، سحرونى... انقذوا الأخريات!»).

سألت "رانيا" رفيقها: «هل ترى "ناتاشا" فى أى مكان هنا؟»، فراح يلقى نظرة فاحصة احترافية حول المكان الواسع. لا، "ناتاشا"، الراعى الكبير والمشتركة فى تنظيم هذا الحدث الفنى الضخم لم تظهر بعد.

تمتمت "رانيا": «لا أعرف عنها شيئًا فى الأيام الأخيرة»، ولمحت "فاسيليس" بطرف عينها الذى كان يبدو مضطربًا وقلقًا من حجم المعرض، حيث إن الطابق الأول بكل أركانه كان مخصصًا لعمله الجديد. الجحيم تم عرضه أخيرًا، ينتظر النقد القاسى، اللوحات ذات الخمسة أمتار تم وضعها إلى الجوار ملتصقة بشكل غير مرئى حتى تظهر كلوحة واحدة وحتى لا تفقد وحدة الموضوع.

الأجساد الرصاصية المتقطعة والأعضاء البشرية، خليط من الأعضاء والعظام، متجمعة فى معسكرات خطرة، معلقة على الدعامات الخشبية، والرؤوس على الحوائط. بين الرسومات هناك كلمات مكتوبة

بشكل متفرق، أسماء لأشخاص مفقودين ومجهولين، أسماء يصعب نطق حروفها المركبة الساكنة منها والمتحركة، يبدو أن النفس اللازم لإخراج الكلام لا يكفيها. رغم اعتراضات بعض المنتجين الموجودين على « الطرح الأحادى » للشعوب المُعذَّبة، لكن لا أحد يستطيع أن يشكك فى الطابع الفنى أو شخصية الفنان والمعرض ككل.

احتضن "فاسيليس" "رانيا"، كان مديناً لها بالكثير، بدت له "رانيا" سعيدة بتوتر، لكن "رانيا" كانت تتبنى سلوكًا طنانًا فخيمًا مبالغًا فيه.

«سألت "رانيا" "فاسيليس" عن "دوران"، إذا كان لديه أخبار عنه؟».

« فى هولندا، لكن لا أظن أن يبقوا عليه هناك. سيدور على أوربا كلها حتى يمنح حق اللجوء فى بلد ما».

« كان من الأفضل أن يبقى هنا...».

« ربما تكونين على حق. من الجائز أننا هنا لا نمنحهم أوراق إقامة لكن لا نرحلهم فى أول فرصة. أخشى أن يكون لدوران مخططات أخرى فى رأسه».

(لن يسمع "فاسيليس" أى شىء عن "دوران"، لكن بعد عامين سيذهب إلى هولندا، ليشارك فى معرض عن البلاد بلا أرض، سيبحث عنه فى الشوارع والمقاهى بلا جدوى».

سيأتى "تيتو" فى هذه الأثناء ليعرفه على الناقد الفنى اليونانى الذى يقوم باختيار الفنانين ليشاركوا فى معارض دولية. ابتسم "فاسيليس" بسعادة، فهو ذلك الشخص الذى لن يمد يده مصافحًا أبدًا ليعرف نفسه هكذا من تلقاء نفسه.

« كان لابد للمعرض أن يكتمل بأعمال الفنانين اللبنانيين ».

قال "تيتو" بمرارة: « لقد أخبرونا منذ فترة أنهم لن يستطيعوا القدوم قبل الصيف ». « غضبت "ناتاشا" كثيرًا، لم يكن ذنبهم، فلم يسمحوا لهم بالخروج من بلادهم بالمادة الفنية التى نفذوها ».

كان موضوع العمل عن شهداء العمليات الانتحارية معتمدًا على المادة الفيلمية الأصلية التى ينفذها الرجال الفلسطينيون قبل ذهابهم لتنفيذ عملياتهم بوقت قصير. كان كل من "بلال" و"ربيع" قد اتصلا قبل وقت كافٍ ينبهونهم إلى العوائق التى يضعونها أمامهم لنقل العمل خارج البلاد.

قال "تيتو" وهو يطلب مقعدًا: « فى النهاية سيرفعون المادة الفيلمية كاملة على شبكة الإنترنت على أحد المواقع الخاصة، ليكون عرضًا مفتوحًا مستمرًا » جلس وهو يتصبب عرقًا.

يمكننا القول إن عمله الأخير هذا هو ما أبقاه حيًا حتى يكتمل. (سيعيش ثمانى أشهر أخرى فى فندق« سالامينا»، عند ميناء "بيريا". عمال النظافة فى الفندق سيجدونه على الأرض ميتًا. أغراضه الشخصية وكتبه المفضلة ستوضع فى أكياس سوداء وتلقى بها فى القمامة،

أشعار صوفية إسلامية و مجلد نادر لأشعار Thom gunn، الذى كان يحاول بنفسه أن يترجمه إلى اليونانية قبل أن يموت. ستحمل عربة قمامة البلدية هذه الأشياء إلى مكان بعيد لتضيف إلى أكوام القمامة، قراءات حياة كاملة.)

قالت "ناتاشا" وهى تقترب منه تاركة "حمزة" خلفها: « تيتو يا حبيبى! » ونتج عن اقترابها أن ممراً فُتح، ليس لأن أحداً ما طلب هذا ولكن لأن "ناتاشا" كانت لديها المقدرة أن تفرض إفساح الطريق أمامها بين الجموع.

همس هو: « ياله من فستان جميل!» « لقد صار أجمل لأنك ترتديه... ».

« لا داعى أن أذكر لك من أين أتيت... ».

لكن كان هناك داعٍ أن تتذكر. صديقة لبنانية فى الرياض متزوجة من يونانى، أحد المساهمين فى شركة تأمين دولية،أرسلت إليها بعد أن تقابلا مصادفة فى مطار "إليفثريوس فنيزيلوس" باليونان بعد زمن طويل. رحلتها التى كانت متجهة نحو "نيويورك" قادمة من "السعودية" هبطت اضطرارياً فى المطار الأثينى بعد أن تلقت تهديداً إرهابيًا. اضطرت صديقتها أن تقضى الليلة فى فندق "سوفيتل" القريب من المطار فتقابلت معها أمام المدخل.

مضت سنوات طويلة على لقائهما! صديقتها الكريمة وعدت بأن ترسل إليها بهدية. وكانت الهدية هذا الفستان الذى كان خروجه من الجمارك مشكلة فى حد ذاته؛ مما أدى إلى تأخر وصوله. مشغول ومرصع بشكل يدوى بنجوم ذهبية قامت به نساء عربيات، كما ذكرت "سونيا"، لكن "ناتاشا" كانت ترى خلف هذا التطريز الدقيق أنه تم تنفيذه فى أحد أتيليهات "باريس" التى تعمل من أجل زبائن الشرق الأوسط الثريات.

كان "حمزة" ينظر للوحات بجدية، كان من القلائل الحاضرين للافتتاح الذى كان ينظر مليًا للأعمال كأنه يدرسها، ولم يكن يستمع لما يقوله من هم حوله. بدا وسيمًا فى الحلة البيضاء التى كان يرتديها، حتى إنه لفت أنظار نساء كثيرات بل ورجال أيضًا، كانوا ينظرون له بلطف وبشبق أحيانًا. بدت فى عينيه للحظة نظرة ثاقبة وظلامية، إذ إنه داخل الخطوط والرسوم تعرف على بعض المغامرات الحقيقية. رموز صغيرة، إيماءات طفيفة، خطوط ودوائر،أخذ خطوتين للخلف كى يلقى نظرة من بعيد. كانت نظرته تتوافق مع نظرة الفنان، بل ويمكن القول إنه من القليلين الذين كانوا يرون ما وراء العمل الفنى وليس فقط، لكن ممن يعيشون حالة العمل الفنى مرة أخرى. مثلاً، الأفق الممتد الرمادى والبنيّ اللون خلف المعسكرات، مع هذا التراب الحزين كان يراه من خلال حكايات أمه، أيقظت الألوان والأجواء الذكريات داخله.

« كيف يمكن لفنان أن يؤثر ويحرك المشاعر دون أن يرى ما يصفه؟ ».

راح "جاك" الذى كان تائهًا وسط الضوضاء والزحام يعطى تفسيره للأمر. لقد بدأ حوارًا شيقًا وإبداعيًا مع "كلوديا" إحدى صديقاته من "باريس" ذات الجذور اليهودية المصرية لكنها مستقرة منذ سنوات طويلة فى "باريس". ماضيها السفارديم وضعها فى تفسير ممتد للعمل الفنى.

« الموضوع كما تريد أن تراه. بالطبع لا يمكن أن ننسى أن الفنان يُعمد بشكل ما أو بآخر ».

كانت "كلوديا" منذ أيام الجامعة تبهرها باتساع ثقافتها ومداركها وطريقة تفكيرها الشمولية. لكن فى النهاية هل أعجبها المعرض؟.

أنهت كلامها بـ « لدى إحساس بأن هناك ثمة أشخاص دفعوا الفنان أو أجبروه أن يعرض هذه الأعمال. هذه الأعمال هى نتاج حصار ما لجحيم داخل روحه».

لم يكن "فاسيليس" بالقرب منهم.لكن بجواره كانت تقف "ماريانا" تشع من فرط السعادة. على العكس من حزن وكآبة الأعمال المعروضة، كانت تنظر للجموع حولها نظرة إيجابية متفائلة. لم يكن لديها طريقة أخرى كى تظهر سعادتها . شعرت أن حياتها لن تمضى داخل افتتاح معرض ووسط أحداث ثقافية، لكن داخل ثقافة جديدة بالنسبة لها تنتظرها كى تكتشفها بعينيها .

« سنتزوج أنا ورفيق ».

قبلها "فاسيليس" وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

« لماذا لديّ هذا الإحساس أنه من اللحظة الأولى كنت أراك من زاوية مختلفة؟ لم يكن لدى أى شك فى هذا. هنيئًا لك، أرأيت، للصبر نتيجة بالأخير...».

« أريد منك معروفًا يا "فاسيليس". أن تصمم لى فستان العرس الذى سأرتديه فى بلاده. هنا سأرتدى فستانًا عاديًا، لن نقوم هنا بحفل للعرس ».

نظر إليها من أعلى إلى أسفل وكأنه يأخذ مقاساتها.

« تعالى إلى منزلى متى شئتِ... ».

قاطعتها فتاة شقراء متعجلة.

« هل أنت "فاسيليس خاينوغلو؟" ».

« نعم ».

« أنا صحفية... ».

... أعمل فى مجلة. أريد أن أجرى معك حوارًا. قالت إن الأعمال تذكرها بأعمال "بيكون". ابتسم "فاسيليس". مستحيل هذا الأمر. لم يكن لديهم ما يتحاورون من أجله.

سألته "ماريانا" « ولا حتى من أجل العلاقات العامة؟».

« ولا حتى من أجل هذا. فالمعرض كله تم شراؤه بالكامل من قبل "ناتاشا" ».

تساءلت "ماريانا": « يا إلهى، ماذا سنفعل بدونها؟»

« وماذا سيحدث لنا من بعدها؟ ».

لا أحد.

لا أحد كان لديه الوقت.

لم يسعف الوقت أحداً كى يجيب على سؤالها.

كل ماحدث فيما بعد كُتب فى الصحف وسُمع أكثر فى الأخبار التلفزيونية. استغرق نقل الأخبار خمسة أيام من ثلاث قنوات إخبارية فضائية عن أسباب الحريق الهائل الذى نشب فى « مكان المعرض»، بعد مكالمة تحذيرية لإحدى الصحف المسائية. تأمين المكان لم يكن على مايرام كان قليلاً ومعنيًا أكثر بتأمين الأعمال الفنية. لم يكن أحد يتوقع أن معرضًا فنيًا ذا رأى مندد بالجرائم البشرية سيسبب الضجر للكثيرين لهذا الحد - كانت هناك أمثلة تخريب أعمال فنية من هذا النوع فى الماضى، لكن تهديداً بهذه الجدية والفظاعة لم يتم تنفيذه من قبل.

هرول رجال شركة الأمن الخاصة ليبلغوا بعض المدعوين الذين ينتمون إلي الحقل الثقافى، وبعدها مباشرة سُمع صوت "ناتاشا يانوبولو".

« بالتأكيد ليس هذا التهديد مجرد مزاح ثقيل. ليخرج الجميع من هنا فوراً! »

كانت الجموع التى حاولت الهروب من شارع "بيروس" تبدو كأنها تسقط فى نهر كى تطفئ الحريق - وإن كان الحريق لم ينتشر بعد - ، كان أغلبهم متوتراً لضياع السهرة وتجعد ملابسهم.

قليلون هم من تساءلوا عن أثر حادث كهذا فى السنوات القادمة، أمر لا يستطيع أحد أن يتنبأ به.

فعلاً، الحريق انتشر بشكل منتظم وفى غضون دقائق التهم كل الأخشاب والأعمال الفنية.

قوات الإطفاء عندما وصلت نجحت فى أن تمنع الحريق أن ينتشر أكثر ويلتهم البناء بالكامل.

رأى "فاسيليس" أعماله تختفى فى أقل من ثلاث دقائق وشعر بأن الانتقام يعود كشعور منسىّ إلى روجه. تقوقعت "ماريانا" فى حضن رفيق، على حين كانوا يدفعونهم ليبتعدوا. أتمنى أن يكون مجرد ماس كهربى، قالت. ولكنه لم يكن. قوات الإطفاء كشفت أن الحريق بدأ من داخل المبنى وبالتحديد من الحمامات. تحدثوا عن أقمشة مبللة بالبنزين.

لم تعلن أى جهة مسؤوليتها عن الحادث، لم يكن هناك غير المكالمة التليفونية التى حذرت.

بعد أسبوع، اضطرت "ناتاشا" أن تعجل من رحيلها. أغلقت البيت جيداً ورحلت وحيدة، دون أن تخبر أحداً، مؤجلة بهذا كل مخططاتها لبدء المؤسسة فى بيت "كيراميكو".

الجزء العاشر

تونس

(١)

خيم الليل وحل النسيم إثر الرياح الغربية الشمالية والمتوسطية فى الوقت نفسه، فبات الجو رطبًا بعد أسبوع من الحر القائظ. السيارة التى كانت تحمل عروس المستقبل راحت تقطع طريق الشاطئ الذى يبعد مسافة كيلو مترين عن الفندق من على الكورنيش حتى قاعة الاحتفالات فى الميناء المغلق لبنزرت.

كان كل من "رفيق" و"ماريانا" يجلسان على المقعد الخلفى للسيارة المكشوفة. كان المارة يتدافعون بفضول حتى يروا السيارة التى يصيح بوقها طالبًا إفساح الطريق وسط تلويح المارة بالتحية والحماس للعروسين الشابين.

كان "رفيق" يفتخر بمدينته، « لابد أن ترى المدينة حتى تفهمين» كان يقول هذا منذ كانا فى "أثينا"، ليس لأنه ولد هنا، هى جوهرة حصيفة الجمال، ميناء، قلعة تقع على قمة قارة إفريقيا والمتوسط. تشبه النساء المحليات الجميلات المتواضعات اللاتى ليس لديهن سبب كى يشهرن أو يفتخرن بجمالهن، هكذا "بنزرت" التى تحمل أسرارًا كثيرة ومحصنة أيضًا من هجوم السائحين الذين يملؤون المناطق المحيطة.

جقًا، "بنزرت" هى مدينة متوسطية ذات مناخ لطيف. تُذكر "ماريانا" بذكريات بعيدة عن مدينة "نافبليو"، أو ربما أكثر مدينة خانيا الكريتية، أو بجزيرة "كو أور روذوس"؛ موانى بها قصص الحصار والقرصنة نفسها واختلاط الأجناس التى تدور فى ذات الأمكنة.لديها الكثير لتقرأ فى المستقبل عن وطن زوجها، لكن هل يتسع البيت لوطنين؟.

فجأة تقاطع طريقهم مع موكب عرس آخر. فرقة موسيقية كانت فوق سيارة نقل تتبع سيارة العروسين. كان الموسيقيون ينفخون المزامير مخاطرين بوقوفهم أن يسقطوا تحت الشاحنة التى يقودها أحدهم على إيقاع الأوركسترا.

صيف الزواج. كل ليلة هناك عرس، فى كل حى ومدينة، ليس نحن فقط.

« L'ete des marriages» شرح لها "رفيق" بلكنه فرنسية عربية غنائية.

بينما توقفت السيارة المزينة بالأشرطة البيضاء وزهور الياسمين أمام مدخل دار السينما القديمة الذى تحول إلى قاعة احتفالات، التفت ونظر إلى العروس بانتباه، كان أحد أصدقاء العريس فى الخارج يفتح باب السيارة. كانت فرقة موسيقية تعزف لهم هذه المرة مصطفين على جانبى الرصيف الذى يقود إلى مدخل السينما. كانت الفرقة

تعزف ألحانًا مبهجة بالطبول والمزامير؛ أعضاؤها يرتدون القمصان الحمراء على حين وجوههم الملفوحة بالشمس كانت تبرق من السعادة. الرجال، أصدقاء وأقارب العريس كانوا يرقصون عند المدخل، على حين النساء كن يرتدين فساتين سهرة طويلة ثقيلة مزركشة أطلقن الزغاريد.

كانت البنات يتطلعن باهتمام بالغ نحو العروس وهى تخرج من السيارة مرتدية فستان عرس أبيض جميل وبسيط؛ إذ إنها كانت المرة الأولى التى يرين العروس الأجنبية. بعضهن تنبأن بحركة العروس وهرولن يلملمن ذيل الفستان بعد أن قامت العروس بالالتفات إلى الوراء بالفعل كإيماءة كلاسيكية - فعل ورد فعل طبيعى فى هذه الأحوال.

ثوانٍ بين السيارة والدرج العريض. كان على العريس والعروس أن يتوقفا قليلاً بين الجموع التى كانت فى استقبالهما لإتمام أحد طقوس الليلة.التفتت "ماريانا" ونظرت نحو "رفيق" ورأته لأول مرة متحداً مع مكانه، ومع الحياة التى تبدأ أمامه.

فى اللحظة المقبلة يحدث كما نقول فى الأدب « لحظة الاكتشاف» وهى لحظة أو ومضة كاشفة، حيث يكون البطل فى لحظة حاسمة من حياته يتنفس كونًا هائلاً من الصور والمعلومات، رموز وأحداث لكل ما عاشه وحدث له ولكل ما سوف يحدث. لكن « لحظة الاكتشاف »... وكأن هذه اللحظة تعنى ظهور الرب للعبد أو كشفه.

هكذا كانت "ماريانا" فى أجزاء دقيقة من الثانية، توحدت مع تشبيكة نص يشكل كتابا تصفحته وصححته فى الوقت واللحظة نفسها، صححت أخطاءه وأكملت نواقصه.

بينما كانوا يشيرون إليها لتدخل القاعة حيث كانت تدق الموسيقى وينتظر المدعوون، التفتت بنظرها نحوالبحر حيث كان النسيم يحمل لمسة، رسالة، علامة علت فوق أسوار المدينة القديمة عبرت كل الحواجز وجاءت مثل شهاب مفاجئ. مثل بريق نجمة سقطت من السماء، كانت تراه يبرق بوضوح أكثر من أى شىء آخر. "نجم العزى"! كان هناك يضىء حياتها طبقًا لقدرات معرفتها وما قد اكتشفته.

"العزى"، قالت لها قبل شهور« أينما تكونين فى حوض المتوسط، وحتى أعماق الشرق، ستريننى فى المساء، فى المكان نفسه، أشع من أجلك».

أجزاء دقيقة من الثانية بقت لتعبر القاعة حتى طاولة العرس، وفى هذه البرهات القليلة تمددت كل الأحداث التى عاشتها تحت ضوء نجم "العزى"، شهور طويلة مضت منذ المرة الأولى التى تقابلا فيها.

تذكرت بين قراءاتها أحد الرهبان يقول إن العالم ليس مصنوعًا ليصبح كتابًا. كلٌ يحمل داخله كتابًا لن يستطيع أبدًا أن يكتبه – هناك كتب يستحيل كتابتها.

لكن هى نجحت فى إتمام كتابها ومعه نجحت فى كتابة مصيرها. هل يحمل هذا الخير لها يا تُرى؟ لكنها لم تتردد فى أن تحول رؤيتها التى سيطرت عليها إلى واقع ملموس، إذا لم تثمر الرؤية، ليس بوسعك أبداً أن تعرف إن كان هناك خير فيما حلمت به. خوفها الوحيد كان يكمن فى إذا ما كانت هى نفسها بطلة إحدى الروايات.

لكنها لن تحتمل السلبية أكثر من هذا. ستحولها إلى شيء غير مرئى تقريبًا. كانت محملة بالواجبات وكأنها مكلفة بمهمة أن تنظر إلى الأشياء من قرب وعن بعد.

تقدمت مليئة بالأفكار فى الصالة حيث كان الجميع ينتظر العروس الأجنبية القادمة من الناحية الأخرى للبحر.

(٢)

جلست على مصطبة رخامية ضخمة بين عمودين شاهقين وهى تتكئ بكفيها على الحجارة الساخنة وكأنها بين أنقاض أعمدة أحد المعابد. خلفها صف وحيد من الأعمدة متراصة بشموخ تقود نحوالشارع المتجه نحو السوق المهجور. تنطفئ الشمس فوق التل القاحل الذى اصفَّر لونه مثل نار ذهبت لتروى عطشها فى الليل. صار لون الأرض رمادياً باهتًا فى القلعة. الحجارة المتناثرة تملأ الشوارع الترابية فتعرقل مسيرة المارة.

يسير حولها بعض الناس الذين تعبوا حتى وصلوا إلى هنا. يحملون فى أيديهم أشياء صغيرة وينظرون إلى الآخرين من بعيد ويبتسمون، وثمة بريق يشع من الأشياء التى يحملونها. يكملون سيرهم بعد ذلك وهم يتأملون الخرائط ــ تعتريهم الدهشة، كيف لم يتم اكتشاف هذا كل هذه السنوات....

كانت هى بجوارهم، لا يستطيع أحدهم أن يلمسها على حين تبتسم هى من فرط الجهل، من عمى الناس. ستمر سنوات طويلة حتى تتعلم كلمة « تصوير»... حل الليل وراح العالم يغرق فى الظلام.

روحها مربوطة بهـذا العـالم الصغير والكبير فى الوقت نفسه، فى هذا المكان تلتقى قوى العالم الرئيسية، هى مربوطة بالكلمة، بالنار، بالقوى الإلهية والزمن، بهـذا الانسجام الخفى، بقـانون الطبيعة، بالقدر والحرب.

تعبر روحها تيارات النهر عندما تنهمر فتصبح روحًا إنسانية. تحتل الأجساد، تهجر النار وتصبح ماء.

جسد امرأة له اسم محدد سوف يختار. سوف يستنشق أكثر كمية قوة باقية داخل الصدر ثم بعد ذلك سيختفى إلى جانب النبات، سيمتزج مع النخيل الذى يقاوم القيظ وينحنى مع حركة الرياح.

المرأة تتنفس بعمق. فتحتا أنفها تشم اختلافات العالم. عيناها مفتوحتان لنور النهار. الستائر نصف مفتوحة. حجرة. دولة. أين هى يا تُرى؟.

سألها رجل بجوارها: «ماذا بك يا ابنتى ؟».

همست «شعرت بمس غريب الليلة، كأن شيئًا ما يقترب منى...»

انكمشت في أحضانه خائفة لكن بارتياح.

«.الليلة الأولى للزواج بها الكثير من المس».

« ليس هذا فقط يا رفيق».

« ماذا يمكن أن يكون غير ذلك أيتها العروس الحالمة؟ ».

« كان شيئًا.. كأنه لمسة علوية... شيء لا يوصف... لا تظن أن الجنون قد أصابنى، لكن كأننى كنت فى مدينة قديمة..يمكنك أن تسميه حلمًا... وأننى قد قابلت روح الـ... ».

« الإلهة... كنت أتوقع هذا! ».

نهض عاريًا من جوارها ومنفعلاً.

« لن ننتهى من المدن القديمة! "ناتاشا" جديدة بين يدى! كان لابد أن أتوقع هذا...».

« لا تنفعل يا رفيق؟ ».

« سأريك أطلال مدن كثيرة وأخرى محطمة تمامًا ».

« رفيق... أحبك ».

« وأنا أحبك. لكن الحياة هنا. داخل هذه الحجرة، فى هذا الركن من الأرض... ».

غاص داخلها محاولاً أن يتحد مع حلمها دافعًا إياها أن تترك نفسها لحقيقة جسده. الأنفاس والأصوات ربما تخطت حوائط الحجرة، على حين كان هو يتنهد فى صمت وصبر كالغزاة. تركته ينحدر ويقذف تاركًا أثرًا من الخطوط المبللة على الموكيت المترب.

نهضت "ماريانا" ووقفت أمام الشرفة بعد أن أزاحت بجسدها الستائر الثقيلة. ضوء قوى غمر الحجرة وكشف عن كل عيوب البناء وكل

زينة فقيرة. لفت جسدها بروب ونظرت إلى الأفق البعيد فى البحر. كان هناك بشر كثيرون على الشاطئ ينزلون إلى الماء، أكثرهم من الشباب، ينتعلون أحذية بلاستيكية ويحملون البشاكير فى أيديهم. لا نظارات شمس ولا قبعات.لا شىء يطفو على الماء. لا سفن ولا قوارب. فقط الماء الذى يتحد مع الأفق الأزرق فى العمق.

اقترح رفيق بعد أن خرج من الحمام: « هل ترغبين أن نذهب لنغوص فى البحر قليلاً؟ سنتناول الفطور بعد ذلك»

عادت فوجدته قد ارتدى ملابس السباحة. نحيف، جاد، منطوٍ لكنه زوجها. تجهزت هى الأخرى. بحثت عن كتاب لتأخذه معها وأخذت معها قلم رصاص.

« فى المساء سنذهب للعشاء عند أهلى، لا تنسى، وغداً سنبدأ سياحة... شهر العسل. ستشبعين من الأطلال!».

ارتدت المايوه وتبعته.

قال ناصحًا: «من الأفضل أن تضعى شيئًا فوق جسدك...».

«الشاطئ على بعد خطوات».

قال "رفيق": «أنت لا تتمشين فى بلادك هنا».

أخذت غطاء جميلاً أهدته لها "ميشيل" ولفته حول خصرها العارى. نزلا إلى قاعة الاستقبال فى الفندق، كانت فارغة تقريبًا، خرجا نحو

حمام السباحة وحديقة الفندق. عبرا بين الزهور ثم إلى البوابة الحديدية الصغيرة التى أغلقها "رفيق" خلفه، ثم وصلا إلى الشارع الصغير المليء بشجيرات التين ومنه وصلا إلى الشاطئ.

خلعا ما ينتعلانه ثم غاصا فى الرمال. وكأن أجسادهما قد هبطت على الأرض. أقدامهما حملت ملايين المعلومات والإشارات إلى عقليهما. فرش "رفيق" البشكير على الرمال وتمدد. هرولت "ماريانا" وغاصت فى الماء.

كانت الشمس حارقة. تمددت على ظهرها وفتحت ذراعيها، فطفت على سطح الماء الساكن. تساءلت إذا كان وضع السباحة هذا مناسبًا للمرأة، لكن أسئلة مثل هذه كانت قد حصلت على إجابتها منذ فترة. أو ربما لا؟

سكون الماء لم يمنع تياراته الداخلية أن تدخل وتخرج فى فتحات جسدها. راحت تشاهدالخط غير المرئى تقريبًا الذى يوحد السماء مع البحر، هذا الخط الذى لم يمسه أحد من قبل.

لا أحد ولا شيء يستطيع أن يحرمها من السباحة والحلم. أغلقت عينيها فلم يمنع هذا دخول الأشعة الجانبية للشمس من بين رموشها وجفنيها، عندما فتحت عينيها وجدت غطاءها البرتقالى يسبح بعيداً.

سبحت لفترة ليست بالقصيرة. كان "رفيق" يقرأ على الشاطئ: كان يقرأ كتابها، كان يحاول أن يفهم لغة كتابتها، أو ربما كان يحاول

أن يرى نفسه بها. رجل فى منتصف العمر يحمل سلة تحت إبطه قاطعه؛ كان يبيع الكعك المرشوش بالسكر. يبدو أنه كان يعرف "رفيق" إذ كانا يتحدثان واقفين.

غاصت "ماريانا" التى كانت منعزلة عن كل شىء وتشعر بسعادة متناهية، برأسها فى الماء وحبست أنفاسها. عندما أخرجت رأسها، رأت "رفيق" على الشاطئ يلوح لها بذعر واضح.

نظرت حولها. هدوء تام، لكن كتابها..: كان يطفو بهدوء على سطح الماء. أمسكت به بسرعة وخرجت وهى تقطر ماء، عارية تقريبًا، علامة لعدم الطاعة.

« ماريانا، لا أ ستطيع أن أجد كتابكِ! كنت أقرؤه... ».

لم يكمل جملته حتى رآه بين يديها المبتلة، كان جافًا وكأن شيئًا لم يمسه.

قالت "ماريانا": « كان يسبح بجوارى... ».

سأل "رفيق" وهو يفرك عينيه « كيف حدث هذا؟ ».

ابتسمت "ماريانا" بغموض.

أخذ "رفيق" الكتاب من يدها ونظر إليه بتعجب. راح يسألها: "ماريانا"، ماذا يحدث؟»، لكنه فضل أن يبتلع سؤاله.

امرأة أخرى، امرأة جديدة، خرجت من قالبها القديم، قوة روحها لم تعد كما كانت فى السابق. سيمر وقت طويل حتى يدرك هذا الرجل الذى اختارته ليعيش بجوارها.

فى هذا الوقت كان الشاطئ يمتلئ بالناس فيما لجأ هو للألفة بين بنى جنسه.

تمددت على الرمال الساخنة وفتحت رواية ضخمة لإحدى النساء تحمل عنوان:

"ألف عاشق وعاشق"

ملاحظات الكاتب

- هذه الرواية كتبت بين عامى ٢٠٠١-٢٠٠٢م وبين ٢٠٠٢- ٢٠٠٤م.

- كان كتاب الحضارة اليونانية فيما بعد العالم القديم Glen W. bowersock من إصدارات مؤسسة البنك الأهلى اليونانى عام ١٩٩٦م المصدر التاريخى الرئيسى.

- أبيات الشاعر أدونيس مأخوذة من ترجمة لمختارات من أعماله باللغة اليونانية فى عام ٢٠٠٣م.

- دون التعرف على هيلين ب....، لم يكن ممكنًا قط أن تتشكل شخصية "ناتاشا".

المؤلف فى سطور:

ثيوذوروس غريغورياذيس

– ولد فى عام ١٩٥٦م فى باليوخورى باناغيو فى إقليم كالاماتا.

– درس اللغة الإنجليزية والأدب فى جامعة ثيسالونيكى.

– ظهر فى الوسط الأدبى اليونانى فى عام ١٩٩٠م برواية « بشر مخفيون». تلا هذه الرواية مجموعة قصصية بعنوان « قضيب عتيق ». ثم روايات « البحار»، « راقص الزيتون »، « مياه شبه الجزيرة »، « قطعة قماش رثة » (ترجمت ونشرت بالفرنسية، دار النشر Alter edit). ثم رواية: « خارج الجسد ».

– أقام بين عامى ١٩٩٩ – ٢٠٠٣م فى المكتبة العامة لإقليم سيرون دورة تدربية للكتابة الأدبية لمدة ثلاث سنوات.

– ترجمت مجموعاته القصصية إلى الإنجليزية والهولندية.

– يعيش فى نيازميرنى (أثينا).

المترجم فى سطور:

خالد رؤوف

ولد فى الإسكندرية – جمهورية مصر العربية.

الدراسات:

– درس الآثار اليونانية الرومانية فى جامعتى الإسكندرية وأثينا.

– درس اللغة اليونانية فى جامعة أثينا وحصل على دبلوم الترجمة فى الجامعة نفسها، وكذلك دبلوم الترجمة فى مدرسة الاتحاد الهلينى الأميريكى.

– درس اللغة الإيطالية فى مدرسة KAPATO وحصل على شهادة فى اللغة الإيطالية معتمدة من جامعة روما.

حصل على إجازة الماجستير والدكتوراه بمرتبة الشرف فى جامعة شيكاغو فى تاريخ الفن الكلاسيكى (اليونانى الرومانى).

ترجم من الإنجليزية إلى اليونانية (الحب الأول) لصمويل بيكيت، والتى قام بعد ذلك بإعدادها المسرح الشاعر اليونانى ثانوس

ستاثوبولوس - ثم ترجمها من اليونانية إلى العربية لفرقة ART SYNDYCATE التى شاركت بها الفرقة فى مهرجان المسرح التجريبى فى عام ٢٠٠٤م.

- ترجم بعض قصائد لأوتجارينى من الإيطالية إلى العربية.

- ترجم بعض القصائد للشاعر اليونانى نيكوس كافاذياس من اليونانية إلى العربية.

نشرت له مجموعة من القصائد باليونانية فى بعض الجرائد اليونانية وبعض المجلات المتخصصة.

ترجم مختارات شعرية للشاعر اليونانى الكبير بانيس ريتسوس من اليونانية إلى العربية، صدرت عن دار جدار الثقافة والنشر.

التصحيح اللغوى : جمال عبد الحى
الإشــراف الفنــى : حســن كامل

هل كانت هناك بالفعل (أثينا) ذات طابع شرقي أم أنها تشكلت في خيال القراء الرحالة؟

في منزل قديم في حي الـ كيراميكو بأثينا، ستحاول امرأتان أن تقدما إجابتهما الخاصة على هذا السؤال، وتبدأ كل منهما من محطة انطلاق مختلفة.

ناتاشا ذات الأصول الشرقية، امرأة ناضجة غامضة، يحمل قدرها جذورًا مزدوجة، وسرًا وروح وجود آخر تم إحياؤه وتجسيده داخلها.

ماريانا ذات الميول الغربية ستتولى مهمة أن تعيد صياغة مغامرات ناتاشا العاطفية، وستكون المعلمة في (حرم الرجال). المرأتان الصديقتان والمتنافستان في نفس الوقت، ستسافران عبر البحار والصحروات، ستضيعان في المدن الشرقية وأزقتها، ستقطعان حدود الغرب والشرق، ستلمسان حقيقة الكون المقدس الساحر وأركان التاريخ المختبئة، هناك حيث التقيتا كل من الحضارتين العربية والهلينية.

هل سيكتمل الكتاب (ألف عاشق وعاشق)؟

هل سيكون هناك الواحد بعد الألف؟ تُرى مصير أي منهما سيحدده نجم العزى المضيء؟

تصميم الغلاف: نادية كشك